رواية

حارس الرئيس

مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل



محمد عبد الستار إبراهيم

حارس الرئيس

جميع الحقوق محفوظة للكاتب

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٢٠/١/١٦١)

(ردمك) 978-9957-67-742-8 (ISBN)
لوحة الغلاف: الرسام محمد جوخدار.
للحصول على الرواية أو التواصل مع الكاتب:
MOB: 00962/786508236
E-mail: safirkurd@gmail.com
توزيـع: أزبكية – عمان.
العنوان: الأردن – عمان – شارع ذي قاري – وادي صقرة – قرب مخبز غيث.
رقم مكتبة أزبكية عمان: 00962799564475

رواية

حارس الرئيس

محمد عبد الستار إبراهيم

إهداء ..

إلى روح الشهيد عبد الباسط ساروت . .

حارس الثورة السورية ومنشدها .

حرية

وأخيراً أطلقتُ عِنان الدموع لتزفّ ألمي على العيان بعدما منعتُ دموعي وحبستُها، كنتُ أخشى كثيرًا أن تفضحني الدموع، كنتُ أضغط على نفسي وأتشنج وأتصلب لأخفي دمعتي، ولكن الآن شعرت بالحرية المطلقة.

الحرية، هذه الكلمة التي أسمعها منذ سنوات، الحرية التي أوصلتنا جميعًا إلى هذا التناقض والتناحر. حينما كنت أسمع هذا المصطلح "الحرية" كنت أرتعب وأشعر أني سأحُاسَب لمجرد سماعي هذه الكلمة.

لقد تحولتْ هذه الكلمة المؤلفة من أربعة أحرف إلى تهمة، بل يُقرّر عليها مصير المرء. سنواتٌ وأنا أسمع هذه الكلمة بعيدًا عن مسامع العسس، كرهتُها، لأنه باعتقادي، دمرت هذه الحرية وطننا وهجرنا ودمرت الإنسان الذي بداخلنا، أو هذا كنتُ أعتقد.

لكني اليوم أشعر للمرة الأولى في حياتي بمعنى الحرية، أتذوقها، وكم هي لذيذة وشهية هذه الحرية! حتى دموعي كانت تريد حريتها وسلبتُها هذا الحق. يقول المثل: "تتوقف حريتكَ عندما تبدأ حرية الآخرين"، وكانت حرية دموعي تعني فضيحتي، لا أعلم هل هذا مبررٌ كافٍ لنحد من الحريات الأخرى.

وقعتُ على الأرض والدموع تذرف، أنا لم أشعر بالمياه التي تتدفق من عينيَّ، وإنما أشعر بأني حرٌّ فقط.

بدأ كل شيء من حولي يتحول إلى ضباب، أقاوم لأفتح عينيَّ وأعرف ما الذي يحدث مِن حولي، أشاهدُ أرجلاً تركض نحوي بسرعة، أغلق عينيَّ لأعاود المقاومة مرة أخرى. الصراخ في كل مكان، أسمع الصراخ والنحيب وأصوات أقدامٍ تركض، الجميع يصرخ ولكني لا أفهم ما يقال.

أشعر بألمٍ شديد في بطني، والدماء تتدفق في رأسي، وحرارة تشتعل في جسدي، أسحب يدي إلى بطني لأضعها على موضع الألم، يبدو الألم أكبر من وضع يدٍ عليه وأعمق مما أتخيل، ولكن قبل أن تصل يدي إلى موضع الألم، بدأتُ أتلقى ضربات مبرحة، أصرخ بصوتٍ عالٍ بعد تلقي الضربة الأولى من قدم أحدهم على مصدر الألم، رأسي يكاد ينفجر، وأشعر بأن عينيَّ ستخرجان من مكانهما. قاومتُ الألم وفتحت عينيّ، أشعر بدُوارٍ، الأسقف تدور ولا تثبت في مكانها، أقاوم لأُثبّت عينيَّ على زاوية محددة لأعرف ما الذي حدث، ولكني لا أجد سوى أقدام أشخاص أجهل عددهم يتقاذفونني بضرباتٍ قاسية وموجعة. ينتشر الألم في كل أرجاء جسدي، مرة أخرى أخسر معركتي في المقاومة بأن تبقى عيناي مفتوحتين، الفضول يؤلمني أكثر من الألم الذي في صدري وبطني وما ينتج من الركلات القوية. أسمع إهانات وشتائمَ وسبٍّ للذات الإلهية، لكن لا أعرف مَن يسُبّ، وإلى مَن يوجهها، ربما لي؟ أريد أن أعرف!.

لقد اعتدتُ على مدار سنوات طويلة أن أسمع سَبّ الذات الإلهية، بل تحول الأمر إلى شيء عاديّ بيننا، وكثيرًا ما يضحك الجميع على سَبّ الذات الإلهية ولا يوليه أحد الاهتمام.

أسمع صوت أرجلٍ تركض وتقترب، وصوت أحدهم يصيح: "جيبوه لهذا الخائن"، تُرى مَن يقصد بالخائن؟ لأننا في هذا البلد بات الجميع يتهم الآخر بالخيانة دون أن نعرف ما الذي نقصده بهذه الكلمة، سنوات طويلة وأنا أسمع

تقريبًا كل يوم هذه الكلمة، لكن يبدو وقْعها على أذني هذه المرة من النوع المرير، اقترب صوتٌ من أذني يقول: "لننتقم منك يا خائن"، إنه يقصدني، أنا أكثركم حرصًا على هذا الوطن، أنا أعشق تراب الوطن، لا شيء في هذا الكون يجعلني أرتجف سوى الأشياء التي تتعلق بالوطن. أنا لستُ خائنًا. أضغط على نفسي وأسمع زقزقة أسناني وأنا أضغط عليها لأفتح عينيَّ وأرى هذا الذي ينعتني بالخائن، لقد كان لوقع نعتي بالخائن على نفسي أشد ألمٍ من الآلام التي أعانيها. أجمع قوايَ لأفتح عينيَّ وأصرخ في وجهه: "لستُ بالخائن أيها الجاهل!"، أرفع رمشي، وفتحتُ عينيَّ لأصرخ في وجهه، أجد رجلًا يبدو طويلًا جداً جداً جداً، لا أرى ملامح وجهه، فالضوء الساطع من السقف يحجب ملامحه عني، وإذ به يرفع ركبته وأرى كعب حذائه يضرب وجهي.

تقول أمي..

مع بلوغي الثامنة عشرة من عمري، أسأل أمي القروية البسيطة، عن يوم مولدي سنة ١٩٧٠، كيف كان ذلك اليوم، لا أدري لماذا سألتُها، ألا إن الإنسان الذي يرسم مستقبله، يريد أن يعرف ماضيه منذ لحظات ولادته، يريد أن يدونها في ذاكرته؟

يتكون منزلنا الطيني، كما سائر بيوت الضيعة (القرية)، من غرفتين يفصل بينهما مطبخٌ صغير، وفسحة أكبر من المطبخ بقليل نسميها "حوش البيت"، غرفة ينام فيها أبي وأمي، وغرفة لي ولإخوتي الثلاثة، أنا الثاني في الترتيب من بين إخوتي، دائمًا نقول: "الحمد لله ليس لدينا أختٌ"، لأننا كنا سنجد حرجًا كبيرًا في نومها بيننا نحن الشباب الأربعة. أخي الكبير عصام يكبرني بعام، ترك دراسته ليعاون أبي في أرضنا الزراعية.

في هذه الليلة الحميمة من ليالي شباط الباردة، نلتفّ جميعًا حول الصوبية، تنهدت والدتي الأمية، التي لا تجيد الكتابة والقراءة، كسائر بنات جيلها وجيلنا، إنما حظوظ جيلنا أفضل بقليل القليل، فبات متاحًا لفرد من أفراد عوائل مناطقنا النائية المهمشة في الساحل السوري بالحصول على رفاهية إكمال الدراسة على حساب مستقبل بقية الإخوة، وحظيتُ أنا بهذه الفرصة، عندما هددني والدي بأنه سيمنعني الدراسة إن لمس مني تهاونًا،

وكانت ومازالت أمي تدعمني بعدما وجدتني ألتهم وظائفي المدرسية دون أوامر كما إخوتي الذين كانوا يظهرون امتعاضهم وتأففهم كلما حملوا كتابًا، فاختارني والدي وبدعم من أمي لإكمال دراستي، وأن يلتحق باقي إخوتي به إلى الزراعة. كانوا سعداء جداً بذلك، باستثناء أخي الكبير الذي كان يتمنى لو أكمل دراسته إلا أن الظروف المادية لم تساعد والدي، وكلما وجدني والدي أعود من مدرستي قال لي: "بدي تصير دكتور، ها؟" وأنا أبتسم له بالرضا والقبول، لا يُهِمّ ماذا سأكون، ما يُهِمّني أن أكون، وسط هذا المحيط المنفي من العالم واهتمامه، نحن لَسْنا شيئًا في أعين أحد، الكل يتجاهلنا لجهلنا ووضعنا المادي، وكلما عدت من مدرستي وجدتُ أمي تجالس نساء الضيعة وتقول على مسمع الجميع: "أجى ابني الدكتور"، إذًا أصبحت دكتورًا؛ لكن لماذا دكتور على الرغم أنه أصبح حلمًا لي؟!

تقولي أمي،

ولدتك في شهر كانون الأول، عند الساعة العاشرة ليلًا، شعرت بمغصٍ شديد في بطني، أخبرت والدك بأني على وشك الولادة، سبَّني: "هلق وقتها؟ وين بدي أروح بحالي بها الليل؟"، نادى جارتنا لتبقى عندي، وخرج، وبعد فترة قصيرة "طقّ ماء الرأس" وبدأت أصرخ، وجارتنا تبكي بجانبي لا تدري ما تفعل، وأنا أصرخ عليها: "راح ينزل الولد، وين صار الزلمة؟" أسأل عن والدكَ الذي خرج ولم يعد، نَزَلْتَ بنيَّ عاريًا ولكن دون إشراف "القابلة" أو داية، وتأخر والدكَ الذي كنا ننتظره ونجهل مصيره.

كنتَ تبكي وتبكي ولم أكن أستطيع أن أتحرك، حاولت جارتنا أن تضع عليكَ شيئًا يوقيكَ من البرد وتدفيكَ من الدماء التي كنتَ عليها، ولكن بحذر لأن حبل المشيمة مازال ولم يُقَصّ ولا أحد يستطيع قَصّه إلا الداية أو القابلة، لأنه لا توجد دكتورة.

كنتُ أتألم عليكَ وعلى بكائكَ، وبعد ساعتين دخل والدكَ ومعه امرأة عجوزة "داية" من قرية بعيدة، قَصَّت حبل المشيمة، وطالبت والدكَ بأن يأخذكَ في اليوم الثاني إلى الدكتور، لأنكَ بقيتَ أكثر من ساعتين على الأرض بعد الولادة.

كان والدي مستلقيًا على ظهره بجانب الصوبية، وإذ به يعدل جلوسه، وسحب المخدة التي كانت تحت رأسه ووضعها في حضنه، وأحنى ظهره قليلًا ومد يده نحو الصوبية للحصول على بعض الدفء وأكمل الحديث عن والدتي.

عندما خرجتُ من المنزل لم أعرف إلى أين أذهب، فالداية الوحيدة في القرية قد توفيت منذ فترة، طرقتُ باب الجيران وطلبتُ من جارتنا أن تذهب إلى والدتك، وبدأتُ أطرق أبواب القرية لمساعدتي دون جدوى، ركبتُ حماري وتوجهتُ إلى المستوصف الطبي الواقع على بُعد عشرة كيلو مترات من قريتنا حسب نصيحة أحد الجيران، في أثناء وصولي إلى المستوصف كان مغلقًا، طرقت الباب، خرج ممرض ملعون، استقبلني بصوتٍ عالٍ ونعَتني بالمزعج، وقال لي: "لا يوجد طبيب أو طبيبة هنا في المستوصف"، وهو ممرض مناوب ولا شأن له بالولادات، عدتُ أدراجي مكسور القلب والخاطر منه، عقلي عند والدتكم، قلت في نفسي، في كل قرية قابلة قانونية، أو داية، فإذا الداية التي في قريتنا قد توفيت، فربما في القرى المجاورة أجد داية، وقصدت أقرب قرية حتى وجدت داية، كان الجو باردًا والسماء صافية، كنت أحمل في يدي عصًا لأحمي نفسي من الكلاب الشاردة وسط التلال والجبال والمزارع، وربطت الشماغ على رأسي ونصف وجهي من شدة البرد، كان الجليد صلبًا في الأرض لدرجة كنت أشعر بأني أرى في الجليد انعكاس نجوم السماء، عندما وصلنا بعد رحلة شاقة كانت أمك قد ولدتك، وبنفس الطريقة

رجعت الداية إلى قريتها، وفي صباح اليوم الثاني أخذتك إلى المستوصف ذاته، وقال الطبيب إنك مصاب بالتهاب حاد في الصدر بسبب البرد، وأنا أُصبت بالزكام، كنا سنخسرك لولا عطف الدكتور، واستمر في علاجك أسبوعين وبعد ثلاث سنوات اصطحبناك إلى مدينة اللاذقية لإجراء عملية إزالة "اللوز" التي كانت أرهقتك في السنوات الثلاثة الأولى.

اللاذقية! عندما سمعت بها قاطعتُ والدي، حقًّا أني زرت اللاذقية؟

- نعم، كانت سِنّك ثلاث سنوات، ومنذ ذاك التاريخ لم أزر المدينة سوى مرتين، تلك ليست بلادنا يا بنيّ! من أجل ذلك نطلب منك أن تصبح طبيبًا، فيه عزٌّ وجاه وخدمة لهذه المنطقة الفقيرة.

- وهل سأزور اللاذقية لدراسة الطب؟!

- نعم. وهل تعتقد أن أمك ستدرسك الطب؟!

ضحك أبي ومعه أمي، أما نحن الأبناء فاكتفينا بابتسامة مرسومة ونظرات مسروقة خجلًا وربما احترامًا لأمي.

بات الحماس يدفعني لأدرس واجتهد عندما سمعت أني سأزور مدينة "اللاذقية"، هذه المدينة التي أسمع عنها منذ نعومة أظافري، يقولون إنها مدينة جميلة، ليتني أزورها قريبًا.

جبلة، أول طريق الأحلام

أحلامي تصل إلى العاصمة، ولكن ظروفنا تقيدنا في قريتنا "الشراشير"، تبعد قريتي عن مدينة جبلة نحو ١٠ كيلو مترات، درستُ فيها إلى الصف التاسع الإعدادي بشكل سلس دون متاعب، فالفقر سمتنا وليس من متاعبنا، والحرث في الأرض قدرنا وليس من مصاعبنا، وَحْدها اللاذقية مدينة الأحلام هي مَن ستفكّ قيودي وتحررني.

ازدادت أشواقي إلى مدينة اللاذقية عندما نجحتُ وانتقلتُ إلى الثانوية، وهنا كان مفترق الطرق، ففي عام ١٩٨٦ وجب عليَّ وعلى أمثالي مِن أبناء المزارعين والحالمين والطامحين التوجه يوميًّا مشيًا على الأقدام من قرية "الشراشير" مسافة عشرة كيلو مترات إلى مدينة جبلة للالتحاق بالثانوية، في هذا الزمان المهمش، لا مدارس للثانوية إلا في مدينة جبلة التي لم أدخلها قط، بل إني لم أخرج يومًا من قريتي "الشراشير"، هذه الحدود لم أرسمها لنفسي، بل قيدني وقيَّد الفقراء مِن أمثالي حدود القرية، ولم أكن قبل ذلك أعلم ما الذي يجري هناك في البعيد، حيث لا حدود، ولكني أرسم لنفسي حدودًا حتى العاصمة دمشق، أريد أن أدرس الطب إمّا في جامعة تشرين في اللاذقية، أو في جامعة دمشق في العاصمة، وأتخرج وأعود إلى الشراشير أو جبلة لأساعد من لا يمتلك قوت يومه، نحن نعيش على هامش الحياة، في عالمٍ ناءٍ لا أحد يسأل عنّا، فلنكن نحن عونًا لأنفسنا.

تَجمعنا نحن الأصدقاء الخمسة على مدخل القرية السهلية للتوجه إلى مدينة جبلة، سيأخذنا العم "حسان" في المرة الأولى على جرَّاره الزراعي ليدلنا على الطريق، وبعدها سنذهب يوميًّا وحدنا نحن الطلاب الخمسة معًا، أصدقاء الدراسة والطفولة والفقر والزراعة، ركبنا "الجرار" وكأننا ركبنا طائرة أقلعت بنا إلى كوكبٍ آخر، صاح صديقي جميل: "عيني الله بدّنا نشوف البحر".

البحر ذاك السماء المنبسط على الأرض، سمعنا عنه ولم نره يومًا إلا في بعض صور الكتب المدرسية، حتى إننا لا نمتلك تلفازًا، بل في كل القرية تلفازٌ واحد في منزل المختار العم "جعفر"، إنه شيءٌ سحري.

تدرج العَمّ "حسان" بنا بجرَّاره في سهول القرى نحو مدينة جبلة، وصلنا إلى مفرق طريقٍ، صاح العَمّ حسان بصوتٍ عالٍ ليصل صوته إلى مسامعنا ويعلو على صوت الجرَّار: "يا شباب، هذا طريق بياخد على القرداحة"، وتبسم للطريق وأكمل سيره متخطيًا ذاك الطريق، لم أفهم قصده بأن ذاك الطريق يؤدي إلى القرداحة، صِحتُ بصوتٍ عالٍ: "شو يعني؟!".

وكأن سؤالي كان كفرًا صريحًا، أوقف العم حسان آلته المهترئة بشكل مفاجئ، حتى تساقطنا واحدًا تلو الآخر فوق بعضنا نحن الأصدقاء الخمسة، ونظر إلينا، وتوجَّه إليَّ وعيناه تبصرانني بنيران التعجب: "قرد آبتعريف شو يعني قرداحة؟!".

أشرت إليه برأسي بالنفي!

اشتاط غضبًا وصاح بي: "القرداحة قرية القائد حافظ الأسد"، سحبت نفسًا عميقًا إلى صدري وصِحت بتعجب: "ماذا ؟!".

استدار العم حسان إلى مقود الجرار وهمهم بكلمة سمعتها "حمار لايا" وأكمل المسير، نظرت إلى الأصدقاء ورأيت التعجب على وجوههم فهم أيضًا لا يعرفون هذه المعلومة، نزلَت بعض الطمأنينة على صدري بأني لست "الحمار" الوحيد في الجرار. أنظر خلفي، المنظر خلاب، تلك أشجار الزيتون تغطي أطراف الطريق، المنظر باهر وكأني لأول مرة أنتبه إلى سحر منطقتنا، وبقيت عيناي على ذاك الطريق المؤدي إلى قرية القرداحة، وكأني اكتشفت كنزًا ثمينًا لم يدركه غيري من الأصدقاء، هم تعجبوا بأن الرئيس حافظ الأسد قائد الأمة العربية جارنا، وأنه سكن يومًا في هذه البقعة البعيدة، لكني اكتشفت أمرًا آخر، أن الطريق الذي أسير عليه الآن هو طريق تحقيق الأحلام، فإن كان الرئيس يومًا عاش في هذه القرية فإنه حين توجَّه إلى القصر الجمهوري، فلا مسلك آخر غير هذا الطريق، كيف لا يكون إحساسي صادقًا، إن كان القائد بنفسه سار على هذا الطريق، بطل حرب تشرين، وحامي الحمى، والشوكة العصية في حلق إسرائيل وأمريكا؟!

صِحتُ في قرارة نفسي: "هنيئًا لي يا أمي، فإني أسير على الطريق الذي سار عليه الرئيس حافظ الأسد".

دخلنا مدينة جبلة، وبدأنا نلمح البحر، صاح جميل: "يا الله السماء على الأرض!" ضحك العم حسان حتى خفنا أنه فقد السيطرة على الجرار، ناديته: "عمي حسان دير بالك ما تهورنا!"، رد مستهزئًا "عيني إذا تهورنا نحن قراب على المشفى الوطني"، ضحك وأكمل مسيره وقال: "هي المنطقة اسمها الجبيبات، بس نحن راح نروح على حي العمارة، هنيك مدرستكم". وصلنا إلى مدرسة "سعيد يونس" بينما أقرأ اسم المدرسة أسأل في قرارة نفسي: "هل درس فيها القائد حافظ الأسد؟".

وجدت مدينة جبلة كبيرة، فكيف تكون اللاذقية أو دمشق؟! أتجول في أحيائها لأتعرف إليها وتتعرف إليّ، فستصبح هذه المدينة مصيري اليومي من الآن فصاعدًا، لابد لهذه المدينة أن تحبني وتعانق أحلامي، فيومًا ما سأكون أحد أطبائها، مضى يومنا الأول كعُرس وطني، يومٌ من أيام العمر، خرجت من المدرسة ولم أنتبه إلى ما كان يمليه علينا الأستاذ، بل كنتُ أنظر إلى صورة الرئيس المعلقة فوق اللوح بوجهه المبتسم ونظرته الثاقبة وفي قلبي أقول له: "قهلا قهلا بالجار" لم أصدق متى انتهى الدوام، فأول خروجنا ركضنا نحن الخمسة إلى البحر، نقف على الشاطئ ونحدّق مبتسمين للبحر وأمواجه، أذهلنا المنظر الساحر، بقينا متسمرين في مكاننا مدة ساعة دون أن نحرك ساكنًا ونحن فقط ننظر إلى البحر، وكأننا ننظر إلى عيون امرأة فاتنة أخرستنا لبهائها وسحرها، لا يرغب أحد منا في العودة إلى المنزل، كمُحبٍّ لا يريد أن يفارق حبيبته ويتمنى أن يطول اللقاء، ولكن عُدنا أدراجنا، أمامنا مسيرٌ طويل إلى القرية مشيًا على الأقدام.

الطريق وحده رغم بعده ومشاقته، بلسمٌ على قلبي لجمال الطريق والغابات الكثيفة، وصلنا إلى ذاك الطريق وهناك رغبة تدفعني بأن أتوجه إلى القرداحة، لكني أكملت طريقي إلى القرية، وأعتقد أن المفاجآت في يومي الأول انتهت، ولكِنْ على مدخل القرية هناك مصيرٌ آخر ينتظرني.

لفت انتباهي عدة فتيات يلبسن لباس الفتوة المدرسي، هو ذاك اللباس الذي ألبسه، الأخضر الغامق، هو لباسٌ عسكري يرتديه طلبة الإعدادية والثانوية، فمن كانت على كتفها شريطٌ أصفر يعني أنها في الصف السابع، وشريطان يعني الثامن، وثلاثة أشرطة صُفر يعني التاسع (كفاءة)، أما من كانت على كتفها شريطٌ أحمر يعني أنها في الصف العاشر، وشريطان يعني الحادي عشر، أمَّا ثلاثة أشرطة حُمر يعني في الصف الثاني عشر (بكالوريا)،

رأيتُ على أكتافهن شريطاً أحمر، أي إنهن مثلي في الصف العاشر، تجمدتُ في أرضي، لم يَلفت نظري أي من الطالبات سوى طالبة معينة.. اقتربَتْ هي وصديقاتها وأتت عيناي في عينيها، تبسمتُ لها وتبسَّمَتْ لي كما تبسم لي البحر حين زرته اليوم لأول مرة، أيعقل أن هذه القديسة من قريتي ولم أنتبه لها يومًا، كيف ذلك ورأس الفلاح دومًا في أرضه حيث يضرب بمجرفته تحت أقدامه ولا يرفعها إلا عند المغيب؟ ولكن تشرق كالشمس، لكن هذه لا تغيب كالشمس، مشعة بجمالها الأخاذ، ويلٌ لقلبي! ماذا يحصد لنفسه؟

نسيتُ نفسي وتهتُ عن دربي، أقف أمامها مذهولًا، وغفلت عن عصبتي، حتى أيقظني من غفوتي أصواتهم وهم يضحكون، سمعتُ أحدهم "لايا شو صارلك"، أنا أحفظ أصوات أصدقائي وأميزها من بين ألوف الأصوات، ولكني في هذه اللحظات لا أعرف صوت من يخاطبني، تحركت خطوة، وهرولت خطوات نحوها في مخيلتي، أمسك أحدهم يدي وبات يجرني لإكمال السير إلى المنزل، أسمع أصواتهم ولا أفهم ما يقولون، أنا في غفوة من أمري، إن صوت قلبي أشد وطأة، وكلما ابتعدت المسافة بيننا شعرت بألم في قلبي، وهذه هي المرة الأولى التي أيضًا أكتشف فيها أن الإنسان يمكنه السير وهو في غفوة من أمره. دخلنا القرية وكلٌّ منا توجَّه إلى منزله، ولكن ما انتبهتُ أن أصدقائي قد فارقوني، نظرتُ مِن حولي وما لمحت سِوى طيفهم.

دخلت المنزل، وإذ بأمي تُعد الطعام وصاحت: "أجى المسافر!" وبادرتني بالسؤال: "كيف كانت جبلة ومدرستك؟"، صفنت قليلًا وتبسمت ونطقت بالعشق "حلوة". وأمرتني: "يلا كُل وروح على الأرض، أبوك بيستناك".

أكلتُ ولم أشبع، توجهت إلى الأرض وأتساءل من تكون، وما اسمها، وفي أي مدرسة تدرس، ومتى تخرج من منزلها صباحًا، أسئلة عاشق يريد أن يخلق موعدًا على عجل!.

وصلت إلى أرضنا واستقبلني والدي بأسئلته وأنا أجاوب، لكنه طلب مني أن أعود باكرًا إلى المنزل لأدرس، بدأت بحرث الأرض وتقليب التراب، وكلما ضربتُ ضربة وقلبتُ رقعة، كانت النيران بداخلي تتقلب دُونَمات، اقترب مني أخي وأفزعني بسؤال: "ياخا جبلة حلوة؟" أخذت نفسًا عميقًا ومسحت جبيني وبادرته بسؤال: "في جن بيطلعوا بالنهار؟!"، صمت ثانية وهو يحدّق فيَّ مستغربًا ثم انفجر بعدها بالضحك، حتى انتبه والدي من بعيد وصاح به: "شو حالك؟" ليرد عليه: "آفي شي آفي شي"، أمرنا أبي بالمضي في العمل "اشتغلوا مو وقت اللعب".

أكملنا عملنا وإذ بأخي ينتبه أن ملامحي كانت جدية للغاية وما كنت أمزح بسؤالي، اقترب مرة أخرى "شو صاير معك!؟" لأرد ببرود آفي شي".

استأذنت أبي في الرحيل بعد أن انتهيت، وتوجهت إلى المنزل مسرعًا لعلي أتحايل على الليل لينتهي سريعًا، لا أدري كيف مضى الليل وأنا أتقلب في فراشي مع إخوتي، وفي تمام الساعة السادسة قمتُ على عَجل ألبس لباسي المدرسي العسكري، فوجئت أمي بهذه الحيوية، ودَّعتُها وانطلقتُ مسرعًا إلى مدخل القرية وصوت أمي يرن في أذني "جبلة بدا تسرق منك عقلك" وضحكتها تلحن جملتها. أصل إلى مدخل القرية وأجلس وعيناي على الطريق، ألعب في التراب بقدماي، وتارة أقذف الحجارة، أُسَلّي الروح، الثواني تمر ثقيلة على قلبي، ولكن بانت الشمس عند الشروق، وقفت لا إراديًا مذهولًا، كعسكري في الجيش يقف استعدادًا عند مرور قائده. تبسمت مرة ثانية عندما نظرت إلي، وكأن نظرة الأمس قد شرحت لها ما حل بي، وكأن

أنين الروح في فراشي يوم أمس قد قض مضجعها. قصيرة القامة، شقراء الشعر، زرقاء العينين، رشيقة الجسد كغصن بان، تصفف شعرها على شكل جديلة من الخلف، يضيء النهار في وجهها، تضع سلسالًا يبدو من الفضة في رقبتها المرسومة، صدرها يشع بياضًا.

القلب يلهث نحوها، والخجل يثبت أقدامي في مكانها، ولا يحِنّ على القروي المسكين سوى القروية، إن كانت الظروف قد منعتنا متاع الدنيا، فإن القلوب تثأر وتتمرد لنبضاتها، تتقدم نحوي وأنا أبلع ريقي، وأتنفس كالغزال الشارد من أنياب الأسد، ألتقط أنفاسي على عجل، وأرتجف، أتُراها شعَرت بي ولامس سويداء قلبها ما أصابني؟ وقفت أمامي كالبدر الدُّري في ظلمات الليل، أستنشق رائحة تراب الأرض من جديلتها، وصفاء المياه من عينيها، تبسَّمَتْ لي، وجبرت بخاطر قلبي وتفوهت بما فيه حتفي "متنتظرني؟!" أبلع ريقي وأومئ لها رأسي بالتأكيد، ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها الذي يناديني لسرقة قبلة "أنا اسمي زينب، هنت شو اسمك؟".

الخطاب الذي غير مصير الوطن!

دمشق ٢٠١١/٣/٣٠

علي، علي، صوتٌ أجش ينادي من الخلف، التفتُّ خلفي، وإذ به العميد ذو الهمة شاليش، وقفتُ بالاستعداد "حاضر سيدي"، رمقني بنظرة حادة وتساءل: "الموكب جاهز؟ الرئيس راح ينزل بعد خمس دقائق!".

- كل شيء جاهز سيدي بانتظار أوامركم بالتحرك.

هز رأسه وعاد من حيث صاح واختفى في بهو القصر الطويل، أدرتُ ظهري مرة أخرى للباب الكبير وللحرس الذين يقفون عليه، ونظرتُ نحو سماء دمشق حيث الغيوم تدور في سماء صافية، وحيث العالم بات بالألوان غير ذاك الزمان البعيد المعتم.

الأجواء محتقنة للغاية، العالم كله يترقب خطاب الرئيس، تُراه ماذا سيقول. المظاهرات تعُمّ محافظة درعا التي أشعلت الثورة، ويقولون إنها امتدادٌ للربيع العربي كتونس ومصر، أنا من بين القلة الذين يعرفون فحوى الخطاب، ولستُ سعيدًا بما سيقول.

أقف على الدرج المؤدي إلى بهو القصر الجمهوري، يدي في جيبي، مِن حولي الحرس العسكري والمدني، أتدرج قليلًا من الدرج إلى الأسفل، موكب

السيارات واقفٌ أمامي بألوانها السوداء الغامقة، انعكست صورتي على زجاج السيارة ورأيت ملامحي الغاضبة، عابس الوجه بنظارتي السوداء، طويل القامة ببدلتي السوداء، وقميصي الأبيض وربطة العنق السوداء.

دمشق كلها أمام عينيَّ من فوق جبل القاسيون حيث القصر الجمهوري، نعيش أوضاع أمنية غير مسبوقة، وأي خطأ يقابله القتل على الفور، أُعيد الخطة في ذهني، طريقة مرورنا نحو مجلس الشعب، والدروب والمسالك التي سنسلكها، لا مكان للخطأ في عملي بشكل عام، فكيف اليوم وهو يومٌ مفصلي؟! عيون كل العالم تترقبنا وتترقب خطاب الرئيس.

الخطاب الذي تغيَّر وغير مزاجي، كان الرئيس سيلقي خطابًا إصلاحيًا يعيد الهدوء إلى البلاد وينهي المؤامرة على الوطن، ولكن كل شيء تغير باجتماع مغلق دعا إليه محمد مخلوف خال الرئيس، وأنيسة مخلوف والدة الرئيس، وعدد من رجالات الصف الأول في الدولة، كان الرئيس ماضيًا في عزل ابن خالته العميد عاطف نجيب رئيس الأمن السياسي في درعا بسبب اصطدامه مع وجهاء المحافظة واعتقال الأطفال، وكان من المفترض أن يُحاسَب بعض القادة العسكريين الذين تسببوا في قتل ستين سوريًّا خلال شهر آذار، ولكن الحلقة الضيقة من الرئيس رأى أن ذلك سيضعف من هيبة الدولة، وغُيِرّ الخطاب بالمضي في الوقوف ضد المؤامرة على سوريا وضد محور المقاومة، كنتُ أقف عند الباب لمنع دخول أي أحد إلى غرفة الاجتماع. أزعجني تغيير الخطاب خوفًا أن يستغل الأعداء هذه الخلافات الداخلية بالوصول إلى ضعاف النفوس وزعزعة أمن سوريا، نحن مع الرئيس في أي قرار يتخذه، وسنسير معه في أي درب يسلكه، كلنا سنفدي الوطن بدمائنا، ولكن لم أكن أريد أن يراق دمٌ في منطقة عشائرية أنا أعلم بأعرافها، إنما الوطن فوق الجميع، وسوريا ليست مصر أو تونس، سوريا أقوى.

أتذكَّر حين خرجت المظاهرات في تونس وهرب رئيسها بن علي، ومن ثم في مصر، سمعت الرئيس بشار الأسد يقول: "تخلص الوطن العربي من بعض العملاء"، وفي لقاء مع بعض الشخصيات السياسية العربية علَّق الرئيس وقتها أن سقوط بن علي ومبارك سيعزز موقف سوريا الثابت في مواجهة أميركا وإسرائيل.

قاطع خلوتي أصوات أجهزة اللاسلكي للحرس المنتشر، الجميع جاهز بانتظار خروج الرئيس إلى مجلس الشعب ليلقي كلمته. أعود إلى موضعي أقف بجانب السيارة التي سيركبها الرئيس. نزل الرئيس ومعه العميد ذو الهمة شاليش رئيس أمنه الشخصي، أقف ثابتًا مستقيمًا عند السيارة، فتحتُ الباب الخلفي، رمقني الرئيس بابتسامة وركب السيارة، أغلقتُ الباب وركبتُ في المقعد الأمامي، أنتظر أن يتوجه العميد ذو الهمة إلى السيارة التي ستسبق سيارتنا، حين ركب أعطيتُ الأمر بالتحرك، وتحرك الموكب لدهس الوطن.

يبدو على الرئيس علامة الارتياح، لا يبدو عليه القلق أو الاضطراب في ظل هذه الظروف الصعبة التي تمر بها سوريا، ومن عادته أنه لا يتحدث معنا أنا والسائق حتى لا يشتتنا، ينظر إلى دمشق من خلف زجاج سيارته المفيمة.

أنا في قمة تركيزي، تحرك موكبان من داخل القصر، موكب لنا مع الرئيس، وموكب للتمويه ولتأمين الرئيس آمِنًا حتى الوصول إلى مجلس الشعب. نزلت السيارات من سفح جبل قاسيون حيث القصر الرئاسي "قصر الشعب" وتوجهنا يمينًا، عند وصولنا إلى طريق الربوة يسارًا ومستشفى المواساة يمينًا، تفرق الموكبان، أما الموكب المزيف قد انعطف يمينًا وتوجَّه نحو ساحة الأمويين سائرًا على يسار حديقة تشرين، وسيكمل دربه نحو شارع "شكري القوتلي" متخطيًا ساحة الأمويين، ثم ينعطف يسارًا إلى شارع

"الترمذي"، ويتخطى مفرق الطريق نحو شارع المجلس النيابي حيث سيلتقي الموكبان عند مفرق شارع "ميسلون".

بينما سنسلك نحن مع الرئيس يسارًا خلف حديقة تشرين نحو حي "المهاجرين" باتجاه حي "المالكي" ومن ثم الروضة، حيث المنطقة الأمنية الممتلئة بالسفارات والبعثات الدبلوماسية، وهي منطقة مؤمنة أساسًا، ووقع الخيار على هذا الطريق بسبب ذلك، إلى جانب أن قصر إقامة الرئيس يقع في "المهاجرين"، تخطينا "المهاجرين" نحو دوار مستشفى الشامي، وانتقلنا إلى شارع "إبراهيم هنانو"، ومن بعدها ساحة "المالكي"، وانعطفنا يمينًا إلى ساحة الروضة، متوجهين إلى شارع "الجلاء"، ودخلنا شارع "ميسلون" يسارًا، وعند مفرق الطريق التقينا مع الموكب الآخر، وسلكنا شارع المجلس النيابي وعلى بعد خمسمئة مترًا عند مفرق الطريق يقع مجلس الشعب في حي "الصالحية" على يسار شارع "الحمراء" ويمين شارع "العابد". رغم إدراكي أن الطريق مؤمن بشكل كبير جدًّا وهي منطقة أمنية، وأن الحارات السكنية تحجب الطريق وعليها القناصة، فإن عينيَّ كانتا تتحركان بكل الاتجاهات، لا يمكن أن أتخيل أن مكروهًا سيصيب الرئيس.

عند مدخل مجلس الشعب تجمهر العشرات تأييدًا للرئيس ويهتفون له، وعلى الرغم من أن الصف الأول والثاني هم من الجيش والأمن باللباس المدني، فإنني أقف خلف الرئيس كالظل. أتذكر حينما كنتُ في الجيش بالحرس الجمهوري قبل أن ألتحق بالحرس الخاص بالرئيس، كنا نُكلَّف بمهمات للعب دور المدنيين في مثل هذه المناسبات، وفي صلاة العيد أو الجمعة، كنا ندخل الجامع الذي سيصلي فيه الرئيس ونملؤه بصفتنا مواطنين عاديين، ويتجمهر جزءٌ آخر في الخارج للهتاف، كان قائد الفوج يقول لنا: "لابد من أن نقوم بذلك لأن إسرائيل وأميركا تتربصان بالرئيس".

وأن الأمانة تقتضي بأن نحافظ عليها، والرئيس في أمانتي ومن معي من الزملاء في الحرس، في الدورات التثقيفية عندما التحقت بالحرس، علينا أن نرمي أنفسنا إلى الموت كي ننقذ الرئيس، على الرغم أن رئيس الحرس الخاص يكون العميد ذو الهمة شاليش، ولكنه مع تقدمه في العمر الذي أثر على صحته وبنيته الجسدية، لم يعد يستطيع أن يؤدي الدور الذي نقوم به، من الركوب مع الرئيس في السيارة ذاتها، والوقوف خلفه بشكل مباشر كالظل، وردع المتدافعين من المؤيدين للرئيس في أثناء التجمهر للسلام عليه، بل بات يركب في سيارة أخرى وعند النزول يقف خلفي وحوله أيضًا دائرة من الحرس، يعطيني التعليمات بالتحرك والتمركز، لديه خبرة كبيرة في الحرس، فهو كان مع الخالد حافظ الأسد وهو من الحرس القديم، وفي ظل هذه الظروف الراهنة حيث الأعداء يحاولون النيل منا ومن الوطن والقائد، نكون في أشد حالات التأهب والصفاء الذهني والتركيز، عيناي من خلف النظارة السوداء تتحركان وتفحصان الوجوه، لربما أمتدت يدٌ مدعيةً السلام، تحاول أن تطعن الرئيس أو تؤذيه، مع علمي أن جميع المتجمهرين من ضباط وصف ضباط وعناصر، عندما كنتُ في فوج الحرس الجمهوري بمنطقة مشروع "دمر" حيث قيادة الحرس، كنتُ وقتها نقيبًا، أتتنا أوامر في الساعة التاسعة ليلًا إلى اجتماع، كان الجو باردًا جدًّا، فمنطقة "دمر" تقع أسفل القصر في جبل قاسيون، حيث يتوزع حول الجبل عديد من معسكرات الحراسة، اجتمعنا وأخبرنا قائد الفوج بأن غدًا سنرافق الرئيس لتأمين الحماية في أثناء تأديته لصلاة العيد في جامع بني أمية الكبير (الجامع الأموي)، كانت مهمتنا أن ندخل كمدنيين إلى الجامع.

في العادة يُطلب من قادة التشكيلات العسكرية أن يحددوا أسماء عشرين ضابطًا وعشرة ضباط الصف، وكل تشكيلة عسكرية في الجيش

والحرس ترسل هذا العدد، أخبرت رئيسي في الفوج أني لا أملك ملابس مدنية في المعسكر، وكان هناك عديدٌ مثلي، هُيِّئ باص عسكري لمرافقتنا إلى منازلنا حتى نلبس لباسنا المدني بدلًا من العسكري، ينتظرنا الباص مدة نصف ساعة فقط ويمنع التأخر تحت طائلة المسائلة العسكرية، كنت حيث أقيم وحدي في دمشق، أخذت بدلتي السوداء حيث اللباس المشترك لجميع الحرس، وعدنا إلى الفوج، وعند الساعة الرابعة فجرًا يصطحبنا الباص إلى قلب مدينة دمشق وتحديدًا تحت "جسر الثورة" حيث المكان يبعد نَحو واحد كيلو مترٍ عن سوق الحميدية المشهور وجامع الأموي، كان صباح دمشق باردًا للغاية ونحن في لباسنا المدني في ذاك الشتاء القارص، نزلنا تحت الجسر وانعطفنا إلى اليسار باتجاه الجامع، عند مدخل سوق الحميدية، حيث طُوِقّت المنطقة بالكامل، وأُغْلِقَت الطرق، كان المخابرات ينتشرون كالنمل في كل مكان، ويلزمون تجار سوق الحميدية بفتح محالهم التجارية، ويشترط عليهم بعدم البيع مع وقوف عنصر مخابرات عند باب كل متجر تجاري داخل السوق، ويمنع عناصر المخابرات وضباطهم الدخول إلى حرم الجامع تحت أي ظرف، لأن حرم الجامع من مهام الحرس الجمهوري وهو يؤمّنه من الداخل، ولكل جهاز خطته الأمنية حيث يكلف، هذه البروتوكولات لم أكن أعرفها، ولكن عندما التحقت بالحرس الخاص داخل القصر فيما بعد عرفت هذه الإجراءات الأمنية، وكنت أنا في وقت لاحق يصدر هذه التعليمات.

كان سوق الحميدية يبهرني لحضارته وقدمه ومحلاته، وبسقفه المثقوب من رصاص الفرنسيين والثوار في أثناء الاحتلال، كان السوق طويلًا إلى أن ينعرج قليلًا إلى اليمين في آخر رواقه حتى يطل الجامع الأموي علينا بحجارته وتاريخه العريق، وبسرب الحمام الذي كان يحوم في ساحاته وعلى أسواره العالية الشامخة، كنا نجلس في الصف الأول والثاني من جميع

تشكيلات الحرس الجمهوري، ويتوزع قسم في أنحاء الجامع الكبير بين العامة، كنتُ مطلعًا على أداء الصلاة وطريقتها رغم اختلاف طائفتي، ولكن كان يصادف أن يرافقنا زملاء من الحرس من المسيحيين والطائفة المرشدية ومن طائفتي العلوية لا يجيدون الصلاة، فكان بعضهم يسأل الزملاء من السُنّة عن كيفية أداء الصلاة، وأحيانًا كانوا يسألونني، كنا نضحك في سِرّنا، فغالبًا لا زميل على الوضوء على رغم جهل كثيرين عن أداء الصلاة، ولكن عملنا في الحرس الجمهوري يحتم علينا التواجد حيث يطلب منا، ولسنا مخولين برفض أي أمر عسكري، كان زملائي يحركون شفاههم دون أن يدركوا القراءة الصحيحة، لكني كنت أصلي على الوضوء وبالأداء الصحيح، وادعو الله بأن يحمي الوطن، إن الله ينظر إلى القلوب النقية بغض النظر عن اللون والدين والمذهب والوضوء، وكنت أدعو لسوريا من قلبٍ نقي صافٍ كصفاء قلب أمي وتعب أبي.

عندما يُنهي الرئيس صلاته نتدافع نحن الحرس في حيلولة للوصول إلى يد الرئيس ولمسه والسلام عليه. لديّ كامل العلم بهذه التفاصيل ورغم ذلك نؤمن أن هناك ضعاف النفوس يستطيع العدو الوصول إليهم وإغراءهم وكسب ولائهم، من أجل ذلك نحن في الحرس الخاص لا نثق بأحد، كائنًا من كان.

توجَّه الرئيس إلى باب مجلس الشعب وفي استقباله السيد محمود الأبرش رئيس المجلس، ومن حوله عدد من الحرس، تجمعنا بعدد كبير من الحرس، صعد الرئيس أعلى الدرج عند الباب الكبير والتفت إلى الخلف يُلوح بيده شامخًا للجمهور الذي يهتف بصوته العالي الصاخب، للرئيس. شكلنا حلقة دائرية نعطي صدورنا لأي رصاصة غادرة، ليبقى الوطن عامرًا، والتفَّ الرئيس إلى السيد الأبرش وتوجَّه إلى داخل المجلس، كان الممر ضيقًا، نمشي

مع الرئيس على السجادة الحمراء، هدأ قلبي قليلًا بعدما أصبحنا داخل المبنى، توزعنا على شكل مستطيل أمام وخلف الرئيس، صادفنا صالون كبير وعلى يمينه ويساره كنبايات وتحف وشرقيات متطابقة مع التراث الدمشقي، وحتى كل ما هو معتمد من ديكور في مجلس الشعب مصمم على التراث الدمشقي العريق، وكذلك فرشه وطريقة توزيعه، وبعد الصالون دخلنا في ممر آخر ضيق.

العميد ذو الهمة شاليش يسير خلفنا، وكنت أشك في أنه قادر على الإلحاق بنا لأن الرئيس يمشي بشكل سريع، أعتقد أنه يلهث في هذه الأثناء. وصلنا إلى المكاتب، استأذن السيد الأبرش من الرئيس ليدخل هو أولاً إلى قاعة المجلس حيث الأعضاء هناك ليقوم بالأمور البروتوكولية قبل أن يطلب من فخامة الرئيس الدخول، في هذه أثناء وزعنا العميد ذو الهمة في الأروقة والمداخل، نزلت الدرج وتوجهت يمينًا ومن ثم انعطفت يسارًا، كان رواق صغير يقع على الجانب الأيمن لمقعد رئيس المجلس ونوابه وقفت فيه، وأمامي مباشرة قاعة المجلس، وموقعي استراتيجي حيث يكون الرئيس أمام عينيَّ إذا دخل المجلس وجلس على مقعده، ويكون ظهره لي في أثناء إلقاء كلمته، وعلى جانبي كاميرا التليفزيون في بث مباشر ومن حوله زملاؤه يحيطون بالكادر الفني. بدأ السيد الأبرش كلمته البروتوكولية، وتفقَّد الحضور والغياب، حيث هناك نائب غائب ونائب مجاز. أسأل في قرارة نفسي كيف تجرأوا على الغياب في مثل هذا اليوم التاريخي، لو كان أمرهم بيديَّ لعاقبتهم. تنظر عيناي بالشك إلى باقي أعضاء مجلس الشعب، فهذه مهمتي قائمة على الشك تجاه الجميع لتأمين الرئيس، لا أفهم ما يقول السيد الأبرش ولا يهمني ما يقوله، تركيزي على الأشخاص وأذناي مع السماعة الصغيرة التي في أذني لتلقي التعليمات والتحرك عند اللزوم، ولكن وصل السيد الأبرش في كلمته

بأن "سوريا آخر قلاع العرب وأن الرئيس الأسد هو القائد العربي ليس لسوريا وحسب بل للوطن العربي من محيطه إلى خليجه، وسوريا ستبقى بفضل سيادته قلب العروبة النابض أبدًا بالأمل والحياة" ويزيد في حديثه وسط الصمت المريب الذي توقعت أن ينفجر بالهتاف والتصفيق لهذه العبارة. لكن ما بال الحمقى بقوا صامتين لا يتحركون؟ ألا يفقهون اللغة العربية ومعانيها؟ أصابني غيظٌ منهم واحمر وجهي ولكني لا أستطيع أن أكشف موقعي بهذه البساطة. صمت السيد الأبرش وساد صمتٌ في القاعة مع بعض سعلات العجائز، وأنفاسي المضطربة منهم. للحظة نادى السيد الأبرش " أهلًا بكم سيادة الرئيس" انفجرت القاعة بالتصفيق عند دخول الرئيس وهو رافعٌ يده اليمنى بالسلام وحده دون مرافقة. بدأ أعضاء المجلس بالهتاف "بالروح بالدم نفديك يا بشار" ينزل الرئيس إلى أسفل القاعة ويتلفت يمينًا ويسارًا لإلقاء التحية. "الله وسوريا وبشار وبس" اعتلت الأصوات والتصفيق مع توجه الرئيس إلى المنصة لإلقاء كلمته.

صمت الجميع لكن الرئيس رد "يعني أصعب من أن أجيب على هذا الموقف". صفق الجميع وضحك الرئيس، وهدأت أنفاسي عندما رأيت علامة الارتياح على وجه الرئيس وضحكته. لمست من جوابه رسالة إلى الأعداء بأن "مؤامرتكم فشلت قبل أن تبدأ".

أتحرك كلما قام أحد أعضاء المجلس لإلقاء كلمة أو بيت من الشعر والإطراء، أي حركة هدف لنا نحن الحرس. ألقى شيخٌ قصيدة من عدة أبيات، عندما انتهى رد عليه الرئيس "من ينتمِ إلى الشعب السوري دائمًا فرأسه مرفوع إن شاء الله". تنفست حبًّا له ولجوابه، فالشعب لا يجب أن يُهان.

متحمسٌ ومنتعش لخطاب الرئيس رغم حالة الحذر التي أنا فيها والهاجس الأمني الذي يخيم علينا، وما أوقظني من سهوتي إلا قول الرئيس

"وإن كنتم قد هتفتم بالروح بالدم نفديك يا بشار، فالسليم أن الرئيس بشار هو الذي يفتدي وطنه وشعبه". تصفيق حار في القاعة وهتاف "الله وسوريا وبشار وبس". أنا سأفديك بروحي أيها الرئيس، والكل يفتدي لأجل هذا الوطن.

أنهى الرئيس كلمته وتحركت من مكاني بعدما تحرك الرئيس، وأبقيت على المسافة الأمنية المطلوبة بيني وبينه، خرجنا من قاعة المجلس وعدنا إلى القصر بنفس الطريقة التي أتينا بها بأكثر من موكب للتمويه، لم يتكلم الرئيس طوال الطريق كما كان في أثناء توجهنا إلى المجلس، إنما كان أكثر ارتياحًا، وصلنا إلى القصر ونزلنا دون أن يتكلم، توجهت إلى مكتبي في الطابق الأول بينما صعد الرئيس إلى الطابق الثاني، وفي جدوله اليوم اجتماعً أمنيً سيلتقي خلاله كبار الضباط وصناع القرار في الدولة داخل القصر، يراودني ذات السؤال من بعد الخطاب، عندما عرفت بتغير الخطاب قبل أن يعلم العالم أجمع، ما الذي سيكون فيما بعد!؟

قبل بدء الاجتماع بدأت الشخصيات النافذة في الدولة بالوصول واحدًا تلو الآخر، العقيد ماهر الأسد، اللواء آصف شوكت، اللواء بديع علي، واللواء علي مملوك، العماد علي حبيب، العماد داود راجحة، اللواء هشام بخيتار، العماد حسن تركماني، اللواء محمد الشعار، اللواء رستم غزالة، العميد حافظ مخلوف، محمد مخلوف، العميد طلال مخلوف، اللواء جميل الحسن، العميد عصام زهر الدين، اللواء جامع جامع، اللواء عبد الفتاح قدسية، اللواء رفيق شحادة، اللواء محمد ديب زيتون، العميد ذو الهمة شاليش.

لقد استدعى الرئيس جميع الضباط الأمنيين والعسكريين الذين يشهد لهم بالكفاءة، من نافذة مكتبي أرى وصولهم إلى القصر، أعود إلى طاولتي وأشرب من فنجان قهوتي، أشعلت سيجارتي، عدتُ برأسي إلى الخلف

مستنداً إلى الكرسي، أناظر السقف وأنا أشاهد الدخان يعلو ثم يختفي، وإذ بباب مكتبي يفتح فجأة، عدلت جلوسي مفاجأً، وإذ به العميد ذو الهمة شاليش ينظر إلّي، أطفئ سيجارتي على الفور، ووقفت له بالاستعداد "احترامي سيدي!".

- ما الذي يجلسك هنا أيها الضابط!؟
- عفواً سيدي!
- أليس من المفترض أن تكون في الطابق الثاني مع الرئيس لتأمين الاجتماع؟!
- على الفور سيدي، على الفور.

خرج العميد القبيح ذو الوجه العابس المتكبر، بعد أن أفزعني.. حقًّا ما الذي أفعله هنا في مكتبي؟!

لربما نسيت أن العميد نفسه سيكون في الاجتماع، وأنا من سيتولى تأمين الرواق والوقوف على الباب من الخارج لمنع تواجد أي شخص هناك باستثناء أشخاص معينين، لأن من سيقف على الباب سيسمع حتمًا كل ما يقال في الداخل، وما يقال داخل قاعة الاجتماع هو من أسرار الدولة العُليا، ولا يؤتمن على هذا المنصب إلا من يختارهم الرئيس أو رئيس حرسه فقط. أما أنا فقد اختارني الرئيس ولولاه لكان العميد ذو الهمة قد طردني منذ زمنٍ، فمنذ دخلت القصر لستُ مرحبًا به، كوني من خارج الدائرة المعهودة.

تفقدت سلاحي وأخذت عناصري وتوجهت إلى الطابق الثاني، كان الخدم يوزعون المياه والعصائر على الطاولات أمام كل ضابط، وكأنهم في انتظار أحدٍ حتى يبدأ الاجتماع، مع العلم أن الرئيس قد دخل، دخلت القاعة وطلبت من الخدم الاستعجال والخروج على الفور لإغلاق الباب، الضباط

يتحدثون فيما بينهم كل اثنين على حدة، والرئيس منشغل بالحديث مع شقيقه العقيد ماهر الأسد، حيث يتربع الرئيس على رأس الطاولة المستطيلة الطويلة، وعلى يساره العقيد ماهر، أما الكرسي الذي على يساره كان فارغًا.

يجلس العميد ذو الهمة على آخر كرسي بالقرب من الباب، يشير إلَّي بيده، ذهبت إليه وانحنيت قليلًا، همس في أذني "حين تدخل السيدة أنيسة أغلق الباب وقم بإجراءاتك"، عدت بظهري إلى الخلف "حاضر سيدي". خرج جميع الخدم ووقفت عند الباب، وإذ بالسيدة أنيسة مخلوف التي بلغ منها العمر ما بلغ قد ظهرت ومِن حولها حارسان، ولكنها مازالت تظهر بتلك القوة المعهودة، المرأة الحديدية، لم أراها منهارة في حياتي إلا في جنازة الرائد باسل الأسد، تقدمت ووقفت بشكل مستقيم وأديت التحية العسكرية، دخلت القاعة، أشرت بيدي إلى الحرس المرافق لها بالوقوف وعدم الدخول، وقفوا على الفور، دخلت السيدة أنيسة ودخلتُ خلفها، يشير إليَّ العميد ذو الهمة بيده لإغلاق الباب، يبدو على وجهه العابس بعض التوتر، أشرت إليه برأسي بالتأكيد، رجعت إلى الخلف وأغلقت الباب.

- حرس، انتشروا في الرواق وكل منكم في مكانه، ويمنع الاقتراب من هذا الممر على الإطلاق كائنًا من كان.

حرس أنيسة: ونحن؟!

- اذهبوا مع الحرس، ممنوع الوقوف هنا.

انتشر الجميع وبقيت وحدي عند الباب، فمصير الوطن سيقرر الآن وعلى مسمع مني. هدوءٌ يخيم على أروقة القصر، الرخام يلمع حتى إن صورتي تنعكس من الجدران، الأضواء برتقالية خافتة تنير الممرات كلها، حتى إني لا أسمع أي أصواتٌ من الداخل، هذا طبيعي، مازال الاجتماع في أوله ولم

يحتدم بعد، أنا ابن السلك وأعرف جميع الضباط داخل الاجتماع، ولديَّ اطلاع على نفوذ وقوة كل واحدٍ منهم، ليسوا جميعًا على وفاق! داخل الاجتماع ضباط وأشخاص في إمكانهم إزالة الرئيس من منصبه لقوة نفوذه، وإحداث فارق لصالح أي فريق إذا انضم له، وهناك ضباط على الرغم من تواجدهم في مثل هذا الاجتماع الهام والخاص، ليسوا بتلك القوة والنفوذ من رغم رتبهم العسكرية العالية. مشاركة السيدة أنيسة في هذا الاجتماع لخلق توازن وإيجاد حلول وتوزيع الأدوار، دون تذمر من أحد، أنا أعلم ذلك جيدًا، وأعلم نفوذها وقوتها وقدرتها على السيطرة والتحكم بالرئيس.

وجدتني أسرح بعيدًا وأنا أتمعن بالمكان، فمن كان يصدق بأني يومًا من الأيام سأصل إلى هذه المكانة لدرجة الوقوف على باب قاعة يحاك فيها أهم القرارات المصيرية وأوتَمن على مثل هذه الأسرار؟ كل من في الداخل يعلم أني سأسمع الحديث الدائر بينهم، يعلمون أني مطلع على أهم الأسرار، فمن يقف على باب السلطان سلطانٌ مثله. لكني لا أمتلك الصلاحيات، أنا الحارس الخاص لرئيس الجمهورية، والمؤتمن على حياته، أتذكر حينما دخلت هذا القصر، كيف كانت تحاك المؤامرات ضدي لطردي أو عزلي، ولكنهم فشلوا، بل بتُّ اليوم صاحب صولة وجولة داخل القصر دون أن يدرك كثيرون ذلك ومنهم ذو الهمة شاليش الذي حاول منذ البداية النيل مني ولم يستطع، في القصر فِرق وعوائل لا تسمح لمن خارج هذه الدائرة بالدخول إلى القصر إلا أني أتيت من حيث لا يدركون، بأمر خاص من الرئيس ذاته.

- سيدي، أطلق يدي وأنا على استعداد أن أقتل مليون شخص وأذهب بدلاً منك إلى المحكمة الدولية!

جملة دخلت أذني من داخل القاعة، بل تفجرت بأذني، ياله من ولاء! إنه صوت اللواء جميل الحسن رئيس المخابرات الجوية.

- إذا لم يعودوا إلى منازلهم فأنا على استعداد أن أعيد الشعب السوري إلى ستة ملايين كما كان عددهم عندما استلم القائد الخالد الحكم!

يرد عليه العقيد ماهر الأسد قائد الفرقة الرابعة أقوى الفرق العسكرية في الجيش السوري.

أتساءل: ما الذي أوصـــلهم إلى هذا الحد والاســـتعداد لقتل الملايين؟ أنظر إلى مَن حولي، لا أحـد، أعود خطواتٍ قليلـة إلى الخلف مقتربًـا من الباب أكثر لأعرف ما الذي يحدث!

- في حال لم يعودوا إلى منازلهم بعد الخطاب، سأترك لكم هذا!

إنه الرئيس، سيطلق أيدي الضباط للضرب بيد من حديد، إذًا كان خطاب اليوم نقطة فاصلة، إما أن يعودوا وتنتهي المظاهرات، وإما تصعيدٌ أمني.

تتعالى الأصوات ويحتدم النقاش، واتُّخذ القرار الأمني والعسكري.

- سيدي، في المرحلة الحالية وفي حال تصاعدت المظاهرات وأصروا على البقاء في الشارع، لا أنصح بنزول الجيش إلى الشارع في هذه المرحلة.. بل نحاول أن نحتوي الموقف بالحل الأمني لا العسكري!

إنه العماد علي الحبيب رئيس هيئة الأركان.. تُراه من سيزايد عليه؟

- أنا مع هذا الحل حاليًا، ولتتحمل الأجهزة الأمنية مسؤوليتها.

هذا اللواء آصف شوكت، نائب وزير الدفاع وصهر الرئيس وصاحب النفوذ العسكري، والمدير السابق للاستخبارات العسكرية، إنه تدخل وأيد هذا الحل، حتى يمنع المزايدين، ويحاول أن يرمي الكرة في ملعب الأمنيين، ويوجه إليهم رسالة بالتقصير في الحد من المظاهرات التي انطلقت في درعا، وانتقلت إلى حمص واللاذقية وريف دمشق، وهو العسكري الفذ السليط،

إنه من مدينة جبلة، يخشاه البعض من الدائرة الضيقة كونه يحظى بمحبة شعبية في جبلة وقراها.

لقد اتفق أن الحل سيكون أمنيًّا في حال استمرت المظاهرات مع تدخل بعض الفرق العسكرية وبشكل محدود إذا استدعى الأمر، لقد فعلها آصف ورمى الكرة في ملعب الأمنيين، إلى أن يهيئ أوراقه وخطته العسكرية ويكون جاهزًا عندما يحين دوره.

انتهى الاجتماع بعد ثلاث ساعات، واتفق على حزمة قرارات. أسمع صوت تحرك الكراسي، تحركت خطوتين إلى الأمام، فتح العميد ذو الهمة الباب، وقفت في استعداد، وأول الخارجين السيدة أنيسة مخلوف، ركض حراسها إليها مهرولين من بعيد، كانت أصوات أحذيتهم العسكرية تعلو في الطابق كله، تحركت وذهب وراءها العميد ذو الهمة، هذه المرأة لا تبتسم!

خرج الرئيس من بعدها وأشار إليَّ بيده، تحركت خلفه على مسافة مترين فقط، يرافقه آصف شوكت وماهر الأسد، وقفا قليلًا معًا ومن ثم ذهبوا إلى خارج القصر، واستمررت في المسير خلف الرئيس، إنه يتجه إلى مكتبه، دخل المكتب وطلب من السكرتيرة كأس عصير، أقف على الباب حتى دخل العصير بينما هو سارحٌ من نافذته بدمشق، خرجت السكرتيرة، وقال دون يلتفت نحوي" أغلق الباب وتعال".

- حاضر سيدي.

تقدمت نحوه بينما هو يشرب العصير ناظرًا لدمشق، وسألني دون أن يتلفت " كان يومًا طويلًا ولكن أنجزنا، ما رأيك؟"، أنا أعلم أنه يسألني تحديدًا عمَّا جرى في الاجتماع، فهو يعلم أني سمعتُ كل ما دار من حديث.

- رفيق (أقولها له عندما نكون وحدنا)، أنت أعلم مني، ولكن تسألني عن رأيي وسأجيب بكل وضوح، رفيق أنا رجل عسكري من مدرسة الرئيس الخالد حافظ الأسد، تعلمنا قبل البدء بأي هجوم أن ندرس الموقف جيدًا، وأعتقد أنكم لم تدرسوا الموقف جيدًا!

التفتَ إليَّ وجلس على كرسيه وتبسم "كيف لم ندرس الموقف جيدًا أيها المتفلسف؟!"

- أنت سألتني عن رأي رفيق، وسأصارحك.

ضحك وأشار إليَّ بيده للجلوس "قل، أنا أسألك لا أعاتبك".

- سيدي، دراسة الموقف تبدأ من المنطقة التي تحدث فيها القلق والتوتر الأمني.. وفعليًا لم تُقدّم الحلول؛ إنما تصعيد، نحن كلنا جنودك وسنحارب المؤامرة حتى آخر نفس، ولكن بالحلول التي قُدمت إلى منطقة عشائرية مثل درعا، سيتصاعد الموقف، لقد هدر دم هناك، وكان لابد من حلول خاصة لدرعا، مثل محاسبة السيد عاطف نجيب أو إقالته على الأقل، بينما ما تفضلت به في الخطاب كان عامًّا، والعشائر يا رفيق سيعتبرون ذلك تجاهلًا منك ولن يصمتوا.

قاطعني الرئيس ضاحكًا: "أتريد مني أن أخاصم أمي وأحاسب عاطف ابن خالتي لأجل هؤلاء؟!"

لم أعد أدري ماذا أقول "بكل تأكيد لا نريد مخاصمة السيدة أنيسة، هي أمنا جميعًا".

- إذًا، اسكت وتجاوز عن هذه النقطة.

- حاضر سيدي، ولكن بخصوص الحلول التي اتخذتموها أليس فيها مخاطرة على الوطن، عندما تطلقون سراح إرهابيين من سجن صيدنايا لتتلون المظاهرات بالصبغة السلفية، ويتحولوا إلى عناصر إرهابية مسلحة؟!

- قرد، وضعنا هذا الحل في حال لم يعودوا إلى منازلهم، وإذا لم يعودوا فهم من سيتحملون النتيجة لا نحن، يجب أن نكون مستعدين لكل الخيارات، وإذا لم يتوقفوا عن المظاهرات وتركناهم هكذا، فستخرج مناطق أخرى وبأعداد أكبر، وهكذا لن نستطيع السيطرة عليهم، ولكن إن أطلقنا الإرهابيين بينهم وشكلوا مجموعات مسلحة وتدخل الجيش فسنقول أمام العالم نحن نحارب الإرهاب، أفهمت يا ابن السلك العسكري؟!

- ولكن رفيق، سيتحول الوطن إلى ساحة حرب مستعرة!

- هم يريدونها ثورة فليتحملوا. ضحك الرئيس وأردف قائلًا بعدما رفع كأسه وشرب من العصير "اذهب الآن إلى مكتبك، سأذهب إلى جناحي لأرتاح قليلًا".

وقفت وأديت التحية العسكرية وعدت بعدة خطوات عسكرية إلى الخلف، ثم استدرت وخرجت من مكتب الرئيس وأنا متوتر، هل أغضبت الرئيس بطرحي؟! هو أغلى عليَّ من روحي، ولكنه اعتاد صراحتي وهو من سألني، وأنا فيما يخص الوطن وسلامته يشعرني بالمسؤولية، فأنا ضابط في الجيش وأديت القسم العسكري على حفظه، وأن أحارب من أجله.

وهو قائد الوطن وبيده القرار، ويجب أن أصارحه دون أي مجاملة مهما بلغ عشقي له، هو لا يغضب مني فقد حميته بروحي قبل ذلك، وأقف خلفه دومًا لحمايته، بينما أنزل من الطابق الثاني إلى الأول متوجهًا إلى مكتبي

والأفكار تتزاحم في رأسي، والذكريات مع الرئيس تتدفق إلى مخيلتي حين شاهدته للمرة الأولى في جنازة أخيه الرائد باسل الأسد عام ١٩٩٤، كنتُ وقتها ملازم أول في الجيش، وقفت خلفه لمنع الناس من الوصول إليه في أثناء العزاء، كان يومها شابًّا قادمًا إلى سوريا من بريطانيا، تدافع الناس للسلام عليه، والهتاف له من بعد باسل، كان يقول لنا اتركوا الناس، حتى حملوه على الأكتاف يهتفون له، لقد راقه، كان بعده شخصًا بسيطًا على هذه الحياة، ولكني وقتها استغربت، يلوح بيده وضحك للناس في عزاء أخيه، يا له من بسيط. دخلت مكتبي وجلست على كرسيّ خلف الطاولة واستدرت نحو النافذة متسائلًا، ما الذي سيحدث غدًا، إن خرجت المظاهرات واستمرت المؤامرة، فسنحارب حتى آخر رمق، سوريا ليست كتونس ومصر، الأسد ليس كمبارك وبن علي. الذكريات تدفقت إلى رأسي وعدتُ إلى عامين مضا، عام ٢٠١٠، كنا وقتها نرافق الرئيس إلى لبنان في أول زيارة له بعد مقتل رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، واتهام سوريا بقتله، وكان برفقة الرئيس الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود لاحتواء التوتر بعد قرار المحكمة الدولية الخاصة، كنا في شدة الحذر، لبنان على مدار عقود كانت تحت الوصاية السورية، نعرفها جيدًا، ونعرف كل الفرقاء والحلفاء والأعداء، ولكن كنا متخوفين من عملاء إسرائيل المنتشرين في لبنان، أو من مؤيدي الحريري في محاولة للانتقام.

غُطِّيَ الرئيس على مسارين وخطتين أمنيتين، الأولى انتشار عناصر خاصة من حلفائنا اللبنانيين في الأماكن التي كان سيتردد عليها الرئيس إلى جانب انتشار الجيش والأمن اللبنانيين وهؤلاء لا ثقة لنا بهم، والمسار الثاني عناصرنا الخاصة من الأمن السوري وحرس الرئيس الخاص والحرس الجمهوري بإشراف ومتابعة من المخابرات السورية الذين يعرفون عن لبنان

ما لا يعرفه اللبنانيون عن بلدهم، وكان إلى جانبنا، الحرس الملكي الخاص بالملك عبدالله، والحرس الرئاسي اللبناني، وعناصر حماية خاصة بالسيد نبيه البري رئيس المجلس النيابي اللبناني أحد حلفائنا البارزين، ولكننا على أرض خصم وعلينا الاعتماد على أنفسنا، ومع انتشار هذا الكم الهائل من الحرس لا يمكن شخصًا يحمل السلاح الدخول والاقتراب من المنطقة التي يتواجد فيها الرئيس. توجهنا إلى قصر "بعبدا" الرئاسي في بيروت ضمن موكب ضخم، نزلنا ودخلنا مدخل القصر، كان الملك عبد الله قد سبقنا، من عادتي أن أسير وراء الرئيس، ولكن عندما دخلنا إلى بهو القصر، طلبت من زميلي "سليمان أن يقف خلف الرئيس وأنا سأسير أمامه"، كان سليمان في طولي تقريبًا، وهو مؤهل لأخذ هذا الدور، سرت أنا على يسار الرئيس، تارةً أتقدم وتارة أعود إلى الخلف حسب ضيق الممر وتوسعته، بينما انشغل الرئيس مع الرئيس نبيه بري وهما يسيران، ركض أحدهم بلباسه المدني وباغت الحرس من أمامنا وأصبح على مقربة من الرئيس يريد طعنه بسكين، ولم نعلم لِمَ السكين، وكيف خبأه وسحبه، الحركة محسوبة، فيما بعد حسدته على سرعة حركته في سحب السلاح، ولكن بكل تأكيد لم أحسده على مصيره. كان اتفاقنا في الحرس السوري مع الجانب اللبناني، على نزع السلاح من الأمن اللبناني في أي مكان سيتواجد فيه الرئيس، وأن يكتفي الحرس السوري والسعودي بحمل السلاح. وربما استعان بالسلاح الأبيض لمنعه السلاح الناري. كان مدربًا بشكل محترف، فقد عرف يستغل الظرف والتوقيت المناسبين للتحرك نحو الهدف، عندما يسير الرئيس وحرسه في ممر ضيق تضيق الدائرة من حوله ويحاط بدائرة أمنية يصعب اختراقها، ولكن عندما نتجاوز الممر الضيق وندخل في منعطف أو رواق واسع تتسع الدائرة تلقائيًّا لفتح الطريق أمام الرئيس ومن برفقته من المسؤولين، وهذا العنصر استغل ذلك.

عض على أسنانه وأعاد يده إلى الخلف لطعن الرئيس بقوة، ولكن بلحظة شاهدت السكين يلمع، دفعت الرئيس وأعطيته ظهري ووقفت أمامه ومددت يدي اليسرى نحو يده المتحركة بالسكين لينحرف عن مساره ويخطئ الهدف، ورفعت يدي اليمنى ولكمته على وجهه، وفي ثانية واحدة أُحيط بالرئيس وتمت السيطرة على العدو وشل حركته، والتفتُّ إلى الرئيس "سيدي هنت بخير؟!"، نظر إليَّ وكان العرق قد بدأ ينزل من جبيني، لقد تلقيت الضربة بدلًا من الرئيس ولكن حَزّ السكين الحاد خصري الأيسر بعمق سنتيمترين، نظر الرئيس بصدمة إلى بطني، ولا إراديًّا نزلت برأسي وشعرت بألم وضغط، وأخذت نفسًا عميقًا، وضعت يدي اليسرى على خصري ورفعتها، وإذ بالدماء تسيل، كنت سأقع على ظهري، ساعدني زميلي واصطحبوا الرئيس إلى غرفة آمنة حيث الملك عبد الله والرئيس اللبناني ميشيل سليمان. لم أعد أدري ما الذي حصل، ثانية واحدة تغير مصير إنسان على رغم قلتها. عرفت فيما بعد أن اللقاء تم بين القادة، وعاد الرئيس إلى سوريا في اليوم ذاته، وكنت قد أُسْعِفْت في القصر الرئاسي اللبناني في "بعبدا"، وبعدها أخذوني إلى دمشق. بعد شهرين عدت إلى عملي والجرح لم يكن عميقًا، فشهرٌ في المستشفى وشهرٌ آخر في قريتي الشراشير عند أهلي. عندما عدتُ إلى القصر استقبلني الرئيس بحفاوة واحترام، لم أسأل عن مصير ذاك العنصر. بعضهم قال لي إنه من عناصر الحريري، وآخرون قالوا إنه جاسوس إسرائيلي. وأخبروني أن اللواء رستم غزالي قد هدد بأن الرئيس لو تضرر لجعل من مصير الحريري مصير كل لبنان. رمقني يومها العميد ذو الهمة شاليش بنظرة حسد "برافو عليك" ولم يقل غيرها، فهو كان يبحث عن فرصة لإبعادي عن القصر، ولكن سارت الأمور إلى تثبيتي ورفع مكانتي.

عدت من الذكريات إلى ما نحن فيه الآن، رفعت سماعتي وطلبت أحد مساعدي وسألته: "أخرج المندسون بعد الخطاب أم توقفوا عن التظاهر؟".

- سيدي، بعد الخطاب امتلأ ال"فيسبوك" بالمنشورات المناهضة للخطاب، وخرجت بعض المظاهرات.

- انصرف.

ما هذا ال"فيسبوك"؟ إنها وسيلة جديدة يستغلها العدو لكي ينتشر بيننا، إذًا نحن أمام مواجهة كبرى، وسنحارب دفاعًا عن الوطن. لربما أنا لست راضيًا عن الوسيلة، ولكن الجندي يحارب وفق خطط قائده دون أي اعتراض، ولدينا في الجيش السوري مثلٌ شائع "نفذ ثم اعترض".

يا حيف، تقتل في ولادي وأنت ابن بلادي!

توالت الأيام واتسعت رقعة المظاهرات في البلاد حتى وصلت إلى أحياء دمشق وريفها، هذه العاصمة التي يجب أن تبقى في مأمن من المؤامرات والصراعات، فهي حاضرة الدولة ومركز ثقلها وهيبة السلطة، ودمشق يوماً كانت حاضرة الدنيا. أجلس في مكتبي في القصر الجمهوري أعلى جبل قاسيون، حيث أحب الأماكن على قلبي بعد منزلنا البسيط في قرية "الشراشير"، ذلك المنزل الدافئ بوجود أبي وأمي اللذين نال منهما العمر ما نال. وتحركاتي مرتبطة بحركة الرئيس ذاته، يرن هاتفي، إنه الخط الواصل بيني وبين العميد ذو الهمة شاليش، أرفع السماعة.

- احترامي سيدي.
- علي، تعال عندي على الفور.
- حاضر سيدي.

أقفلت الهاتف مستغربًا، بحسب علمي، لن يخرج الرئيس اليوم فما الذي يريده مني؟

خرجت إليه على عجل، دخلت مكتبه وإذ بعدد من الضباط يتواجدون عنده، أديت التحية العسكرية، ووقفت.

ذو الهمة: حضرات الضباط، خرجت مظاهرات عدة في "دوما" و "حرستا" في الغوطة الشرقية، وأصدرت الأوامر بمشاركة الحرس الجمهوري بنيل الشرف لنبذ المتأمرين والمندسين، وليكون لنا دور مع باقي القوات والأجهزة بالدفاع عن الوطن، نعم نحن هنا حرس خاص لفخامة الرئيس، ولكن نحن في النهاية جنود في الجيش العربي السوري الباسل، وأينما وُجدنا فسنقاتل، ستخرج دفعة من الحرس الخاص بقيادة العقيد علي زين العابدين لتلتحقوا وترافقوا لواء "١٠٥" حتى تضعوا حدًّا لهؤلاء الكلاب.

- شو يا علي كيف عزماتك؟!

فاجأني بتولي لقيادة هذه المهمة.. بأمرك سيدي.

- انصراف هيا.. العميد طلال بانتظاركم.

واضربوا بيد من حديد يا رجال. (بصوت واحد رددنا جميعًا) "حاضر سيدي".

خرجت من مكتبه وأنا مصدوم: نحن حرس خاص، ما شأننا بالأعمال القتالية؟ طلبت من الضباط الذين كانوا معي بالتوجه والإسراع في التجهيز، ودخلت القصر محاولًا لقاء الرئيس، هل يحاول الرئيس امتحاني بعد الحديث الذي دار بيني وبينه؟ هل يشك في ولائي؟ هذا الأمر لا أقبله حتى على سبيل أن أشعر بذلك. لاحظ العميد ذو الهمة توجهي إلى الطابقي الثاني وناداني:

- علي، لوين رايح؟

تلعثمت وتأتأت، ماذا أقول له؟ "سأرى فخامة الرئيس".

- لماذا؟! الرئيس هو من أمر بتوليك هذه المهمة شخصيًّا؟!

إذًا ما أشعر به صحيح.

- سيدي سأرى إذا كان الرئيس يريدني في أمر قبل أن أتوجه إلى مهمتي.
- عيني، هنت آبتفهم عربي؟ توجه لمهمتك على الفور.
- حاضر سيدي.

عدتُ أدراجي وأحمل في قلبي الغضب، ماذا لو قُتلت؟ هل سيكون آخر من رأيته هو وجه ذي الهمة اللعين؟! أريد أن أكحل عينيَّ بالرئيس قبل أن أموت، وأريد الحديث معه، وأن أتأكد هل يشك في ولائي. تبًا.

ركبنا السيارات وتوجهنا إلى قيادة الحرس الجمهوري في منطقة مشروع "دمر" أسفل جبل قاسيون، حيث العميد طلال مخلوف قائد لواء "١٠٥" حرس جمهوري، في انتظارنا، وهذا لواء هجومي ويحوي تشكيلات المدفعية والدبابات، المسافة قريبة بين القصر وقيادة الحرس، يبدو أن قرارًا قد صدر بمشاركة الجيش مع الأجهزة الأمنية، مع إصرار الوزير "علي حبيب" على عدم تدخل السلاح الثقيل الآن، ويبدو أن لديه خطة حتى سمح مع آصف شوكت بالسماح لقطاعات الجيش بالتدخل، ويبدو أن معركة أخرى دائرة في الأروقة بين القيادات الأمنية والعسكرية، وكلٌّ سيحاول أن يثبت نفسه وجدارته في هذه المعركة. وأتمنى ألا تنعكس هذه المنافسة والخلافات على الوطن.

دخلنا قيادة الحرس والتقينا باقي الضباط، وكان في انتظاري العميد طلال مخلوف، أديت التحية العسكرية، وأعلن الجهوزية للانطلاق، وتوجه بكلمة إلى جميع الضباط والعناصر:

- لا أريد لخائن أن يعيش على تراب سوريا، هذه وصيتي ووصية الرئيس إليكم، اضربوا بيد من حديد حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر، سنحمي خاصرة العاصمة من الأعداء.

انطلقنا نحو غوطة دمشق الشرقية، وانقسمت القوات إلى قسمين، قسم نحو "دوما" وقسم نحو "حرستا"، حيث انتشرت المظاهرات، وصلت مع القوات التي معي إلى مدينة "حرستا" مع انتشار كثيف للقوات الأمنية والعسكرية، ومع اقترابي إلى الموقع المحدد، بدأت أسمع أصوات تتعالى، وصلنا إلى جامع الزهراء "فاطمة الزهراء" أحب الأسماء على قلبي وروحي. ذهلت من حجم الأعداد الهائلة، كانوا يتجاوزون خمسة آلاف شخص، الأمن طوَّق المنطقة أمنيًّا، وشكلوا جدارًا بشريًّا لمنع تقدم أحد إلى الأمام، والجميع يده على زناده. نزلت من سيارتي، ركض نحوي عدة ضباط أكبرهم يحمل رتبة مقدم أو عقيد دون ركن، ومن ثم أكون أرفع رتبة عسكرية. أدوا التحية العسكرية، "نحن في انتظار أوامرك سيدي، أخبرونا بقدومك وطلبوا منا لا نتحرك إلا بأوامر منكم".

- ما الموقف؟
- كما ترى سيدي.. سيل من البشر والأعداد تزداد. ونحن جاهزون.

قلت في قرارة نفسي: "جاهزون لماذا؟ لإطلاق النار؟ ياويلي! نحن البشر، كم على أتم الاستعداد لقتل بعضنا، ولكن لا نعطي أنفسنا أي فرصة لتقريب وجهات النظر لننقذ بعضًا".

أنظر أمامي ومن حولي إلى الضباط والعناصر، وإذ حقًّا سيلٌ من البشر يهتفون "حرية، حرية" وقفت مذهولًا من هول المنظر، قاطعني أحد الضباط: "في انتظار أوامركم سيدي" صمتُّ وكتفتُ يديّ، وركنت جسدي على السيارة التي خلفي وأفكر، نظرت إلى الضابط على يميني "اصبروا، سيتعبون وسيمضون"، انتبهت إلى صدمة الضباط وهم ينظرون إلى بعضهم. ولكن هل الحناجر المتعطشة تتعب؟ إنها لا تتعب، إن سقت نفسها بالهتافات، تزداد نشاطًا، وهؤلاء يرون عطشهم بكلمة "الحرية"، هل

أحاول أن أستمتع قدر الإمكان بهذه الموسيقى التي أسمعها من حناجر هؤلاء الشباب والشابات، ولا أريد أحدًا أن يقاطعني؟! أنا أمام امتحان صعب، ماذا ستفعل يا علي؟!

أعادني زغاريد النساء إلى الذهول، أشعر بقشعريرة تغزو جسدي، أنا لم أرَ ولم أسمع مثل هذا من قبل، ماذا يقصدون بالحرية؟

- "أيها الضابط". أنادي أحد المساعدين.

- سيدي.
- آتوني بوجهاء هذه المدينة أو من ينوب عن هؤلاء الشباب، هيا.
- أمرك سيدي.

عاد الضابط بعد قليل ومعه بعض العجائز والرجال.

- يا سادة، قولوا لهؤلاء الشباب أن ينصرفوا وينهوا التظاهر دون أي صِدام معنا، أنتم كبار هذه المنطقة وتتحملون المسؤولية.

ذهبوا ولم يعودوا، توجهت نحو المظاهرة وقلبي يرتجف، تحرك معي جميع الضباط، وأشرت بيدي إلى الحائط البشري من العناصر بيننا وبينهم، أفتح ثغرة لأمضي، وأشرت بيدي إلى شاب على الأكتاف يهتف، بأن يتوقف، نظر إليَّ ورفع يده للجميع طالبًا منهم الإنصات، في لحظة واحدة التفت نحوي الآلاف بحركة واحدة، شعرت بصدمة، أحاول جمع الكلمات لأتوجه إليهم وأقنعهم بالتراجع.

- أيها الشباب، اعلموا أن هناك عصابات مسلحة وجهات خارجية تستغلكم من أجل مصالحها، ويشكلون منكم غطاءً لمشاريعهم، عودوا

إلى منازلكم وأنهوا هذا التظاهر، ولا تسمحوا للمندسين بزرع فتنة تؤدي بالبلاد إلى التهلكة، نحن جميعًا في غنىً عنها.

قاطعني أحد الشباب الثائرين غاضبًا: "فتنة ومندسين وأرجع لبيتي؟ موافق بس أعيدوا أخي الذي أخذتموه دون أي سبب وسأعود الآن إلى منزلي".

وبدأ الهتاف "حرية، حرية".

- يا شباب يا شباب، لقد غرر بكم.

قاطعني واحدٌ آخر وتهجم عليَّ قبل أن يمنعه باقي المتظاهرين من الوصول إليّ.

- رأيتم؟ هذا أحد المندسين يحاول زعزعة أمن البلاد.

بدأ التدافش والسباب عليّ، واستعرت الحناجر الغاضبة "حرية، حرية"، ليقفوا قليلًا ويصيح أحدهم "نحن لسنا مندسين، نحن نريد الحرية والكرامة لنا ولك وللبلاد، اذهب من هنا وأقنع رئيسك بأن يطلق سراح المعتقلين ويحاسب المجرمين الذين يقتلون المتظاهرين السلميين".

وعادوا إلى الهتاف، عدت أدراجي، "سيدي لا تحاول" قالها أحد الضباط. عدت إلى الخلف أفكر ما الذي أحاول فعله.

أنا أمام امتحان، الرئيس يمتحن ولائي في المعركة ضد المندسين والمتآمرين. توجهت إلى الضباط "أطلقوا القنابل المسيلة للدموع، وأطلقوا الرصاص في الهواء لتفرقة هؤلاء". وكأن الضباط كانوا في انتظار هذا الأمر مني، حتى ركضوا وبدأ زخ الرصاص في الهواء وتفرق الجمع وبدأوا باصطياد القنابل ورميها وإعادتها إلينا وأعادوا التجمع والهتاف.

"لن أخيب ظن الرئيس، أطلقوا النار" أعطيت الأوامر بإطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين. بدأ الرصاص يركض نحو تلك الحناجر لإسكاتها. وتفرقت الجموع وخمد الهتاف. سُيْطِرَ على الساحة أمام جامع الزهراء، وأُغْلِقَت المنافذ المؤدية إلى الساحة، أرى الدماء في بعض الأماكن ولكن تجاهلتها، أخبرني الضابط المساعد أن ستة من المندسين قُتلوا وهناك جرحى، هممت برأسي وركبت سيارتي وعدتُ إلى القصر، اتصل بي زميلي المرافق للعميد "طلال مخلوف" وأخبرني بأن العميد نال منهم وسحقهم وقتل العشرات، كنت أرد عليه ولكن لم أكن بوعيي الكامل. لقد توسخت يا أمي بدماء أبناء وطني.

عدت إلى القصر وأشاد بي العميد ذو الهمة "برافو يا عليّ" وقلت في نفسي: "تبًا لك". صعدت إلى مكتب الرئيس بعد يومين من الحادثة.

- هل رأيت بعينيك أن كل محاولاتك لتهدئتهم ذهبت سدًى؟ هؤلاء مندسين.

إذًا، رفعوا التقرير بي إلى الرئيس وعن كل ما فعلته.

"نعم سيدي".

ضحك الرئيس "أحسنت عملًا".

- لماذا أرسلتني؟ هل كنت تشك في ولائي؟

- "مشـكلتك يا علي طيبة قلبك، أردتك أن ترى بعينيك. أما فيما يخص ولاءك". توقف الرئيس قليلًا وارتـابني توقفـه، وتغيرت ملامح وجهـه، حتى احمر وجهي. هز رأســـه ونظر إليّ "إن كررتها مرةً ثانية يا عليّ فسأقتلك بيدي".

- إذًا لماذا صمتّ قليلًا؟!

- لأني على سبيل التعبير لا أريد أن أنطقها "قتلك" أنا أحبك كما أنت تحبني، وهذا الأمر تجاوزناه أنا وأنت منذ زمن.

تنفست قليلًا، وعاد اللون إلى وجهي، وسكنت قريرتي وقلتها بابتسامة: "رفيق أنا لا أحبك فقط، أنا أعشقك، وأدين لك بالولاء المطلق وأفديك بروحي وبدمي".

- أعرف ذلك جيدًا، وأعرف أنك مقاتل شرس وعاشق لسوريا، لكن مشكلتك طيبتك، أنا لا أنكر أن حديثك مع هؤلاء المتظاهرين كان جيدًا ولكن لا فائدة منه.
- رفيق هؤلاء مغرر بهم تحت اسم الحرية والثورة، وكان عليَّ نصحهم من أجل ذلك لم أُرد أن أستخدم القوة منذ البداية.
- مغرر بهم سيدفعون ثمن ذلك، لأنهم أخطأوا، وفي الحرب لا تساهُل ونحن بدأنا حربنا. ويجب أن يدركوا قوتنا ومدى بأسنا وشدتنا.. ولكن هل تعلم أن العميد طلال ليس راضيًا عنك؟!
- وكيف ذلك؟ ولماذا؟!

ضحك الرئيس وأسند ظهره على كرسيه: "إنه أحرق "دوما" وأنت قتلت فقط ستة من المندسين، هل يعقل هذا يا علي؟

بلعت ريقي ولا أفهم ما الذي يقصده الرئيس. أكمل حديثه: "يتفوق الحرس الجمهوري على حرس القصر واحد صفر" وأطلق الرئيس ضحكته التي ملأت الغرفة.

عدت إلى مكتبي في الطابق الأول وأنا مرتاح لأن الرئيس مازال على حبه وثقته بي، راودني فضولٌ أن أعرف ما الذي نُشر عما حدث في "حرستا" على

الإنترنت. فتحتُ الإنترنت وبدأت أتصفح، وجدت مقطع فيديو مرئية عن "حرستا"، فتحته، بدأ المقطع بعزف من العود ودُفّ، وبدأ صوت مُغَنٍّ بكلمة "يا حيف" وظهر بعدها عدد من الشباب كانوا يحاولون الوصول إليَّ وبأيديهم أغصان الزيتون، وبدأ المغني "زخ الرصاص على الناس العزل يا حيف" شعرت بغصة وأنا أتنصت إلى كلمات الأغنية "وأنت ابن بلادي تقتل في أولادي وظهرك للعادي وعلي هاجم بالسيف"، لكني أحاول أن أحمي الوطن وظهره، أنتم مغرر بكم ولا تدرون، عليكم دفع الثمن، "سمعت هالشباب يمه، الحرية على الباب يمه، طلعوا يهتفوا لها، شافوا البواريد يمه، قالوا إخوتنا هم ومش راح يضربونا" تذكرت المشهد المثير وهم يهتفون للحرية بينما كنا مسلحين دون أن يخافوا، هل حقًّا كانوا ينظرون إلينا على أننا إخوتهم ولن نقتلهم أو نؤذيهم؟ وأكملت الأغنية "ضربونا يمه بالرصاص الحي، متنا بإيد اخوتنا باسم أمن الوطن، واحنا مين احنا". لقد قالها الرئيس، مغرر بهم وسيدفعون الثمن وفي الحرب لا تساهل من أجل حفظ الوطن، ونحن أقسمنا على حفظ الوطن وسلامة أراضيه، يا إلهي! ما الذي يحدث؟! "مش تاري السجان يمه كلمة حرية وحده هزت له أركانه". نعم لقد هزني من وجداني هتافات الحرية، ولكني لست بسجان، إنما أنا جندي أحمي وأقاتل من أجل الوطن.

إن ما يحدث في سوريا اليوم قَسم الجميع إلى فريقين، جميعهم يقول "مِن أجل الوطن ولكننا نختلف على الأسلوب والطريقة والمبدأ"، أما أنا فلا أدري ما بي، هل القسم الذي أديته عندما تخرجت من الكلية الحربية وانتسبت للقوات المسلحة سيخرجني مما أنا فيه؟ نعم، لقد أقسمت على أن أطيع رؤسائي، وأنا ملتزم بالقسم العسكري الذي أديته، عدت إلى ذكريات يوم تخرجي عندما كنا واقفين جميعًا في الساحة العامة بالكلية الحربية في "حمص"، نردد بصوتٍ واحد:

"أقسم بالله العظيم، أقسم بالله العظيم، أقسم بالله العظيم
أن أكون خادمًا وفيًّا للجمهورية العربية السورية.
أدافع عنها، وأحمي علمها، وأحافظ على استقلالها وسلامة أرضها.
وأعمل لتحقيق أهدافها في الوحدة والحرية والاشتراكية.
وأحافظ على شرفي العسكري وأطيع رؤسائي في كل ما يتعلق بذلك
براً وبحراً وجواً
داخل أراضي الجمهورية وخارجها
وأبذل دمي لأداء هذا الواجب
والله على ما أقول شهيد".

سمعت الأغنية مراتٍ ومرات، وكلمة يا "حيف" تُردد في أذني، ولا أريد شيئًا سوى أن ألتقي أحد دعاة الثورة لأقول له إن هذه الكلمة لا تنطبق عليَّ، فأنا أقسمت على حفظ الوطن وسلامة أراضيه.

أسير على الأوتوستراد الدولي بين دمشق واللاذقية متجهًا في إجازة إلى قريتي "الشراشير" أقود سيارتي بنفسي ومعي سيارة أخرى تسير خلفي فيها حرسي الخاص.

على هذا الطريق تراودني الذكريات حين خرجت أول مرة، حيث أحلامي تجاوزت اللاذقية إلى دمشق حيث لم أحتسب، دخلت جبلة ومررت بالشاطئ وتبسمت لوجه امرأة سرقها الزمن مني، جالستني سنوات على هذ الشاطئ، في العقل ذكريات وفي القلب آهات وفي العين دموع وأشواق، انعطفت نحو حي العمارة ومررت من أمام مدرسة "سعيد يونس" حيث

قضيت أجمل ثلاث سنوات من حياتي رغم العذابات، تلك المدرسة التي حملت أحلامي وأحلام زملائي وأحلام البسطاء والفقراء، تجاوزت ذلك وتوجهت نحو قريتي، وسلكت ذاك الطريق بسيارتي الفخمة وحرسي الخاص، غير ذاك الزمان حيث كنا نسلك هذا الطريق يوميًّا سيرًا على الأقدام مسافة طويلة، حتى وصلت إلى مفترق ذاك الطريق، أوقفت سيارتي وترجلت منها، نزل الحرس من سيارتهم، نظرت إليهم وأشرت بيدي إلى الحرس أن يبقوا مكانهم، كان الطريق قد تغير كثيرًا وكثيرًا، وبات مُعبّدًا ومضاءً غير الذي عهدناه في صغرنا، مهجورًا نخشى السير عليه ليلًا من الكلاب الشاردة والحيوانات البرية، تنفست وسحبت هواءً نقيًّا، الأراضي الخضراء والمروج تحيط بنا من كل حدب وصوب، نظرت إلى الطريق المؤدي إلى القرداحة "عرين القائد الأسد" وتذكرت العم "حسان" في ذاك اليوم البعيد جدًّا، عندما وصفني "بالحمار" لأني لم أعرف ماذا يعني القرداحة، عندما اصطحبنا في جراره المهترئ إلى "جبلة" في أول أيام الدراسة من الثانوية.

هذا الطريق الذي سلكته فيما بعد كثيرًا كحارس خاص لرئيس الجمهورية وهو يزور مدينته، حيث والدته "أنيسة مخلوف" ماتزال تقيم هنا ولا تخرج إلا للضرورات القصوى، اليوم يا عم حسان أنا العقيد الركن علي زين العابدين من مرتبات الحرس الجمهوري، الحرس الخاص للرئيس وأحد ضباط قصر الشعب، هل رأيت كيف يدور الزمان وكيف تتغير الأقدار؟ أتذكر يومها عندما قلت في نفسي: "هنيئًا لي يا أمي فإني أسير على الطريق الذي سار عليه الرئيس حافظ الأسد"، دخلت بيته أيضًا وسكنته اليوم يا أمي. بات الطريق معروفًا ليس كما في السابق لا يعرفه إلا القلة، بات الجميع يدرك إلى أين يؤدي هذا الطريق، راودتني نفسي أسأل حرسي إن كانوا يعرفون الطريق،

ولكن خشيت أن يضحكوا عليَّ بين بعضهم، كما ضحك عليَّ العم حسان في ذاك اليوم، لكني تعلمت من التاريخ.

دخلت قريتي وكانت المنازل قد تغيرت، نزلت إلى بيتنا، سمِعَتْ أمي صوت السيارة وخرجت على عكازتها "علي، تقبر قلبي"، انحنيت أمامها وقبلت يدها ورأسها، حضنت أبي العجوز وسألني: "شو ما يصير بالبلد يا ابني؟"، لم أعرف ماذا أقول له لكني بادرته بسؤال معاكس: "ماذا يعني لك الوطن يا أبي؟" نظر إليَّ وطلب عكازه وقام، فوجئت، وطلب مني القدوم معه "إلى أين يا أبي؟"، "تعال وراي"، خرجنا معًا وطلب مني أن أقوده بسيارتي إلى أرضنا، نفذت رغبته وأنا أجهل إلى ماذا يرمي، توجهنا إلى أرضنا، وقفنا، ومن دون أن ينزل أشار بيده إلى أشجار الزيتون من خلف النافذة، "الوطن أن أملك هذه الأرض وأن تكون أشجار الزيتون هذه ملكي، بينما في الغربة لا يستطيع الإنسان أن يمتلك منزلًا، أعدني إلى المنزل". نظرت إليه ولم أنطق، وتوجهنا إلى المنزل وفي نفسي أقول: "إذًا فالوطن هو الأرض وشجر الزيتون يا أبي، أن تكون مغروسًا فيها وتكون خيرًا له" نعم يا أبي. أوصلته إلى المنزل، وعندما نزل نظر إليَّ: "لماذا لا تنزل؟" تبسمت له "لدي موعدٌ خاص يا أبي، عليّ الذهاب الآن لقد تأخرت".

تسير الأقدار بما لا تشتهي الأحلام

جبلة ١٩٨٩

وصلت إلى الطريق العام وقطعته نحو البحر، لي موعدٌ مع حورية من حوريات البحر، غصتُ في أعماق الشاطئ حيث يتوارى العشاق بعيدًا عن أعين الحاسدين، ودست الصخور واحدة تلو الأخرى، لمحتها من بعيد، كانت معانقة للبحر، سارحة إلى حيث السكينة، أتيتها من الخلف ولم تشعر بي.

- زينب.

التفت وكأن الشمس قد أشرقت في هذا الشتاء القارص، ابتسمت مليكتي: عليّ!

- هل تأخرت؟
- لا، تعالَ واجلس وانظر إلى الأمواج معي، منظر جميل.
- أتشعرين بالبرد؟

مالت برأسها إلى الجانب الأيمن ولمع أزرق عينيها: "لستُ أبرد وأنتَ معي".

وضعت يدي على كتفها وأخذتها بأحضاني، وخضنا مع الأمواج والبحر رحلة حبٍّ، نسرح فيه بمخيلتنا ونركب أمواجه المتقلبة.

هذا عامنا الأخير في الثانوية "بكالوريا" وأمامنا طريقٌ سنسلكه في العام المقبل، الحياة الجامعية.

- عليّ، هل تذكر ذاك اليوم حينما كنت تنتظرني على مدخل "الضيعة" في اليوم الثاني من أيام المدرسة؟

ضحكت، "وهل سأنسى ذاك اليوم؟! ولكن ما الذي ذكَّرك به؟"

- يومها كنتَ ثابتًا في مكانك ولكني شعرت بك ترتجف وأنا أتقدم نحوك، شعرت باحمرار وجهك وأنا أسألك عن اسمك!
- نعم يا حبيبتي، كنتُ أرتجف عشقًا، ذاك الشعور الذي عشته للمرة الأولى في حياتي، تهتُ في عينيك الجميلتين، وباسمك، وما بين مصدقٍ وغير مصدق أنكِ أتيتِ نحوي وتريدين التعرف إليّ.
- لقد شعرت بكَ في اليوم الأول وأنتَ تسرق النظرات نحوي، وبعدها لمحتكَ أمام بيتنا، وفي اليوم الثاني وجدتكَ دون رفاقك، جالسًا عابثًا بالأرض تنتظر، شعرت بكَ وما يحدث لك، لا أدري كيف تجرأتُ وغالبتُ خجلي أمام صديقاتي وأتيتُ إليك، لعلني آمنت بك، فالحب إذا حان لا داعي لتأجيله، وأنا سمعت عن الحب كثيرًا وقرأت عنه، وعندما رأيتكَ ذاك اليوم جالسًا، كان أول عهدي مع الحب وكأني رأيت ما كنتُ أبحث عنه وسمعته في قصص الهوى.
- أتعلمين يا زينب، أنتِ أجرأ مني؟ لو أنكِ لم تبادري في ذاك اليوم، فما ظننت أني سأبادر بسبب خجلي، لا أعلم ماذا كنت لأفعل.

- إن لم نبادر إلى الحب أضعناه يا عليّ، والمرأة أفضل مَن حافظ وصان الحب، وإن أحبت أعطت وأذهلت، الحب أمانة صعبة وبحاجة إلى قوي ليحمله، والمرأة قوية وصُلبة وخير من تحفظ الحب.

- أحبكِ يا قدري.

المرأة قدر والحب قدر، فمن خان القدر عبث به الزمن.

على مدار السنوات الثلاثة وفي كل يوم أذهب وزينب إلى المدرسة في "جبلة" ونعود، ويسير صحبي في الأمام، وصديقاتها في الخلف، وأحيانًا يسيرون معًا، طوال الطريق نمسك بأيدينا ولا نتركه إلا عند مدخل جبلة أو مدخل القرية.

عرفت الحقول والدروب والطريق والسهول والجبال وبحر جبلة وشوارعها بقصة حبنا وكل جماد. بعد المدرسة كنا نجلس يوميًّا على البحر لبعض الوقت، نسرق الوقت ونسابق الزمن حتى نبقى معًا قدر ما استطعنا لربما أتى زمانٌ يصبح اللقاء حلمًا.

انضممت مع زينب في عمر مبكر إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، في الشبيبة، وأردنا أن نصبح من أطباء الحزب الفاعلين، كانت زينب تعلم بحلمي بأن أصبح طبيبًا وآمنت به وكان ذلك حلمها أيضًا. لكني أخفيت عنها ما يدور في فلك منزلنا حيث تسير الأقدار بما لا تشتهي الأحلام.

- بني، لعلني لا أستطيع أن أصرف على جامعتك وتخصصك الذي تريد دراسته فيما بعد، والأرض لم تعد تعطي كما كانت، إن كنت مصممًا فسأبيع الأرض لتكمل جامعتك وتدخل كلية الطب بعد نجاحك في البكالوريا. فكر وقل لي.

حملني أبي هذه الأمانة الصعبة، الطب حلمي وحلم زينبتي وحلم أمي وأبي وإخوتي الذين تركوا دراستهم لأكمل أنا وأخفف الأعباء عن والدي، وحلم الفقراء والضعفاء بأن يكون هناك طبيبٌ منهم يسكن بينهم ويخفف عنهم أعباء المدن. وفي الوقت نفسه، "الأرض عرض" هكذا تعلمت من أبي وتعلمنا من أجدادنا، إن باع أبي الأرض فكيف سيعيشون؟، أنا مخير ما بين الحلم والأنانية، عليَّ أن أختار قبل انتهاء العام الدراسي وأقرر ما أريد، ولكن لابد أن أصارح زينب وأن آخذ برأيها، بينما نحن نسير نحو مدرستنا في "جبلة" وأنا ماسكٌ يدها، وغافلٌ عن الدنيا وما فيها،

- عليّ، ما بك؟ لسْتَ على ما يرام.

- لا شيء يا حبيبتي.

- يداك باردتان، لا تكذب على امرأة في يوم من الأيام، فالمرأة تشعر على الفور.

- اليوم بعد الدوام سأجدك على البحر ونتحدث.

جلست في الصف وأنا تائه لا أدري ما مصيري، كنت قبل ذلك أعلم ماذا أريد فعله في المستقبل، أما اليوم حاضرٌ مجهول أمام مستقبل غامض، فكيف سيكون المصير؟ كانت حصتنا الأخيرة درس الفتوة، حصة عسكرية، قال مدرب الفتوة الذي يُعَد من أقسى الأساتذة وأشرسهم وأكثرهم من ينزل فينا العقوبات، في أحد الأيام لبست حذاء الرياضة، لأن حذائي العسكري قد ابتل من مياه المطر، ونحن كعائلة فقيرة ليس لدينا المقدرة على شراء البديل، ضربني الأستاذ وجعلني أركض في ساحة المدرسة لابسًا "الشورت" في الشتاء، ويومًا ضرب أحد زملائي في الصف وحلق شعره على درجة الصفر، ويومًا عاقبنا جميعًا بمسح حمامات المدرسة بالمياه الباردة، وفيما بعد

الوقوف تحت المطر مدة نصف ساعة، كنا نتحاشى غضبه "الانتساب إلى الجيش والأجهزة الأمنية شرف عظيم، لا يناله إلا الشريف ولا يتحاشاه إلا الخائن"، كان لكلامه وقعٌ في نفسي، أخرجني من الفوضى الذهنية التي أعيشها، وكيف ذلك؟ لم أتجرأ على السؤال حتى لا يغضب لأي سبب، ترك كلامه أثرًا في نفسي.

ذهبت إلى الموعد وكانت زينبتي في انتظاري كعادتها، لا يمكن رجلاً أن يسبق امرأة على موعد غرامي. وويحٌ لرجلٍ أن يعبث بفضول امرأة!

- تأخرت كثيرًا، قل لي ما بك؟
- زينب، أنا لم أتأخر؛ هذا موعدي المعتاد!
- اجلس وقل لي ما بك، اليوم كله كنت أفكر فيك.
- يا زينب، إن أحلام الفقراء لا حدود لها، لكن إمكاناتهم تقيدهم، الفقير بات يحاسب على أحلامه يا زينبتي، لقد حكم الزمان علينا بما لا نريد.

بعدما رويت على مسامع زينب كل ما قاله أبي، وأن بيع الأرض وحده ما سيجعلني أتحرر من فقري وأنطلق نحو حلمي، لكن بيع الأرض بالنسبة إلى والدي كمن باع وطنه، شـــعرت بأســـف زينب، لمحت العطف في عينيها الساحرتين.

- ماذا ستفعل؟

سحبت نفسًا عميقًا وتنهدت قليلًا: "سأنتسب إلى الجيش"

- الجيش؟!
- نعم، أتعلمين أن الشريف وحده من ينال شرف الانتساب، والخائن من يتحاشاه؟
- ولكن..

- سأصبح جنديًّا يا رفيقة، وسأدافع عن الوطن ونحارب إسرائيل ونحرر فلسطين.
- لن تدخل الجامعة؟
- سألتحق بالكلية الحربية، وأتخرج ضابطًا وبعدها سأتدرج في المناصب، وفي الجيش هناك كليات ودراسات عُليا.
- أينما كنت سأفتخر بك وسأكون معك وأكون سندك.

ضممتها إلى صدري وقبلت جبينها الأشم، هنيئًا لرجلٍ ساندته امرأة عاشقة.

الفقر لا يمنع النجاح، إنما أحيانًا يقف عائقًا، والناجح والطَّموح يتحدى هذه العواقب ويزيلها من أمامه، وإن انحرفت البوصلة عمَّا نحلم، لا يعني أننا فشلنا، لربما بل يمكننا أن نحلم في مكان آخر وأن نقرب ما بين الحلم والقدر، الاستسلام للقدر لا يجعلنا ضعفاء وإن تعاملنا معه بالند، سنأخذه نحن إلى ما نريد قدر ما استطعنا، سنحلم أيضًا حيث أصبحنا وإن لم تكن رغبتنا منذ البداية، وسننجح إن أردنا وأحببنا، وسنصل إلى ما نريد إن صبرنا على أنفسنا، إن مشكلة الإنسان في صبره على نفسه، هذا هو العائق الوحيد الذي يمكن أن يوقف حدود الإنسان ويجعله إما فاشلًا أو ناجحًا، وإن صبر الإنسان على نفسه فسيجلب صبره الإرادة والقوة ويشحن طموحه بالأمل.

مضت الأيام وأنا أسأل كل من هو عليم عن الجيش وطرق الانتساب وكل ما يتعلق به، سألت والدي وسألت رفاقي في حزب البعث، وسألت مدرب الفتوة، الجميع تمنى لي النجاح وقدم لي النصيحة وشجعوني، أما والدي فقد فرح حزنًا على اختياري، فرح لأني اخترت أن أكون أحد حُماة الوطن، وحزن لأن حلمي كان في مكان آخر ومنعه فقره مساعدتي.

سأنجح يا أبي وسأقدم لك المثال الناجح وسأجعلك تفتخر وسأخرجكم من هذا القاع، ولكني يا أبي تعلمت درسًا عمليًّا، لن أورث أبنائي الفقر كما ورثتني أنت وورثت أنت عن آبائك، سأعمل وأعمل حتى أقدم لكم حياة الرفاهية حتى لا يأتي زمانٌ يُجبر ابني أن يتخلى عن حلمٍ من أجل المال.

انتهى عام ١٩٨٩ ونجحت في البكالوريا علمي بمعدل ٢٣٠ من ٢٤٠، كنت من الأوائل، ونجحت زينب بمعدل ٢١٠ من ٢٤٠، زينب ستتوجه إلى جامعة تشرين في مدينة اللاذقية لدخول كلية الطب رغم أن حالها ليس أفضل من حالي المادي، ولكن بعض الظروف وقفت إلى جانب هذه الجميلة. وأنا قررت الانتساب إلى الجيش العربي السوري، كانوا يدرسون لنا المحاضرات التي كنت أذهب إليها في حزب البعث العربي الاشتراكي، بأن هناك حربًا مفتوحة مع إسرائيل وفي أي لحظة ستندلع الحرب لاسترداد جولاننا المحتل وتحرير فلسطين، وأن هذا الخيار لن يتخلى عنه القائد حافظ الأسد، وأن الوطن في حاجة إلى جنود وضباط أكفاء لخوض هذه الحرب إذا اندلعت، وأنا أقسمت فداءً لهذا الوطن. جلست مع أبي وقلت: "أتيتك عاشقًا هذه المرة يا أبي، أريد أن تخطب لي زينب قبل أن ألتحق بالكلية الحربية"، تبسم والدي ولبى نداء قلبي ورغبتي، فالأباء المحبون والأمهات المحبات لأبنائهن لا يسمحون لعذابات العشق والفراق أن تنال من فلذات أكبادهن. اتفقت العائلتان على حبنا بالرضا، فالحال هو هو، واتفقنا أن نعقد القِران بعد التخرج من الكلية الحربية، ألبستُ زينبتي خاتمًا وكأن شيئًا من قلبي قد التصق بإصبعها، أمسكت بيدي زينب وتجولنا في أحراش وسهول وشوارع "الشراشير"، أظهرنا عشقنا أمام العالم وتحت وهج الشمس ونور القمر، وأشهدنا الجبال والسهول والأشجار وتراب الأرض الأحمر المعطاء على حبنا، ستمضي هذه السنوات يا حبيبتي وسنلتقي تحت سقفٍ يُؤوي قلوبنا

المعذبة، سنتآمر على الزمن كما يتآمر علينا، ونحتال عليه كما يحتال على الفقراء من أمثالنا. لا يشعر بالفقير إلا من ذاق الفقر مثله، ولا يحن على البسيط إلا البسيط مثله، في هذه القرية الصغيرة البعيدة المنسية يحن أبناؤها على بعضهم ولا يفرق بينهم أي فوارق، لأن الحال من المحال.

"أبي، غدًا سألتحق بالكلية الحربية في حمص".

- بني، أوصيك بالوطن خيرًا، ستلقى المصائب والويلات في طريقك، تحمل وتذكر أن التعب من أجل الوطن واجب، والوطن يستحق كل المرارات، إن أصبحت يومًا في مركز ما، فكن نصيرًا للضعفاء ولا تصبح مثل الضباط الفاسدين في الجيش حيث المحسوبيات والفساد والجبروت، وتذكر جيدًا ألا ترفع سلاحك إلا من أجل الوطن.

لقد لقنني أبي القروي البسيط درسًا في حب الوطن من أسطر قصار، ما لم يستطع أن يعلمني إياه أي محاضر في الحزب أو مدرس في المدرسة.

الزمان يعيد نفسه، توجهت وزينب معًا إلى مدينة اللاذقية، لتذهب هي إلى جامعة تشرين، وأذهب أنا إلى الكراجات للتوجه إلى محافظة حمص للالتحاق بالكلية الحربية، وأخيرًا إنها اللاذقية أدخلها المرة الأولى، ولكن لم يستقر المقام طويلًا.

في الكلية الحربية حيث حياةٌ جديدة من الانضباط والانتظام والحفاظ على المواعيد ودقتها، والخطأ ممنوع لأن العواقب وخيمة، كان اليوم الأول صعبًا، يحتاج الإنسان إلى وقت مع الحياة الجديدة حتى يتأقلم. في الساعة السادسة من صباح اليوم الأول فزعت حينما سمعت صوتًا صاخبًا، ضحك بعض الرفاق وأخبروني أن عليَّ التعود على هذا الصوت المزعج والانسجام معه، فهذا صوت البوق، يُسمع صباح كل يوم عند الساعة السادسة ليستيقظ

كل الطلبة في آنٍ واحد. في العامين الأول والثاني يتعلمون على التكوين العسكري للطلاب الضباط، وتوحيد المسائل الانضباطية والمعلومات العسكرية العامة، في العام الثالث يكون هناك كليات الاختصاص، التدريبات والدورات والمحاضرات والدروس لا تتوقف، أنهكت نفسي بالبحث والمراجع وتاريخ الكلية الحربية، أريد أن أعرف كل شيء، كنتُ أرى أُسودًا يتدربون، وراودني سؤال نتيجة بحث في المراجع والتاريخ، لماذا لم نقاتل إسرائيل منذ عام ١٩٧٣؟ ما الذي يجعلنا صامتين أمام عدوٍّ غاشم، ونحن نمتلك مثل هؤلاء الجنود والضباط والإمكانات؟ كانوا يقولون إن القرار بيد الرئيس وهو يعلم متى يختار الوقت المناسب، وعلينا أن نكون دومًا على أهبة الاستعداد.

قدمت لي الكلية الحربية نموذجًا آخر عن الوطن، رأيت الوجه الآخر وعالماً آخر كنت أجهله، هنا نسمع قصصًا كثيرة عن الرئيس وأبنائه والمقربين منه، ونتعرف على الفساد الإداري، كنا نتناقش كطلبة بشكل سري، ونتبادل الأحاديث ليلًا في الكلية الحربية، يتشرب كل واحد منا هيكلية نظام الحكم في سوريا ويعرف مدى نفوذ كل الشخصيات وحدوده، عرفت أن بالإمكان أن نحلم هنا أيضًا، وهنا علامات وترقيات ويمكن تؤدي هذه العلامات بالشخص إلى الجحيم والخدمة في مكانٍ بعيد وأن يكون متعبًا، ويمكن أن يصل به الأمر إلى أن يرتاح في الخدمة، ولكن لا جحيم في خدمة هذا الوطن.

رد عليَّ زميلي: "كل مكان نكون فيه خدمة للوطن لو كان القرار النهائي نزيهًا".

- ماذا تقصد؟

- في السنة الثالثة والأخيرة يقدم بعض الطلبة رشاوى إلى ضباط كبار لفرزهم إلى حيث يريدون ويرتاحون، أي إن المال يتلاعب بالمصائر.
- وهل يمكن ضابطًا غير كفء أن يثبت في منصب في الجيش؟
- نعم يا عليّ، إن كان يعرف شخصية نافذة، أو لديه المال، المحسوبيات يا عليّ تنغلّ في جسد الجيش والإدارات كلها.
- يا ويلي! على حساب الوطن؟! هذا جيش أهم أجهزة الدولة والحامي له، محسوبيات على حساب الوطن؟
- دعك من هذه الشعارات يا عليّ دعك، البسطاء من أمثالنا يدفعون ثمن هذه المحسوبيات.
- بل الوطن من يدفع الثمن في النهاية، هنا أيضًا سيقف المال في وجهي وطموحي!

قاطع حديثنا زميل آخر "تخيل أن نجتهد ونقدم أفضل ما لدينا ونكون من الأوائل، وبعدها نُفرَز إلى حيث لا نستحق، بينما يُفرَز ضابط آخر في مكان مريح وهو طالب غير مجتهد في الكلية الحربية".

غضبٌ تكلم عني "الآن عرفت لماذا لا يقدم الرئيس على خوض معركة مع إسرائيل".

بحركة واحدة أشار جميع من في حلقة الحوار بأصبع على أفواههم "هسسس"، وقام كل واحدٌ إلى سريره. أما أنا فأي نوم سيأتيني بعد الذي سمعته؟ هل أخطأت الاختيار؟ هل يعقل أن يحدث معي كما قالوا؟ يا إلهي! ما الذي يفعلونه بحق سوريا؟ وأين الرئيس من كل هذا وهو ابن هذه المؤسسة؟!

بعد الذي سمعت لم أعد بخير، وبدأت أخاف مما هو آتٍ في المستقبل المتلاعب به من بضعة فاسدين يتحكمون في مصائرنا ومصائر البلاد كلها، بضعة أموال ستغير كل شيء، سيحول الفاشل إلى ناجح، ولكن على الإنسان أن يفرض نفسه.

أثقلني وأوجعني ماســمعت وما رأيت فيما بعد. بعد انتهاء العام الأول، توجهت إلى قريتي "الشــراشــير" لم أكن في حالةٍ جيدة، اســتقبلني أهلي بفرحٍ عارم ولكن بعض الحزن والأسى على الوجوه، تساءلت: "ماذا هناك؟"، نظروا إلى بعضــهم، أمي الصــلبة نطقت: "زينب"، عندما ســمعت رميت حقيبتي على الأرض واحمر وجهي وانتفخت عيناي ودق قلبي وهرولت على الفور إلى منزل زينب، من دون أن أســمع باقي الجملة، أتخلت عني زينب أم تراها تركتني وتزوجت بعدما أصــبحت في كلية الطب، ولم يعد يناسبها مَن غامر بحياته وانتسب إلى الجيش؟ ما الذي حصل؟! أركض نحو منزلها كالمجنون، زينب لا تتخلى عني، أنا أعرفها ولكن ربما ضــغط عليها أحد لسبب ما!.

وصلت عند باب منزلها، وقبل أن أطرق الباب الخشبي المهترئ، صرخت بأعلى صوتي: "ززززيننن... زينبببببب" خرج والدها، ونظر إليَّ، بادرته بغضب: "أين زينب؟".

أومأ برأسه ونظر إليَّ وأشار بحركة من رأسه بالدخول، ووجه شاحب، دخلت وأنا إلى الآن لا أعرف ما الذي حصل، العشاق مجانين، عندما دخلت المنزل، خرجت زينب تهرول، ركضت وعانقتني "زينب، ماذا هنالك؟"، استأذنت أهلها بأن تخرج معي لتخبرني، بماذا؟

خرجنا معًا، كانت الأحراش تحيط بنا من كل الجهات.

- عليّ، لقد تركت الجامعة.
- لماذا؟!

- لأني مصابة بالسرطان!

صمتنا، إلى بعضنا نظرنا، بدموع الأعين تهامسنا، وسرعان ما ضممتها إلى قلبي، وبكينا على أحلامنا وأنفسنا، ولأنانيتي بكيت على نفسي.

- منذ فترة وأنا أعاني تعبًا، ذهبت إلى المستشفى في اللاذقية وأجريت الفحوصات، وتبين بأني مصابة بالسرطان، لم يعد بالإمكان أن أكمل دراستي، إما علاجي أو دراستي، المال مجددًا والفقر مجددًا. يا قرة عيني، لو كان الأمر افتداءً لفديتك بروحي.
- أعلم يا عليّ. ولكن اسمعني، كلانا لم نعد في كلية الطب، لا أعلم أتخلى عنا الحلم أم تخلينا عنه، ولكن استمر على ما أنت فيه، لربما يأتي يوم وتُغير أمرًا ما.
- وما الذي سيغيره ضابط في الجيش يا زينب؟
- لا أعلم، ولكن أنا على يقين يا من تحمل أجمل الأسماء "علي" أنك على صفاته أيضًا، يقيني بأنك يومًا ستغير شيئًا، وربما مصير وطن، وربما مصير عائلتك، وربما مصير هذه القرية وأهلها البسطاء.
- أيؤلمك السرطان يا زينب؟

ضحكت وقالت: "لا أتألم وأنت معي".

- لكني أتألم وسأتألم. صمتٌ وبكيت.
- عليّ، إذا تزوجت يومًا ورزقت بفتاة فهل ستسميها زينب؟

نظرت إليها والدمع في عينيَّ "ليس في هذا الكون سوى زينبتي وكفى".

مدت يدها إلى رباط شعرها وفكت عقدها، كسنابل بدأت تتناثر عند حصادها، وأعطتني إياه "خذ هذه الربطة، اجعلها معك وأعطها إلى ابنتك في المستقبل ولتكن ذكرى معك".

- يا زينب، إن الإنسان مخطئٌ حين يظن أن الذكرى بالأشياء، إنما الذكرى بوجه لا يمكن نسيانه، وابتسامة تريح فؤادًا، وإمرأة لو فات العمر كله ستبقى للجمال عنوانًا، هذه هي الذكرى يا زينب، تبقى معنا دون أن نلمسها ونحتفظ بها، بل تُحفظ في فؤادنا، خوضي معركة العلاج وسأخوض معركة الحلم، ولكنا سنخوض معركة البقاء، وشفاؤنا جميعًا بالبقاء على تراب هذا الوطن.

وطنٌ يضم قبر من نحب يستحق أن يفتدى

١٩٩٣

في العام الثالث في الكلية الحربية ونحن على مشارف التخرج، وقد أصبح حلمي الالتحاق بالحرس الجمهوري، بينما زملائي يقولون إن هذا أضغاث أحلام، فلا ينتسب للحرس إلا من كان له واسطة كبيرة أو من يدفع، لقد تلاعب الفاسدون من الضباط بأسماء الدورات السابقة، وها نحن ننتظر ماذا سيكون مصيرنا.

قبل شهر من التخرج، سمعنا أن الرائد باسل الأسد صاحب النفوذ الكبير في الجيش ويد الرئيس اليمنى، قد سمع بالتلاعب في الأسماء عند الفرز وأنه شخصيًّا سيشرف على الفرز حسب الكفاءة، وأنه أعلن حربًا على الفساد داخل المؤسسة العسكرية، سعدت بالخبر لأني واثق من نفسي والثقة مطلوبة. وعند الإعلان، تخرجت دورتنا بألفين وخمسمئة ضابط برتبة ملازم، وكنت الأول على الدفعة ولقد اختِرت من بين عشرة أسماء على رأس القائمة بالفرز إلى الحرس الجمهوري.

لم أحتفل وحدي، توجهت إلى قريتي وعلى الفور إلى منزل "زينب" وكان المرض قد نال منها، رأيتها ممددة على الفراش كوطنٍ نهش به الفساد ويحاول الصمود، مؤمنًا بابن بار سينقذه في نهاية المطاف. كانت هذه هي المرة الأولى التي أشاهد زينب فيها وطنًا ممددًا على هذا النحو، جثوت على ركبتيَّ

وقبلت جبينها "زينب، أنا الآن ملازم عليَّ من مرتبات الحرس الجمهوري" تبسمت ابتسامة كبيرة، أشعرتني بلذة النجاح، لا نجاح لرجل إن لم تبتسم له امرأة.

- أتعلم يا عليّ لو تخرجت الآن من كلية الطب لكنت الآن طبيبًا لتداويني؟ ولكنك طبيب روحي، لقد أسعدتني بهذا الخبر.

كانت تلقط أنفاسها الأخيرة "ما بالكِ يا حبيبتي تستسلمين وكأنك كنتِ في انتظار هذا اليوم، صمدتِ ثلاث سنوات، واليوم تنهارين؟".

- يا عليّ، تذكَّر، لابد أن تغير أمرًا ما، وتذكَّرني يا عليّ لأني أحببتكَ أكثر من نفسي.

- وأنا أحببتك أكثر من نفسي يا زينبتي، وهذه ربطة شعرك قد ربطتها في معصمي منذ ذاك اليوم وستبقى في يدي إلى آخر العمر.

أغلقت عينيها ونثرت رائحة طيبة من عبير وصدق كلماتها ومشاعرها، وتنفست كما الصبح إذا تنفس، أمسكت يدي ونامت بهدوء عارم.

كانت تقول "لا أبرد وأنت معي ولا أتألم وأنت معي". أتُراها أرادت أن تشعر بذلك من إمساك يدي وهي تسلم روحها؟

يا زينب أنتِ كشجرة زيتون لا تذبل، ستبقين أبد الدهر في قلبي تنمين وتثمرين. لقد أصبح هذا الوطن يتيمًا يا زينب، سأداريه بروحي، وطنٌ يضم قبر من نحب يستحق أن يفتدى، ويكفيه أنه يضم قبرك يا حلوتي الشقراء.

ودعت قريتي بقهر بعدما دفنت بيدي أجمل الأحلام، وتوجهت إلى منطقة الناعورة في قطنا بريف دمشق، للالتحاق بالحرس الجمهوري، لقد كان الالتحاق بدورات الحرس الجمهوري مختلفًا تمامًا، كان عن كل ما أخذناه

في ثلاث سنوات في الكلية الحربية، استقبلنا المدرب بالقول: "دورتكم ثلاثة أشهر من العذاب"، كانت الدورة الأولى تعليمية تثقيفية، رياضة وتدريبًا ودروسًا ومعرفة تشكيلات الحرس الجمهوري، عرفنا أن موقع قيادة الحرس في "دمر" بدمشق، وأفواجها تتوزع على القصور الرئاسية، قصر الشعب وقصر المهاجرين في دمشق، وقصر الزبداني في ريف دمشق، وقصر تشرين وقصر الشبطلية في اللاذقية، إلى جانب تشكيلات عسكرية تتبع الحرس الجمهوري، تشكيلة المدفعية والدبابات في "دمر" بموقع القيادة، ومنطقة عين الخضراء في شيباني ومعربا في ريف دمشق.

تساءلت في نفسي: لماذا كانوا يخوفوننا من دورات الحرس الجمهوري؟ إنها تبدو أسهل مما كنتُ أتوقع، ولكن كان ذلك يطرح سؤالًا آخر: كيف لمثل هذه الدورات تؤهل عناصر وضباطًا في الحرس إلى أهم القطاعات على مستوى تأمين الرئيس وقصوره ومواكبه وقطاعاته؟ فلما صارحت أحد زملائي بذلك، ضحك ضحكًا هستيريًّا.

- ما بالك يا رجل؟ أنا فقط أتساءل.
- تبًا لك يا عليّ، انتظر نصيبك، في انتظارنا عذاب لا يمكنك أن تتخيله!
- أي عذاب وكل دوراتنا على هذا النحو؟!
- انتظر دورات الصاعقة يا حبيبي ولا تستعجل.

صمتّ وهلة، لقد سمعت حقًّا عن دورات الصاعقة، يقولون ما يصدق وما لا يمكن تصديقه، سعدت بما سمعت، فهذا الجيش، وتحديدًا الحرس الجمهوري، يجب أن يُخرج أسودًا من أبطال على قدر المسؤولية، وخِفت ما ينتظرنا فبدَوتُ لا أستعجل مصيري.

ولكن على الصعيد النفسي، أنا في حاجة إلى ما هو قاسٍ ينسيني مرارة بل يلهيني قليلًا عن مراراتي في فقد زينب، لأنه لا شيء ينسيني إياها سوى الموت، الموت وحده، عندما يذكر أحدهم الموت يقولون "بعيد الشر"، لا شــر في الموت يا زينب، الموت رحمة لمن هم مثلي، والموت أرحم بكثير من العذاب والوقوف على أطلال الذكريات، فبات كل ما في هذا الوطن يذكرني بزينبتي ويؤرقني ويعذبني.

- يا رفاق، بعد أيام ستتلقَّون دورة الصاعقة مدة ثلاثة أشهر، حيث مصنع الرجال ومنبت الأبطال، وستخرجون منها أسودًا لا تهابون الموت، وستستحقون الانتماء إلى الحرس الجمهوري، أو تعودون من حيث أتيتم، هنا يهان المرء أو يكرم، والخيار لكم.

بهذه الكلمات أخبرنا المدرب عن اقتراب موعد دورة الصاعقة، إذًا، من يفشــل في الاختبار فســيطرد من الحرس الجمهوري، هكذا فهمت من المدرب. سنلتحق بالدورة دون رتبنا العسكرية، لأن المدربين يسلمون رتب صف ضابط أي أصغر منا رتبة نحن خريجي الكلية الحربية، وحتى لا يقيم أي اعتبار لنا كوننا أعلى منه رتبة، تُزال الرتب في أثناء دورة الصاعقة، ويكون رتبة المســاعد أول المدرب هو الآمر الناهي وعلى الجميع الطاعة وإلا ســيفشــل في الاختبار، هنا في الناعورة في قطنا حيث البرد لا يرحم، سـيشـاركنا التدريب الذي لا يرحم، نحن على موعد مع دورة غير اعتيادية، الجو هنا باردٌ جدًّا.

أتى اليوم "الموعد" وبدأنا نتأهب ونترقب، اقترب مني زميلي وهمس في أذني "ألم أقل لك لا تستعجل نصيبك؟" جميعنا حالقي الشعر على الصفر، يلسع البرد رؤوسنا لدرجة الشعور بالدوار. يبدأ الاجتماع الصباحي عند الساعة السابعة، ولكن الصدمة حينما علمت أن مدة النوم ساعتان فقط،

النوم عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، والاستيقاظ عند الساعة الرابعة فجرًا، وتبدأ حصة الرياضة حتى الساعة السادسة، وبعد السادسة استراحة وفطور عبارة عن "مربى وحلاوة أو بيض أو زيتون" وعند الساعة السابعة يبدأ الاجتماع الصباحي.

بدأنا بذلك، توجَّهنا إلى الساحة، كان المدرب في بانتظارنا، "مين بيعرف الجاموقة؟" ما هذه؟ نظر كلٌّ منا إلى الآخر، ولا أحد يعلم ماذا يفعل، نجيب أم لا، صمتٌ خيم على الجميع وعيوننا في الأرض. نظر المدرب إلى رؤوسنا المحلوقة ونعتنا بالحمير، وبعدها بصوت عالٍ "الآن ستتعرفون على الجاموقة". وليتنا لم نتعرف عليها. الجاموقة حفرة كبيرة وقفنا عندها وبعدها تُملأ بمياه باردة جدًّا، ولكن الصدمة أن جميع مصارف الصرف الصحي في المعسكر وُجهت إلى هذه الحفرة التي تسمى "الجاموقة" أي أننا سنغطس في مياه الصرف الصحي والباردة. يتحمل العسكري المياه الباردة، لكن الصرف الصحي؟! تساءلت: لماذا؟ وما الفكرة منها؟.

نزل أول عنصر والثاني والثالث بدأ بالاستفراغ، ضربه المدرب، وأتى دوري، وقفت أمام المدرب نظرتُ إليه وقلبي يرتجف من هذه التجربة، ولكن أنا أمام امتحان صعب للغاية، وأي إطراء سيمنحني ثقة قادتي بقدرتي على التحمل، نظر إليَّ المدرب "ماذا تنتظر يا حيوان؟ انزع القميص وانزل فقط بالبنطلون"، فعلتها ورميت نفسي بالجاموقة، وكان أول ما صدر مني "آه" من برودة المياه وبرودة الجو، صاح بي المدرب "انبطح على ظهرك"، انبطحت على ظهري وأنا أكتم ما أشعر به، المياه باردة جدًّا، والأحجار الصغيرة تجرح ظهري، ورائحة كريهة تخنق أنفاسي، أشعر بالتقيؤ ولكن أحاول الصمود، أضغط على أسناني وأتأوه بداخلي، وأحبس أنفاسي "يا إلهي! ما أجمل أيام مدرب الفتوة في مدرسة سعيد يونس في جبلة!" صاح المدرب

"انبطح على بطنك"، ماذا على بطني؟ سيغطس فمي في مياه الصرف الصحي الكريهة! بحركة عاجلة أغمضت عينيَّ وتقلبت على بطني، شعرت بحجر أو بحصاة صغيرة خدشت بطني، ولكن مئة ألم من هذا النوع وألف بردٍ ولا أتحمل هذه الرائحة الكريهة، أحاول أن أجعل رأسي مرتفعًا قليلًا، صاح المدرب "نزل رأسك يا حيوان"، نزلت رأسي. وأمرني المدرب بالتدحرج داخل الحفرة، فعلتها، يا تُرى ما شعوره وهو يتلذذ بنا هكذا؟ "وقوف يا عسكري"، وقفت مستعدًّا "خروج هيّا"، وأتى الفرج حين أمرني المدرب بالخروج، بقيت مدة دقيقة شعرت بأني منذ ولادتي في هذه الحفرة اللعينة، أشعر بدوار في رأسي ورغبة في التقيؤ، لكن لا مجال، فهذا أمرٌ مرفوض ويدل على الضعف، أتمنى أن أقف أمام المرآة لأرى نفسي بأي منظر، ولكن رأيت ذلك بعيون رفاقي من كانوا ينتظرون أدوارهم ولم ينزلوا بعد إلى الحفرة، كيف يتحاشون الوقوف جنبي تجنبًا لرائحتي الكريهة؟ اقتربت إلى زميلي الذي لم ينزل بعد وهمست في أذنه "نصيحتي إليك أن تشم رائحتي وتنفسي حتى إذا نزلت يكون الأمر لك عاديًّا". أريد ماءً لأغتسل أو يلمس جسدي فقط ولو قليلًا، رائحة لا تصدق، رائحة تجعلني لا أفكر في البرد ولا الجروح التي في ظهري وبطني.

انتهينا من الجاموقة اللعينة، وبدأنا بحلقات قتال ورياضة وركض، أركض وأركض بشراهة لعلني أنسى الرائحة أو تذهب مع أدراج الرياح، أركض وألهث والرائحة قائمة، أهرب من الرائحة وهي تلحقني، وأتت الكارثة عندما بدأت المياه تنشف على جسدي، وأصبح لوني بنيًّا غامقًا على جسدي المتسخ المقرف. ركض، قتال، رياضة. "عماد، عماد" أنادي زميلي وأنا ألهث.

- ما بك؟!
- أشعر بأني سأصاب بالإغماء!

- تحمل يا رجل قليلًا.

وهذا القليل استمر من الساعة السابعة صباحًا إلى الساعة الثالثة والنصف ظهرًا وقت استراحة الغذاء.

"قف" أمر المدرب وكان أجمل أمر، وقفت وأنا أتنهد "إلى الغذاء بسرعة".

توجهت إلى الغذاء، والغذاء عبارة عن برغل ولبن عيران، ولكنه خفيف جدًّا، يضعون "اثنين" كيلو لبن في برميل كبير ويعبئونه بالمياه، ولكنني أشرب وأشرب لأرتوي، إلى جانب تفاحة بالنسبة إلينا كنز.

بعد الغذاء دخلنا إلى قاعة، لدينا درس عسكري، وهذا أجمل ما في الدورة، وبعدها رياضة وبعدها الانتقال إلى اجتماع عبارة عن محاضرات عسكرية أيضًا وتعليمات، وعند الليل قمنا بحلقة دردشة ليلية، وعند الساعة الواحدة ليلًا نادى المدرب "قيام"، ركضنا إلى المدرب اللعين حيث يتناوبون علينا "شلح البنطلون انت واياه"، بقينا جميعًا بشورت الرياضة في هذا الجو الزمهرير وعند الساعة واحدة ليلًا، البرد ينال منا، عندما يسود الصمت قليلًا، وبوضوح نسمع أصوات الأسنان وهي تزقزق من البرد. أمرنا الضابط بقتال قريب، القتال يُحمي الجسم، ولكن عندما نلمس الأرض بأجسادنا نشعر بلسعة برد قاتلة. وعلى هذا المنوال نقضي كل الأيام. ما هذا الجحيم الذي رميت فيه نفسي؟ عند الساعة الثانية فجرًا دخلت المهجع وأنا منهك جدًّا، متعبٌ لا أفكر إلا في قليل من النوم، وأنا أضع رأسي على المخدة ناسيًا الجروح التي في جسدي والتعب والبرد الذي ينخر عظامي ناسيًا الدنيا بما فيها، أتأوه على المخدة، لا مجال للتقلب فحين وضعت رأسي على المخدة غصت في النوم على الفور، وبجملة نطقتها باللاوعي "أحبك يا زينب ولكن اعذريني لقد نسيتك، آه،آه". ما أجمل وما أطيب

النوم! بعد ساعتين فقط استيقظنا، أشعر بأن جسدي مازال ملتصقًا بالفراش ولكن قدميَّ يأخذانني إلى التدريب حيث لا رحمة ولا شفقة، وإلا فإن العقوبات العسكرية قاسية وصارمة. هنا ينسى الإنسان نفسه وأمه وأباه وحبيبته، وأحيانًا ينسى أنه إنسان إن لم يكن غالبًا. أصبحنا نفكر في الجاموقة اللعينة عند كل صباح، وأصبحت هذه الحفرة هاجسًا لنا، ترافقنا في كل الأوقات، هذا درسٌ صباحي لابد منه.

بدأنا تدريبنا المعتاد منذ الصباح، أتت الساعة المنشودة، الثانية بعد منتصف الليل، نشعر بحبٍّ شديد لهذا الوقت حتى ننام، في هذه المرة وُضعنا في خِيام، لا يهم، المهم أن نلامس الفراش حتى لو كان دون سقف، اشتد المطر الغزيز، وقبل أن نتوجه إلى الخيمة عند الساعة الثانية، ذلك الموعد الذي أسميناه موعداً غراميًّا مع النوم، صاح المدرب "تلقينا أوامر بنقل المعسكر"، تبًّا الآن؟ ركضنا إلى المدرب تحت هذه الأمطار الغزيرة حيث تنزل المياه على رؤوسنا الصلعاء، أغلق عينيَّ وأفتحهما تارة وأبزق من فمي المطر، أحاول أن أسمع المدرب اللعين. نظر إلى يمينه "أترون ذاك الجبل؟" نظر جميعنا بحركة واحدة إلى الجبل العالي، ورددنا بصوت معًا "نعم سيدي"، ابتسم الملعون "سننقل المعسكر إلى هناك، على الفور أزيلوا الخيم"، نركض نحن الثمانية معًا شركاء الخيمة التي نتشاركها، بدأنا بفك الخشب والخيم ونحن نهمس بيننا باللعنات على المدرب وعلى من أمر بنقل المخيم في هذا الوقت، وقت نومنا، أزلنا الخيمة وربطناها مع الفراش ووضعنا عليها الخشب بشكل صليبي، وعليها حقائبنا والبطانيات وحملناها فيما بيننا، وكل منا أمسك بطرف الخشبة الموزعة على شكل الصليب لنستطيع صعود الجبل، وبدأنا المسير نحو قمة الجبل، ونحن نصعد ونحارب المطر والبرد والطين الذي نغمس فيه أقدامنا، نلهث من الصعود، وعندما يشتد المطر يقل شعورنا بالبرد، ولكن للمطر أيضًا ثمنه الذي ندفعه،

فنحن نحمل خيمة كبيرة بكل ما فيها ونصعد الجبل ونقاوم الطين. وصلنا إلى قمة الجبل وكان المطر قد توقف، نظر إلينا المدرب "استراحة" وضعنا الخيم على الأرض ولم ننصبها أو ونركّبها، إنما من شدة التعب ارتمينا على الخيم، ومن نزل على الأرض للنوم، لا يهمنا لا المطر ولا البرد، يهمنا أن ننال قليلًا من النوم، للوهلة نسيت اسمي. شعرت بحركة، فتحت عينيَّ، وإذ بالمدرب يرفسني برجله "هيا استيقظ سنعود إلى المعسكر القديم".

- حاضر سيدي

فتحت عينيَّ وأول ما خطر على بالي بعد سماعي "سنعيد المعسكر"، كم لبثنا هنا؟ استيقظ الجميع، شعرت بأني نمت دهرًا، نظرت إلى الساعة وكان قد بلغ من نومنا مدة خمس وعشرين دقيقة فقط لا غير، ولكنها كانت أغلى خمس وعشرين دقيقة بل بمثابة دهر من النوم، إذًا لماذا صعدنا إلى هنا إن كانت العودة بهذه السرعة؟ همس بأذني زميلي "وهل صدقت أنها أوامر؟ المدرب يتسلى بنا فقط".

- لعنة الله عليه.

بكل الأحوال النزول أسهل بكثير من الصعود، عدنا إلى المعسكر ونصبنا الخيم من جديد وكانت الساعة قد أشرفت على الرابعة فجرًا، أتى المدرب الصباحي، ليبدأ جولته الصباحية من جديد، وبسبب تسلية المدرب الليلي فقدنا حقنا بالنوم مدة ساعتين، يجعلوننا نكره أنفسنا، الألم نفسي أكثر ما هو جسدي، حقًّا إنه العذاب. بدأنا بالتدريبات الصباحية، وأنا متعبٌ إلى حد الموت. عند الفطور الصباحي عند الساعة السادسة، هناك من لا يأكل ما يخصصه لنا الجيش من الطعام، بل يشتري أطعمة لذيذة جدًّا، ولكنني وكثيرين مثلي لا نفعل لأننا لا نملك الثمن.

أتت الأوامر بنقل المعسكر للتنقل إلى نوع آخر من التدريبات، عند الاجتماع الصباحي أخبرنا المدرب بذلك، تهامسنا "الحمد لله لا يوجد فيها الجاموقة"، ضحكنا سرًا. ولكن ما التدريب الجديد؟ تطعيم المعركة. فرحنا لها دون أن نعرف ما هي ما المعركة. أتت سيارة الزيل العسكرية لنقلنا، في الطريق أخبرنا المدرب أننا سنتوجه إلى منطقة اسمها شمسين بجانب مدينة حمص بمسافة ثلاثة وعشرين كيلو مترًا تجاه دمشق، وصلنا إلى المنطقة وكانت باردة جدًّا جدًّا جدًّا.

نزلنا وتوزعنا، وأخبرنا المدرب أننا سنتخطى هذه الحواجز مشيرًا بيده دون أن يقول لنا ما هي الخطوات، وجهت نظري إلى التدريبات، صُدمت، هل هذه تطعيم المعركة التي سعدت بها؟ يالتعاستي!

حواجز متفرقة وعند كل حاجز رجلان طويلان ضخمان يحملان سوطًا رباعيًّا، ويلبسون فقط شورتاً وحذاءً عسكريًّا، سأفقد الوعي من أشكالهم المرعبة، والسوط الذي بأيديهم. دخلنا إلى الخيم، ولبسنا الشورت والحذاء العسكري فقط، وخرجنا على الفور، وقفنا في الطابور، والذي يقف أولًا يأخذ نصيبه الأكثر من الضرب، أما من وقف في الوسط أو في الخلف يتعلم من تجارب غيره، ولحسن حظي أني وقفت في أول الدور لحماقتي. أمامي حائط عليَّ تسلقه لأنتقل إلى الجانب الثاني، صاح المدرب "هيا"، ركض أول من يقف في الدور، وبدأ السياط ينهال عليه، ونكشني المدرب "الثاني هيا" ركضت على الفور وقفزت إلى ما يمكنني إمساكه من الحبال المنسدلة من أعلى الحائط تفاديًا لأكبر عدد من ضربات السياط. اشتاط ظهري بضربة قاسية كانت ستوقعني على الأرض، ومن وقع على الأرض انهمر عليه أكبر نصيب من السياط، تحملت الضربة حتى ارتفعت قليلًا نحو أعلى الحائط بحيث لم يعد يطولني السياط، وصلت إلى أعلى الحائط وقفزت على الأرض، هناك حلقة من الإطارات المشتعلة، ركضت على الفور وقفزت من

داخل الحلقة إلى الجانب الآخر، ولم تلتقطني كل السياط إنما لمست آخر قدمي شعرت بها ولم أشعر، كان على الجانب الآخر أنبوب طويل، انبطحت على الأرض وبدأت الزحف بداخله، تلقيت ثلاث ضربات بالسياط كنت سأفقد وعيي من شدتها، هؤلاء يتلذذون بضربنا، أشك في إنسانيتهم. وأنا داخل الأنبوب أشعر بالاختناق، أزحف بسرعة للخروج، لم أعد أشعر بركبتيَّ اللتين حتمًا ينزفان دمًا من الحجارة الصغيرة والبحص داخل الأنبوب الذي يهتز يمينًا ويسارًا، خرجت منه وإذ بي أشاهد أمامي حفرة تشبه حفرة الجاموقة الكريهة، نزلت فيها وخرجت سريعًا، ولم أشعر إلا ببعض الجروح عندما لمست المياه جسدي، بعدها نزلت زاحفًا تحت الأسلاك الشائكة، الرصاص ينزل فوق رأسي أحاول تفاديه، الشخصان الواقفان عند الأسلاك الشائكة لا يحملان السياط إنما البواريد ويضربان الرصاص في اتجاهات متفرقة حول الشخص الذي يزحف تحت الأسلاك، فإن أخطأ المصوب فقدت حياتي، يالها من نهاية ستكون! أزحف بيديَّ وركبتيَّ، وإذ بشيء حاد لامس ظهري، أدركت بأنه يجب أن أبقى ملتصقًا بالأرض قدر الإمكان وإلا سأفقد حياتي، سلكٌ حديدي خدش ظهري، ألهث بجنون ولكني أحاول إنهاء هذه المرحلة بأسرع وقت ممكن، المخاطرة هنا مضاعفة، إما بطلقة طائشة أو بأسلاك شائكة تعلق في ظهري أو بسياط الجلادين عند الخروج. تلقيت رصاصة بجانب أذني كانت ستجعلني أصم، حركت نفسي إلى جنب وأغمضت عينيَّ لقوتها على أذني، وسلكٌ آخر جرح ظهري، خرجت ولم ألحق أن أسرق نفسًا لالتقاطه، حتى ركضت نحو الجولة الثانية متفاديًا الجلادين. أمامي منزل ترابي مهجور من غرفتين، ينبعث من المنزل دخانٌ كثيف، دخلت الباب ولا علم لي بالخطوات، حبست أنفاسي بشكل سريع من شدة الدخان ورائحة الإطارات الشنيعة، تسلل الدخان إلى عينيَّ وأنفاسي وبدأت أدمع، لا أستطيع حتى أن أفرك عينيَّ، أمامي ضبابٌ كثيف يحجب

الرؤية، بدأت ألحق الأصوات محاولًا ألا أصطدم بشيء، دخلت غرفة وأريد فقط الخروج لألتقط النفس، فكرت في العودة، لم أعد قادرًا على التحمل، الدخان أعماني ودموعي تعوقني، وأنفاسي محبوسة ولا أرى شيئًا أمامي. بينما أفكر في الخروج دفعني أحدهم من خلفي إلى الأمام، وقعت عيناي على بقعة ضوء بعيدة، ركضت نحوها كطفل ضائع عثر على أمه، رأيت سُلمًا أمامي يأخذني نحو الضوء، كارثة حقيقية، العناصر يصعدون فوق بعضهم حتى يصلوا إلى تلك الفتحة في آخر السقف المؤدي إلى سطح المنزل لاستنشاق بعض الهواء والأكسجين، لا أعلم كم شخصًا دهست، عندما وصلت إلى الفتحة وخرجت منها، رميت نفسي فوق السطح أحاول التنفس وبدأت أتنهد وأتنفس، شهيق وزفير، لدقائق ثمنها وجمالها في مثل هذه المواقف، نسابق العمر ونكسب حياتنا فيه.

عدنا إلى الساحة ووقفنا في الطابور، وعيوننا محمرة وبعض الدموع تنشف على الوجه، والبعض يسعل، والجميع يلهث، نسينا البرد كله، توزعنا على مجموعاتنا، وإذ بالمدرب يريد تكريمنا "هلا، صار وقت الجاموقة". غبطة في القلوب وعلى الأوجه، ولكن من يتجرأ على الاعتراض؟ نزلنا الجاموقة، وختمنا يومنا فيها وكان ختامها عنبرًا.

وقبل أن نتوجه إلى خيمنا أخبرنا المدرب "غداً عند الساعة الثانية عشرة ليلًا سنبدأ المسير، إبدأوا من الآن تحضيراتكم، انصراف". توجهنا إلى خيمنا، وقد أفادنا بعض الضباط الخريجين بالنصائح. لقد جربت المسير في الكلية الحربية، هناك المسير قصير بمسافة خمسين كيلو مترًا، وهناك مسير متوسط مئة كيلو متر، وهناك مسير طويل مئتين وخمسين كيلو مترًا سيرًا متواصلًا. بدأ الرفاق يتأففون. "المسير أفضل من هذا العذاب" أحاول طمأنتهم، كل ما أريده الآن أن أنام قليلًا، قام أحد الرفاق وتوجه إلينا بالكلام "يا شباب، المسير في دورة الصاعقة يختلف عن المسير في الكلية الحربية

التي خضتموها سابقًا"، بينما أحاول النوم أفزعني كلامه، رفعت رأسي وسألته "لا تقل لي أصعب!"، ابتسم ورد عليّ "بكل تأكيد أصعب"، أغمضت عينيَّ وتنفست في الهواء، دخل المدرب، صاح أحدهم "قيام"، وقفنا جميعًا على الفور بشكل مستقيم.

- استارح يا شباب.

أنزلنا أيدينا ووضعناها وراء ظهورنا ووقفنا بشكل عادي، وبدأ المدرب يشرح لنا.

- المسير غدًا سينطلق على مسارين، المسار الأول سيخرج الليلة إلى مدينة "ضمير" بريف دمشق ويبدأ مسيره نحو "تدمر"، والباقي أنتم ستنطلقون من هنا إلى تدمر، أي مسير ألف كيلو متر مدة عشرة أيام في الصحراء وغدًا ستنطلقون الساعة الثانية عشرة ليلًا.

نظرنا إلى بعضنا وبصوت واحد "شو؟ ألف كيلو متر؟!"

ابتسم المدرب "ستحملون معكم بنادقكم وخمسة مخازن رصاص، مع جعبهم والخوذة العسكرية، ولكل واحد بطانيتان وصيدلية فردية، أنتم ستشترونها، وإبر وخيطان، هيا استعدوا من الآن".

خرج المدرب وجميعنا يشــعر بالندم لأنه التحق بالحرس الجمهوري، يا إلهي! ألف كيلو متر مسيرًا على الأقدام بشكل متواصل، ومدة عشرة أيام في الصحراء وفي هذا الشتاء القارص؟ كيف ذلك؟!

مع باسل الأسد إلى القرداحة للقاء حافظ الأسد!

١٩٩٤

في اليوم التالي بدأنا بالتجهيزات للمسير الذي يعد من أبشع دورات الصاعقة، على العنصر أن يتكيف مع الطبيعة ويأكل منها، ويسمح بشرب الماء كل خمسة كيلو مترات، وأن يقضي حاجته في الصحراء، أمامنا عشرة أيام لنقاوم الحياة بكل معانيها ومفاهيمها، وإلا من تاه في الصحراء مات.

قُسمنا إلى مجموعات، وكل مجموعة مئة شخص، حتى نبقى مع بعضنا ولا يتفرد بنا أي من الحيوانات البرية ولا يتوه أي رفيق. لكننا أدركنا أمرًا مهمًا، على مجموعتنا السير بشكل مباشر خلف المدرب لأنه حين يأمر بالاستراحة نجلس على الفور على الأرض فمدة الاستراحة خمس دقائق فقط، ومن كان يسير آخر الطابور سيأخذ مدة طويلة حتى يسمع نداء الاستراحة وهكذا لن يأخذ من الاستراحة سوى دقيقة واحدة.

أذن الليل وبدأ الهواء الشديد البارد يلفح وجوهنا، أحمالنا ثقيلة، تجمعنا وبدأنا المسير من حمص إلى تدمر، نحن والصحراء والسماء الصافية والليل الدامس والجو البارد. كانت الساعة الأولى من السير عادية، كما الساعة الثانية، عند الساعة الثالثة من السير بدأنا نشعر بالتعب وثقل ما نحمل، وبدأت المجموعات بالتفرق والأعداد تصغر، فالذي يتعب يتباطأ بالسرعة

ويصـبح لا إراديًا متفرقًا عن المجموعات، حتى تحولت المجموعات من كل مئة شخص إلى مجموعات ما بين خمسة و عشرة أشخاص يسيرون معًا، وكنت أسـير أنا وزميلان معًا. غفوةٌ تحاول أن تسـرق تركيزي، وتعبٌ يحوم حول همتي لإضعافي، ولكن عليَّ أن أقاوم، استمر بنا المشي دون استراحة مدة خمس سـاعات حتى بدأ الفجر ينبلج، وبدأنا نفقد التركيز من التعب والنعاس، التفَّ المدرب وصـاح "قف اسـتراحة خمس دقائق"، على الفور توقفت رِجلاي عن الحركة لاإرادياً، ونزلت بجسـدي على الأرض لأصـارع وأكسـب الثواني، غفوة الثانية الواحدة تساوي ساعة من النوم في المنزل، أي قوة على المدرب حتى يكون قاسيًا هكذا؟! باتت كلمة "استراحة" تنتقل وتصدر صداها في الأرجاء حتى وصلت إلى آخر مجموعة، وكانت الاستراحة قد انقضت.

"قيام إلى الأمام سر" أمر المدرب باستكمال المسير، وبدأنا المسير، بعد ساعة كانت الشمس قد أشرقت وأطفأنا الكشافات الليلية، لكن سرعان ما سيطرت الغيوم على السماء وحلَّت بدلًا من الشمس وبدأت الأمطار. بدأت أشعر بالجوع، وصلنا إلى أرضٍ زراعية، نظرت إلى من معي محاولًا تغطيتي للوصول إلى الأرض المجاورة لربما نِلنا بعض الطعام. تسللت إلى تلك الأرض لأُفاجأ أن المزروع هو " كوسة" وما الضير؟ أنا جائع! أخذت معي عدة حبات من "الكوسة" بعد قطفها، والتحقت برفاقي، ضحكوا عليَّ "ستأكل كوسة نيئة؟" وهل هناك خيارٌ آخر؟! ضحكت "أغمضوا أعينكم يا شباب، وتخيلوا أنكم تأكلون كوسة محشوة"، ضحكنا وأكلنا كوسة بشراهة عالية، هذا هو المقصود من المسير التكيف مع الطبيعة. حل الليل مرة آخرى وكان التعب قد نال منا، ولا شيء أغلى من النوم، اتفقت مع من معي أن نبتكر طريقة للفوز بالنوم، ولكن كيف ونحن لا نستريح إلا دقائق؟ نحن بشر لماذا

يعاملوننا بهذه القسوة؟ "يا رفاق، الحل الوحيد أن ننام ونحن نسير بذات الوقت".

- وكيف ذلك؟ سألني رفيقي.
- ستمسكان ذراعيّ بينما أنا سأنام، حتى لا أتعثر وأقع على الأرض، نصف ساعة فقط، وبعدها نتبادل الأدوار.
- هذا جنون، وكيف نسير نائمين؟!
- فلنجرب.

وبالفعل وقفت في المنتصف، أمسك رفاقي ذراعي، وبعد خمس دقائق كان رأسي قد بدأ يتمايل وانخفض نحو الأسفل مستسلمًا للنوم، وقدماي تسيران. في الجيش يجب أن نبتكر كل شيء، والنوم هو شيء من محض الخيال نحلم به ولا نطوله. أشعر بتحرك قدميَّ لكن باقي أعضاء جسدي قد تعطلت، بعد نصف ساعة فتحت عينيَّ، شعرت براحة رهيبة وكأني نمتُ دهرًا.

- كيف تشعر الآن؟

- على ما يرام هههههه. جاء دورك.

وهكذا تحايلنا على النوم والتعب وسرقنا دقائق ثمينة كنا نهدرها بالسير، عند الساعة الخامسة فجرًا سمعنا صوتًا من بعيد ينادي:

- ها، ها، ها.

توقفنا جميعًا عن المسير، ونظرنا نحو مصدر الصوت، أحدهم على حماره ينادي، اقترب منا قليلًا ثم عاد من حيث أتى، استغرب المدرب من

ذلك الصوت، وظن أننا نسير في حقل ألغام، أمرنا بالذهاب إليه وجلبه، ركضنا نحوه وأتينا به، وهو ينظر إلينا باستغراب.

سأله المدرب: "لماذا كنت تنادي وبعدما توقفنا عدت إلى حمارك؟".

نظر الراعي نحونا: "رأيتكم من بعيد دون أن أميز، أظن أنكم قطيع غنم شارد!"

نظرنا إلى بعضنا وتساءل كلٌّ منا في قرارة نفسه: هل نبدو هكذا من بعيد؟، تركناه وعاد إلى قطيعه وعدنا إلى مسيرنا، وصلنا إلى منطقة "مهين" قريبة من "تدمر" على طريق دمشق حيث رأينا سكة قطار حمص، كان الظلام قد تحول إلى نور بسيط عند بزوغ الفجر، وظهر لنا من بعيد منزل في منتصف الصحراء وبجانبه شجرة ضخمة جدًّا، أضخم شجرة رأيتها في حياتي. ومع اقترابنا لاحظنا أنها شجرة تفاح، شيءٌ من الخيال هذه الشجرة لضخامتها، وكان كل جزءٍ منها يحمل أعدادًا هائلة من التفاح، لم أرَ في حياتي قط مثل ضخامة وإنتاجية هذه الشجرة، عيوننا سارت نحو الشجرة فالتفاح يعني الماء والسكريات، وهذا أهم ما يحتاج إليه الجسم عند المسير، لكن لا نستطيع التحرك إلا بإذن المدرب، خرجت امرأة من المنزل الغريب والصامت، "تفضلوا" صاحت المرأة، نظر إلينا المدرب وسمح لنا بقطف التفاح، على الفور ركضنا جميعًا نحو الشجرة وبدأنا بالتقاط وقطف التفاح وأكله على الفور، منظرنا ونحن نهرول إلى التفاح ذات المشهد حين كنا نخرج من المدرسة ذاهبين إلى المنزل، نركض ونضحك فرحين بانتهاء الدوام. بل أشبه بذاك اليوم حين ركضت بعدما رن جرس المدرسة نحو البحر للقاء زينب. هكذا بدت لي الشجرة، نقطف ونأكل ونضع في جيوبنا، فتحت قميصي وبدأت أضع التفاح فيه، وأظن أن كل واحدٍ منا قطف نحو خمسة كيلو جرامات تفاح، كانت المرأة تضحك لهول منظرنا، وكأنها أمام مجاعة أو

أشخاص لأول مرة في حياتهم يأكلون التفاح. ياله من تفاح لذيذ وكأنه العسل بحلاوته! أشعر بطاقة في جسدي. عند استكمال المسير نظرت خلفي إلى تلك الشجرة، وكأن أحدًا لم يلمسها، ولم يقطف حبة منها، أظن أنها الشجرة المباركة التي سمعت عنها في صغري.

وصلنا إلى منطقة لم أعرفها، كان هناك بعض المنازل، أمرنا المدرب باستراحة، ذهبنا إلى بعض المنازل لطلب الماء وبعض الأكل، رفضوا إعطاءنا، صُدمنا، بل باعوا لنا المياه ب بخمس عشرة ليرة سورية، والشاي ب بخمس وعشرين ليرة، اشترينا مجبرين ونحن مغتاظون منهم على هذا البخل، عندما أمرنا المدرب بالمسير، وصلنا إلى آخر منزل في هذه القرية، كانوا يضعون مياه الشرب على أسطحهم المكشوفة، أطلق عديد من الرفاق الرصاص على خزانات المياه لثقبها وأُفرغت وأتلفت كنوع من الانتقام، استغربت المنظر، مهما يكن ومها بدا من الأهالي البخل الذي أظهروه، لا يجب على العناصر أن يتصرفوا هكذا، وكأن استخدام السلاح العسكري للانتقام الشخصي، ولكن الذي أثار استغرابي أكثر عدم محاسبة هؤلاء العناصر من قبل المدرب، بل تركهم وكأنه أيدهم وشجعهم على فعل المزيد.

عرفنا من المدرب أن هذا المسير الملعون قارب على الانتهاء، وأننا قطعنا شوطًا كبيرًا من المهمة، وصلنا إلى منطقة "القريتين" القريبة من تدمر، خشيت تجاوزًا آخر بحق أهل هذه المنطقة، ولكن كان الأمر معاكسًا، نزلنا في مدرسة للاستراحة، رأيت عدة نساء أمام أحد المنازل، عزة نفسي تمنعني أن أذهب وأطلب منهم بعض الطعام، الأكل الذي معنا نفد ولا مال لديَّ لشراء أي أكل، ولكن الجوع تغلب على عزة النفس، تقدمت خجلًا وطلبت من أحد النساء بكل خجل رغيف زيت وزعتر "والله يا أخي ليس عندي، ولكنْ هناك مكدوس أتريد؟"، يا إلهي! مكدوس! هذا أطيب وأشهى. أحضرت إليَّ

خبز التنور، والمكدوس مع الشاي، وجلست على الأرض وأنهال على الأكل، بعد قليل انضم إليَّ عدد من الزملاء، لقد غمرتني هذه العائلة الفقيرة بكرم لم أر له مثيلًا. في دورة الصاعقة رأينا النجوم في كل الأوقات من الشدائد والمصاعب التي لقيناها. وصلنا أخيرًا إلى أحد القطاعات العسكرية، وأنهينا دورة الصاعقة، وبدأنا بحلقة رقص من الفرح، في الاجتماع العسكري الصباحي، وقف الضابط وقال "غدًا ستُنقلون إلى مطار دمشق الدولي لتبدؤوا تدريبات القفز المظلي، عندما سمعنا بالقفز المظلي، بلعت ريقي "إلى أي تهلكة رميت نفسي؟!"، خضتُ تدريبات في البر والصحراء والآن في الجو!

وأكمل المدرب "الذي سيشرف على تدريبكم هو العقيد هلال عيسى المرافق الشخصي للقائد الفريق الركن حافظ الأسد"، يا إلهي! المرافق الخاص للرئيس نفسه؟!

"العقيد هلال عيسى لديه ألفان وخمسمئة قفزة حرة، وشهادات من ألمانيا، وهذا يؤهله أن يكون المرافق الخاص للرئيس في الطائرة حتى يحميه ويقفز به إلى الأرض، إذا تعطلت الطائرة أو تعرضت لهجوم لا سمح الله، مدربكم هو الاكفأ في الجمهورية العربية السورية، فحاولوا التعلم منه قدر المستطاع"، بهذه الجملة ختم المدرب كلامه وعرفنا أننا أمام رجل عسكري من الطراز الخاص. مرافق الرئيس، وهل سأصبح يومًا المرافق الخاص للرئيس؟!

في صباح اليوم التالي نُقلنا بالباصات العسكرية إلى معسكر قريب من المطار حيث أُعد المخيم لاستقبالنا، وبعدها سنتوجه إلى مطار دمشق وسنُنقل بالطائرة للقفز والنزول بمنطقة "عدرا" بريف دمشق، وصلنا إلى المعسكر واستقبلنا العقيد هلال عيسى، أنظر إليه باحترام شديد، وأتفحصه

من رجله حتى رأسه، وأنظر إلى جسده وبنيته لأعرف ما المواصفات التي تؤهل الإنسان أن يكون مرافقًا خاصًا للرئيس، وأي رئيس! حافظ الأسد! رحب بنا وطلب منا الاستعداد لصباح الغد للبدء بالقفز المظلي.

استيقظنا وبدأنا بالتجهيز لدورة القفز المظلي بعد ساعتين، أفكر: كيف سأقفز؟ وهل سأنجو أم سأرتطم بالأرض وأتحطم؟ يا للهول! بم ستنفعني شخصية عسكرية بحجم العقيد هلال وخبرته الكبيرة إن لم أنجح؟ عليَّ فتح المظلة قبل الوصول إلى الأرض بثلاثمئة وخمسين مترًا، كيف سأقيس وأنا أتطاير في الهواء؟ وهل سأصبر قبل أن أصل إلى هذه المسافة؟ لماذا لا أفتح المظلة في أثناء القفز فورًا؟ ولماذا عليَّ الانتظار حتى أصل إلى هذه المسافة من الأرض؟ أسئلة تحيرني، أشعر بالخوف، فهذه التجربة مختلفة تمامًا عما أخذته وخبرته منذ انضمامي إلى الجيش، هنا سأموت على الفور بمجرد خطأ بسيط، وأي موت هذا أن يقع الإنسان من الطائرة؟! ما تزال الأسئلة تراودني وتزاحمني في عقلي ونفسي، أحاول التغلب على الخوف بأي شكل، لقد نجحت في كل الاختبارات ولن أتوقف عند هذه النقطة.

ونحن في الخيمة سمعنا صوتًا ينادي "اجتماع، اجتماع، اجتماع"، لماذا ينادوننا إلى اجتماع، ومازال على الانطلاق ساعتان؟ ربما يريد قائد الدورة أن يعطينا بعض الإرشادات، هذا المفروض، وربما هذه الإرشادات تقلل من مخاوفي. ولكن أخشى ما أخشاه أن يضرب لنا أمثلة مملة أو فاشلة تزيد من مخاوفي وعن تجارب ضباط لم يمتثلوا أو يتخذوا بالإرشادات وهلكوا نتيجة ذلك.. سيكون ذلك خطوة حمقاء من العقيد إن فعلها.

ركضنا إلى الساحة ووقفنا في الطابور العاجل، وجميع الضباط الذين سيخوضون هذه التجربة بالقفز المظلي المكون من سبعة وثمانين ضابطًا برتبة ملازم وأنا منهم قد اجتمعنا في الساحة، ولكن كما هي العادة نحن دون

رتب حتى ننتهي من كل الدورات، يقف المدرب وينظر إلينا حتى اختفى الصوت تمامًا ووقف الجميع في مكانه على شكل طوابير عسكرية مصطفة، الجميع واقف بشكل مستقيم وأيدينا ملتصقة بأقدامنا، ورؤوسنا مرفوعة، وظهورنا مشدودة. إنها الوقفة العسكرية.

خرج إلينا وأخيرًا قائد الدورة العقيد هلال عيسى، كان أحمر الوجه، شاحب الملامح، الغضب في عينيه يقدح شرارًا. تُراه لماذا يبدو كذلك؟ هل هو خائف مثلنا؟! يا للهول! إن كان هذا منظر قائد الدورة وصاحب ألفين وخمسمئة قفزة حرة، فعلى أي نحو يجب أن نكون في تجربتنا الأولى؟!

- يا رفاق، ستأتي الآن باصاتكم لنقلكم، على الجميع الانصياع للأوامر والالتزام العسكري التام. بهذه الجملة الوحيدة أنهى العقيد كلامه وتوجه إلى سيارته.

- هل هذا كل ما أراد قوله قبل ساعتين من بدء القفز؟ أين الإرشادات؟! قلتها في نفسي.

- الجميع إلى الباصات هيّا. صاح المدرب.

ركبنا الباصات وبدأ الزملاء يتهامسون ويتبادلون الأحاديث، ولكن أفاجأ بأن الباصات غيرت وجهتها من طريق المطار إلى دمشق!

- يا شباب، إلى أين نتوجه؟ هذا طريق دمشق، المطار أصبح خلفنا. تساءل أحد الزملاء، ولكن لا أحد يعرف، ننظر إلى بعضنا، ونجهل ما الذي يحدث!

بعد نصف ساعة دخلنا حي القابون الدمشقي، ودخلنا إلى قطعة عسكرية "ما هذا؟ مراسم؟!"، جميعنا استغرب ونحن ندخل فوج المراسم الرئاسية التي يرأسها ذو الهمة شاليش المسؤول عن المراسم الرئاسية. صعد

ضابط إلى الباص "يا رفاق، سيُوزَّع السلاح عليكم الآن، احفظوا أسلحتكم وهي في عهدتكم إلى أن تسلموها".

"عفوًا سيدي ممكن سؤال؟". نادى أحد الزملاء. تجاهله الضابط ونزل. جميعنا يعرف ماذا سيسأل، ولماذا السلاح، ولماذا نحن هنا، ولماذا لسنا في مطار دمشق، ولكن لا إجابات!

وُزِّعت علينا الأسـلحة، رشـاشـات روسـية، وجعب وخوذ عسـكرية، وصدرية، ولكن دون مخازن!

- لك عماد، لماذا السلاح؟ ولماذا الخوذ العسكرية؟ ولماذا دون المخازن؟ ما الذي يجري؟ سألت زميلي الذي يجلس بجانبي.
- وما أدراني يا عليَّ؟!

قمتُ واقفًا "يا شباب، هل لدى أحدٌ منكم أي توضيح؟"، الجميع يهز رأسه بالنفي. تحركت الباصات، والجميع ينظر من النوافذ لنراقب الطريق حتى نعرف وجهتنا وما يحدث، إن كانت الخطة قد تغيرت فعليهم إبلاغنا حتى نتخلص من هذه الحيرة التي تقيدنا وتكبس على أنفاسنا. وصلت الباصات على الأوتوستراد الدولي. نحن نخرج من دمشق كلها، انعطف السائق يمينًا وجميع الباصات التي أمامنا وخلفنا.

"يا شباب، هذه تحويلة حمص!" صاح زميلٌ من حمص. كلنا من خلال النوافذ نراقب، وكل من عرف معلومة يقولها، ونتساعد فطريًّا لفهم ما يجري، لقد عرفت الطريق الآن، أنا خير من يعرف، أردد هذه الجملة، وقفت "يا شباب، هذا طريق طرطوس - اللاذقية". إلى أين نحن ذاهبون تحديدًا؟ تمر الباصات بسرعة هائلة بينما أنا أتلذذ بالطريق الجميل، رغم الحيرة التي أنا فيها، الطريق من أجمل الطرق الدولية في سوريا، منظر الأشجار والغابات

تأخذني إلى قريتي "الشراشير" فهذا الجمال من ذاك وكلها بقعة جغرافية ممتدة، بدأت أشتَمَّ رائحة أهلي وقريتي، أخرجت رأسي من النافذة وسحبت بعض الهواء إلى أنفاسي وأغلقت عينيَّ "آه، ما أجمل هذا الشعور!".

- يا شباب، استعدوا، نحن على الوصول لدخول قصر "الشبطلية" هذا أحد القصور الرئاسية. قالها المدرب الجالس بجانب السائق.
- ماذا؟ نطقها كل من في الباص.

احمرت عيناي وربما جميعنا، بدأنا ننظر إلى بعضنا، هل أصبحنا من حرس الرئيس؟!

- عماد، هل سنكون حرس الرئيس؟ أقولها مبتسمًا.

عماد بابتسامة أعرض من ابتسامتي: وهل يعقل؟!

- لِمَ لا وكل هذه التدريبات التي أخذناها طوال الســـنوات الســـابقة والصاعقة، والسلاح الذي معنا، والقصر ها هو أمامنا؟!
- لا أعلم ولكن يبدو كذلك. الجميع ابتسم.

نزلنا من الباصات وطُلب منا الاجتماع في ساحة القصر، الباب الخارجي ضخمٌ ويبدو القصر أضخم من الداخل، ساحته كبيرة، من كلا الجانبين الأشجار تغطي الأسوار التي خلفنا.

- هل الرئيس هنا؟ هل سنراه؟ من تُراه يقيم هنا؟من المسؤولون أو من عائلة الرئيس؟ أتساءل وكلي شغف وحماسة.
- إصبر دقائق وستعرف كل شيء وسيُجاب عن كل أسئلتنا. قالها لي عماد المبتسم.
- اصمت ها هو العقيد هلال عيسى يخرج. قلتها لعماد.

- استاعد. صاح المدرب، سُتوزَّع الذخيرة عليكم، الزموا الصف.

الجميع مستغرب، ولكن إن كنا سنتولى حراسة القصر فلا بد من الذخيرة. وُزِّعت وكان العصر قد حلَّ ونحن على وشك الغروب، نقف جميعًا في استعداد كامل وعيوننا تراقب شفاه العقيد الشاحب.

- استارح. قالها العقيد

أعدنا أيدينا خلف ظهورنا وأرخينا أجسادنا وأملينا مسامعنا.

- اليوم يومٌ أسود في تاريخ سوريا. نطق العقيد.

ذهل الجميع، أي يومٌ أسود؟! نحن في الجيش ومررنا بعدة قطاعات عسكرية ولم نسمع أي شيء، أعرنا مسامعنا.

- فقدنا اليوم أبًا وأخًا وصديقًا، قالها العقيد بغصة.

لا أريد نطقها حتى في قرارة نفسي، ولكن هل مات الرئيس؟ منذ نعومة أظافري في "الشراشير" وفي المدرسة وفي الشبيبة وطلائع البعث، ودورات الحزب وفي الجيش ونحن نسمع أن حافظ الأسد هو الأب والأخ والصديق والقائد. لم أسمع هذه الصفات تُطَلق على غيره. أتذكر أول يوم لي في مدرسة سعيد يونس، حيت رأيت صورته وتمعنت فيه عام ١٩٨٦، وتذكرت حين عرفت أن قرية الرئيس قريبة من قريتي، وأن الطريق الذي سلكه نحو المدينة، سلكته، إنه من دحر الإسرائيليين في حرب تشرين التحريرية، حلمت طوال خدمتي أن ألتحق بمرافقته لأفتديه بروحي وحين وصلت إلى قصره مات! تغيرت ملامح وجهي وشعرتُ بغصة كبيرة.

العقيد: "لقد فقدنا صباح اليوم الجمعة الرائد المظلي باسل الأسد في حادث سير مؤلم على طريق مطار دمشق".

صمتٌ خيم على المكان، كيف ذلك؟ كنا هناك صباحًا، لم نرَ ولم نسمع! يا لفجيعة الرئيس في ابنه الثلاثيني! فقد يده اليمنى. انفجر الجميع بالبكاء.

العقيد: "يا رفاق، نحن نمر بظرفٍ حاسم، وأنتم هنا لأنكم ستكونون ضمن الحرس الذي سيؤمن الحماية في أثناء استقبال المعزّين في القرداحة عرين القائد الأسد".

دخلت باصات "دايو" النادرة في سوريا، وهي باصاتٌ كبيرة وحديثة لم تستخدم في سوريا إلا الآن. بدأ الظلام يحل، ركبنا الباصات وانقلبت فرحتنا الكبيرة وآمالنا أننا أصبحنا من حرس الرئيس، إلى حزنٍ أكبر بفجيعة الرئيس في ابنه، توجهت الباصات إلى مدينة اللاذقية، أسندت رأسي إلى النافذة ولا أرى شيئًا من الطريق بينما أتذكر باسل الأسد الذي رأيته عدة مرات. لقد كان مهتمًّا بالجيش، وكان الرئيس يُعِدّه لخلافته، حتى إننا سمعنا أنه شن حملة واسعة على الضباط الفاسدين والنافذين في الجيش، وأنا أعرف هذا الفساد، حتى إنه كان سببًا في التحاق دورتنا بالحرس الجمهوري على حسب الكفاءة على المحسوبيات، أتراهم قتلوه؟! لربما الزمن يجيب عن حقيقة ما حدث.

قبل أشهر رأيته في ساحة تشرين، أتذكر كان هناك عرض واستعراض، كان هناك أعداد هائلة من الضباط والمسؤولين لحضور العرض العسكري، أتى الرائد الركن باسل الأسد بصفته قائد "لواء ١٠٥" حرس جمهوري، وبنيابة عن الرئيس، دخل بسيارته الفخمة السوداء "مرسيدس ٥٠٠" برفقة اللواء عدنان مخلوف قائد الحرس الجمهوري، وعند نزوله مع اللواء، تقدم قائد العرض نحو باسل الأسد لتقديم العرض إليه، على الفور تدارك باسل الأمر وأشار إلى العميد قائد العرض بالتقديم إلى اللواء كونه أعلى رتبة من باسل، حاز احترام اللواء والضباط، وبرهن إلمامه بالترتيبات والبروتوكولات العسكرية.

أعود إلى الواقع الذي فرض نفسه، كنا قد دخلنا مدينة اللاذقية دون أن أشعر بذلك، وقفت الباصات أمام نادي الضباط في الميناء البحري بعد تفريغه من النزلاء، ووُزِّعنا كل شخصين في غرفة، أخبرنا العقيد أن كل ما نطلبه متاح على حساب الرئاسة. هنا الخدمة "خَمَسْ نجوم"، الزملاء يطلبون مالذ وطاب، وكنا قبل أيام لا نجد ما نأكله، بل كنا نتضور جوعًا في الصحراء وطوال الخدمة.

- ماذا ســتأكل؟، ما رأيك في الســمك؟ قالها زميلي عماد وشــريكي في الغرفة.
- أتعرف؟ من جهة لا شهية لديَّ حزنًا، ومن جهة أريد أن آكل كل شيء لتعويض ما فاتنا من طاقة وتعب، وغدًا أيضًا أمامنا يومٌ شاق.
- يا رجل، كُل ما تشتهي واطلب، واترك كل شيء خلف ظهرك. صدقني هذه الفرصة لن تُعوض، قبل أن نعود إلى البرغل واللبن. مازحني عماد وهو جادٌّ في ما قاله.

ذهب عماد لطلب الأكل والفواكه والمشـــروبات لنا، بينما أجلس على شرفة النافذة أسمع أصوات موج البحر. أسمع أصوات وضحك وسمر ولمز زملائي وأســتغرب ســعادتهم بما هم فيه، وإن كنت أفهمهم جيدًا، ولكن ألم يكونوا قبل ســاعات يبكون بحرقة على باســل الأســد؟! إنهم ينتقمون من الحرمان الذي كانوا فيه، ورُبَّ ضارة للغير نافعة لنا.

أكلت بشراهة غير معتادة، عوضت أشهرًا وسنواتٍ من الجوع، وأنا على يقين أن هذه الفرصة لن تُعَوَّض، أن أكون ضيفًا على هذا المكان الذي لم أحلم يومًا أن أدخله، وعلى حساب الرئيس ذاته، فهذا المكان مخصص لعوائل علية القوم وللضباط المرموقين والفاسدين، لا لأبناء الفقراء من أمثالنا.

جلست عند النافذة وسألت عماد "أتُراهم قتلوه هؤلاء الضباط الفاسدون النافذون؟".

صُدم عماد من سؤالي "وما شأنك أنت؟ اخفض صوتك يا رجل، الوضع لا يحتمل، ولا تذهب بجريرة جرأتك، إن قتلوه فماذا ستفعل؟!".

- كيف ذاك؟! إن قتلوه فلابد من انتقام!

انفجر عماد بالضحك "وأنت ستنتقم؟! هل نسيت أن الذي تتكلم عنه يكون ابن الرئيس؟ وإن ثبت ما تقول فسيقتص الرئيس من رقاب المتورطين، وسنكون نحن السيف وباقي الأجهزة".

هو على حق، فالرئيس لا يتهاون مع خصومه، مهما كانوا ومن كانوا.

عند الساعة الرابعة فجرًا كان قائد الدورة العقيد هلال عيسى حاضرًا، وطلب منا الركوب في الباصات للتوجه إلى القرداحة، هذه هي المرة الأولى التي سأدخل فيها القرداحة، سلكنا تلك الدروب التي سلكتها سابقًا ولكن مشيًا على الأقدام مع زينب وجميل وباقي الأصدقاء، كنت أحزن على زينب من ذاك المسير المتعب، كم وددت أن أستطيع جلب أي مركب تركبه لأحمل عنها التعب، ولكن كان الحال من المحال، وها أنا اليوم أركب أحدث وأندر الباصات في سوريا، أسير على الطريق ذاته، ما أغرب التاريخ!

انتشر الجيش على الطريق، دخلنا مدخل القرداحة، بدأ بعض الناس الخروج والوقوف على الطرقات، وصلنا عند جامع نزلنا عدة أشخاص وطُلب منَّا حماية الجامع وعدم السماح لأي أحد بالدخول. جامع ناعسة، والدة الرئيس، ولكني لم أكن أعلم أن حظي عاثر، مع بزوغ الشمس واشتدادها كان الناس يتدفقون أفواجًا إلى محيط الجامع، على رأسي خوذتي العسكرية وعلى

كتفي سلاحي الرشاش، وعلى بطني وصدري جعبتي العسكرية وفيها خمسة مخازن من الرصاص. نتدافع نحن والناس ولا أفهم لماذا يأتون إلى هنا!

صاح أحدهم "وصل موكب الرئيس"، ماذا؟ الرئيس شخصيًّا؟ يا إلهي! كيف سيكون شكله؟ هذه هي المرة الأولى التي سأراه فيها، لابد أنه سيكون في قمة غضبه، وعلى خطأ مني ربما يصفعني أمام الناس، بدأنا نمنع الناس التقدم، خوذتي تميل من فوق رأسي، أحاول إصلاحها ولا أريد أن أظهر أمام الرئيس بمنظر الأهبل، وقفت خمس سيارات "مرسيدس ٥٠٠" الرئاسية، ونزل بعض الأشخاص وعيناي تنتقلان من باب إلى آخر، أنتظر نزول الرئيس، ولكن الذين نزلوا لم أرَهم من قبل، وتحركت السيارات. ما هذا؟ ومن هؤلاء؟ وعادت الكَرَّة مرة واثنين وثلاثًا، صمدت أعلى الدرج أنا وأربعة من زملائي، وأعطينا ظهورنا لباب الجامع، ووجوهنا نحو الناس لمنع أي متسلل قد يفلت ويركض نحو الباب بعدما عرفنا أن الرئيس سيأتي مع ضيوفه للصلاة في الجامع، وعرفنا أن هذه السيارات للتمويه، ومن ينزلون هم الحرس الخاص بالرئيس، بينما أنا منشغلٌ بلقاء الرئيس لأول مرة ومنع الناس الوصول إليه وتأمين المحيط، لكنَّ عينيَّ كانتا تنخطفان نحو الحرس الخاص، بألبستهم ونظاراتهم السوداء وقمصانهم البيضاء ووجوههم الشاحبة، كيف يُختار حرس الرئيس؟ ومن يختارهم؟ وما الأسس والآليات؟ تلك أسئلة تحيرني منذ زمن، أريد أن ألتحق بهم لمرافقة الرئيس، عرفت في الكلية الحربية أن اختيار الحرس يكون بدقة عالية ومن عوائل معينة، أي لا تحلم يا عليّ. بعض العوائل تسيطر على القصر ولا يسمحون بدخول أحد من خارج هذه الدائرة، الأمر يعيدني إلى الفساد والمحسوبيات.

رأيت مرافقًا هزيلًا، كيف لهذا أن يكون من حرس الرئيس؟ أنا أقوى منه بنية وقوة، ولكن واسطته على ما يبدو قوية جدًّا.

أشعر بحركة غريبة من خلفي، ولكن خلفي باب مغلق، نظرت وإذ بالباب يتحرك وكأن أحدهم خلف الباب، نظرتُ إلى عماد لا نعرف ماذا نفعل، الناس من أمامنا أممٌ. فتحت طرف الباب لأتأكد، وإذا بأعداد وسيلٌ من البشر يدفعون الباب، ارتطم طرف الباب برأسي، أشعر بألم شديد، دمعت عيني اليمنى من شدة الضربة، ولكن تعلمنا أن نتغلب على الألم، ركض زملائي نحوي، وأعطينا ظهورنا للسيل الهائل من البشر لمنعهم الخروج، الرئيس سيصل في أي وقت، ويجب أن يكون الطريق أمامه سالكًا، ولكن هؤلاء كيف دخلوا الجامع؟!

لكن أعدادهم الكبيرة غلبت قوتنا وبأسنا، حتى دفع أحدهم "عماد" ووقع مرميًّا على وجهه، نظرت خلفي لضرب من فعلها، وإذا بخمسة أشخاص ضخام يركضون ويصيحون "افتحوا الباب بسرعة" وقعت عيناي على الرئيس حافظ الأسد يتوسط مجموعة ويسير ببطء داخل الجامع، صُدمت: كيف دخل الرئيس؟!

فتحنا الطريق ووقفنا على جانبي الباب، مر الرئيس من أمامي، ووجهه شاحب وعلى يمينه ياسر عرفات الزعيم الفلسطيني بكوفيته البيضاء وبدلته العسكرية، الذي عرف بحربه ضد الإسرائيليين، وكان على يسار الرئيس حسني مبارك الرئيس المصري، في يوم واحد أشاهد ثلاث رؤساء؟! شعرت بحزن الرئيس ورأسه نحو الأرض، حاجباه تطبقان على عينيه، شعرت برهبة شديدة، وقفت بيننا أعدادٌ هائلة من الحرس، مر الرئيس وضيوفه وحراسهم، والسؤال: كيف دخل الرئيس؟ عندما مر، مررت رأسي نحو الجامع ورأيت من بعيد بابًا آخر، أدركت أن المواكب المزيفة التي وقفت كانت تموه على الموكب الحقيقي الذي دخل من الباب الآخر، ولكن أين عماد؟! لقد غطت

أصوات الناس على نداءات عماد الذي دُهس من الناس ومن الوقوع الشديد، هرعت إليه، بعض الدماء قد غطت وجهه وعلى وجهه خدوش أرجل.

- عليَّ، الألم ذبحني. يكاد ينطقها.

هرعت نحو أحد الضباط وأخبرته بإصابة عماد، أُسْعِفَ، بينما عدت أنا إلى موقعي الذي فرغ من الناس، صفنت دقيقة "لقد رأيت الرئيس شخصيًّا"، من سيصدقني في "الشراشير" أني رأيت الرئيس والرئيس المصري والفلسطيني؟! بكل تأكيد سيكذبونني.

وقف باص أمام الجامع وكنا فقط أربعة أشخاص، طُلب منا الركوب، ركبنا الباص وخرجنا من المنطقة، ظننت أن مهمتنا انتهت. ولكن صعد الباص تلة جرداء بالكامل، الطريق ترابي وغير معبد، وصلنا إلى أعلى التلة ونزلنا من الباص، فوجئت بأني أمام قبر، إنه قبر باسل، وُضعنا حُرَّاسًا للقبر وتوزعنا على مسافة قريبة بشكل دائري حول القبر، كانت مراسم الدفن قد انتهت وغادر جميع الضيوف، من فوق هذه التلة أشاهد القرداحة، لربما كان عاشقًا لقريته حتى دُفن على هذه التلة المطلة على كل القرداحة، عرفنا حراستنا لأن التلة غير مهيئة ويمكن أي شخص الصعود، أنظر إلى القبر ودموعٌ تنزل من عينيَّ، ترابٌ أحمر مبلول، على ما يبدو أنه دُفن قبل وصولنا بقليل، طوبتان واحدة عند الرأس والأخرى عند قدمه، ولا شيء، باسل الأسد ابن الرئيس، وأحد أمهر راكبي الخيل، وصاحب صولات وجولات لا تُعَد، وصاحب يد طولى في كل سوريا، الذي إذا أمر نُفِّذ بل كانت أحرفه البسيطة أوامر يجب أن تُنَفَّذ، تحت هذا التراب وهذا القبر البسيط وعلى هذه التلة الجرداء بشكل كامل، وعددٌ يحرسون قبره من حيوانٍ شارد ينبشه، بكيت لغرابة الزمن، من كان يظن أن فارس سوريا سيلقى هذا المصير؟! ضباطٌ

بأعلى الرتب وأقوى المسؤولين كانوا يقفون أمامه برعب وهم يرتجفون.. أتُراهم قتلوك؟!

وصل باصٌ آخر عند المغيب، وكان الظلام قد حل على التلة، الظلام أصبح صديقي في خدمتي في الجيش، نزلت عناصر وطُلب منا الركوب، أخذوا أماكننا واقتِدنا إلى نادي الضباط، وصلت منهكًا، هرعت إلى الضابط المسؤول لأسأل عن زميلي عماد، "لقد كسرت عظمة في رقبته نتيجة ارتطام شديد وهو الآن في المستشفى العسكري في اللاذقية"، أجابني الضابط، حزنت على عماد، ولكن سيتلقى العلاج ويأخذ فترة نقاهة عسكرية، راجيًا ألا يؤثر ذلك على مستقبله إذا ترك ذلك فستحدث له إعاقة مستديمة.

طلبت الأكل وهرعت إلى النوم، هنا ثمن التعب نومٌ عميق تحت سقفٍ بغرفة مكيفة، وعلى فراش جميل طري، لا في خيمة أو في الصحراء، شعرت بالفرق الشديد، وعرفت لماذا الضباط فاسدون وينهبون ويستغلون حتى يعيشوا بهذه النعم الوفيرة.

أستيقظ عند الساعة الرابعة فجرًا بكامل نشاطي بعد نومٍ عميق ومريح، وأُخذنا مرة أخرى إلى تلك التلة الجرداء، عرفت من الطريق، عدنا إلى قبر باسل الأسد، وكان المنظر من فوق التلة جميلًا عند انبلاج الفجر، أشعر بنسمة باردة جدًّا، أضع يدي في جيبي لأحصل على بعض الدفء، ويفعل كذلك باقي الزملاء، لا أحد هنا يتكلم، حتى في موته يفرض حضوره، وكأنه بيننا ونهاب الكلام في حضرته، أشعر ببعض البرد، أُلهي نفسي بالسير ذهابًا وإيابًا لتفادي البرد، عند الساعة السابعة صباحًا، رأيت أسفل التلة عدة سيارات سوداء رئاسية تصعد التلة، عدت على الفور إلى موقعي، وأخرجت يدي ووقفت مستعدًا.

- "كل شخص في موقعه بسرعة". صاح الضابط.

وقف موكب من السيارات، وأتساءل في نفسي إن كان الرئيس قد أتى، سيارات مرسيدس ٦٠٠، لا يركبها إلا الرئيس وعائلته فقط. نزل شخص يرتدي نظارة سوداء بلباس عسكري وعلى كتفه ثلاثة نجوم، عندما استدار عرفته، إنه النقيب ماهر الأسد، التف إلى الطرف الثاني ونزل الحرس وفتح الباب ونزلت سيدة تلبس رداءً أسودً من الفرو، تلبس نظارة سوداء، وعلامات الحزن على ملامحها، إنها زوجة الرئيس أنيسة مخلوف، في هذين اليومين رأيت رؤساء وكبار المسؤولين والضباط وعائلة الرئيس. وقفنا في استعداد وسط صمت مريب، وعيناي تسيران مع السيدة أنيسة، اقتربَتْ من القبر وقفت لثانية واحدة، ونزلت على ركبتيها، ووضعَتْ وجهها على التراب، ابتلع معظمنا ريقه من هول المشهد، هل يصح للسيدة الأولى أن تتصرف هكذا؟ لكن أمومتها فرضت نفسها على مكانتها. ولكن على الفور تقدم أحدهم وأمسك بيدها محاولًا مساعدتها على الوقوف، وإذ بالنقيب ماهر الأسد يدفع ذاك الرجل على الأرض أمام الجميع ويصيح به عاليًا "كيف تتجرأ أن تلمس السيدة الأولى؟"، في الوقت الذي لم تتحرك أنيسة بأي حركة وبقي وجهها على التراب، نهض الرجل وصاح بماهر "وهل ترى أن ذلك يليق بالسيدة الأولى أمام هؤلاء العناصر؟"، رد عليه ماهر بصوت عالٍ "هذا ليس من شأنك". جميعنا يرتجف وسط هذا السجال بين الطرفين، وكلنا في استغراب، مَن هذا الذي يرفع صوته في وجه ماهر الأسد؟ وكيف يتجرأ؟ أنا حتى لا أتجرأ بالنظر إليه.

اشتاط ماهر الأسد غاضبًا، وصاح بصوت عالٍ "عد إلى دمشق على الفور"، رد عليه "أنا لا أتلقى الأوامر منك"، تعالت الأصوات واحتدوا في السجال، وكانت أنيسة مخلوف في عالم آخر، ونحن متعجبون من هذا

الرجل الذي يتحدى ماهر الأسد بهذه الطريقة. وعلى رفع الأصوات وصل اللواء عدنان مخلوف قائد الحرس الجمهوري، صاح "ماهر، ماذا هناك؟".

- سيادة اللواء، من هذا حتى يتجرأ أن يلمس السيدة الأولى؟!

عدنان مخلوف: نقيب مازن ليلى، ما الذي حصل؟

إذًا هو نقيب، ولكن مهما يكن كيف يرد على ماهر الأسد؟!

مازن: سيادة اللواء، كل ما هنالك أني حاولتُ رفع سيدة أنيسة من الأرض، لا يليق بها هذا المنظر ولا بمكانتها أمام الناس.

ماهر: انقلع من هون.

تحرك النقيب للرد، ولكن اللواء عدنان مخلوف أمسك يده: "نقيب مازن، اذهب من هنا الآن".

"حاضر سيدي" رد الرجل بهدوء وانصاع لأمر اللواء، ونظر إلى ماهر وذهب بعيدًا.

نظر اللواء إلى ماهر "تصرفك أرعن يا ماهر"، وتوجه نحو أنيسة وأشار بيده إلى ماهر حتى لا يرد، وهمس في أذن أنيسة، التي كانت في عالم آخر، وكان ظاهرًا عليها لوعتها على فقد باسل، أتُرى يبكي الرئيس في عزلته، ويُبدي حزنًا كما أبدته زوجته ولكن أمام الناس؟ هل يبكي حافظ الأسد؟!

قامت أنيسة ووقفت مع وصول سيارة فيها عدة قراء من قارئي القرآن الكريم، ومشايخ دمشق الذين كنت أراهم على التلفاز، وبدأوا بقراءة سورة [يس].

في هذا المكان ومثله من الأمكنة التي يتردد عليها المسؤولون والصف الأول من الدولة، يرى ويسمع الإنسان منا العجائب، وربما يسمع أسرارًا، ذهبت أنيسة ومعها ماهر واللواء عدنان، وعاد النقيب "مازن ليلى" الذي عرفت أنه من الحرس الرئاسي في قصر الشعب في دمشق، ومن العوائل التي تسيطر على القصر، كان الجو مشحونًا، وقف النقيب عند القبر وظهر له، سمعت صوت ولاعته وهو يشعل سيجارته، اقترب منه أحد الضباط وتساءل متعجبًا عن موقف ماهر بهذا الشكل.

"أنا أعرف ما به، الأجواء داخل العائلة مشحونة، قسم يريد تهيئة ماهر لخلافة الرئيس وقسم يرد الدكتور "بشار"، والسيدة أنيسة مُصِرَّة على الدكتور "بشار" لأنه الأكبر بعد الشهيد باسل" رد النقيب.

أسمع أنَّ للرئيس ابنًا لكنه ليس بعسكري مثل ماهر وباسل، إنما اختار عالمٍا آخر ويقيم في بريطانيا، إذًا بشار سيكون خليفة والده!

عدنا إلى نادي الضباط، وحدث نقاش طويل حول ما حدث بين ابن الرئيس والنقيب، والكل مستغربٌ ذلك، هل إلى هذه الدرجة هناك عوائل نافذة في الدولة لدرجة الرد بصوتٍ عالٍ على ابن الرئيس ولا ينصاع للأوامر، في حياتنا العسكرية قاعدة مهمة، أن أي رفض لأي أمر عسكري يعرض صاحبه لعواقب وخيمة، "نفِّذ ثم اعترض"، أسئلة كبيرة على أشخاص مثلنا حديثي العهد في تركيبة وهيكلية النظام الحاكم في سوريا على رغم معرفتنا بأمور مهمة، ولكن منذ صغرنا نعرف أيضًا مدى قوة الرئيس وأبنائه ومدى نفوذهم، وأن لا أحد يضاهيهم بالنفوذ، وكان ذلك جليًا في الخلاف الذي نشب بين الرئيس وأخيه "رفعت" قائد سرايا الدفاع، الذي هُزم شر هزيمة أمام الرئيس ونُفِي خارج البلاد.

عند صباح اليوم الثالث استيقظنا، واختِرت مع عدد من الزملاء لتأمين حماية ابن الرئيس الذي وصل ليلة أمس إلى القرداحة، الدكتور بشار الأسد قادمًا من بريطانيا، إذًا وصل، وأخشى أن يحتد الخلاف بين العائلة وتنقلب الظروف في سوريا، وكأننا على موعدٍ سيقلب موازين القوى، إنها مرحلة حساسة من تاريخ سورية، هكذا تبدو الأمور.

وصلنا إلى خيمة العزاء الذي نُصب عند جامع "ناعسة" ونزل الدكتور بشار الأسد، شابٌ طويل القامة، شعره كثيف، يلبس بدلة سماوية، حديث العهد، يبلغ الثامنة والعشرين من العمر، بدا لي للوهلة الأولى أنه حقًّا خارج عالم أبيه وإخوته، وأنه متأثر بالحياة الأوروبية، وإلا كيف لشخص في عزاء أخيه أن يلبس بدلة سماوية في الوقت الذي تلبس فيه سوريا كلها الرداء الأسود؟!

وقفنا حوله وشكلنا دائرة أمنية، تهافت الناس عليه وبدأوا بالهتاف "بالروح بالدم نفديك يا بشار"، إذًا اتخذت العائلة القرار، ولكن كيف ستكون ردة فعل ماهر؟!، نتدافع نحن والجماهير "يا شباب، اتركوهم"، أمرنا بشار الأسد بعدم منع الناس الوصول إليه، أرخينا الطوق الأمني حتى وصل إليه الناس وحملوه على الأكتاف، ولم يتوقف الهتاف له، بينما هو يرفع يديه لهم، ذهبنا معه إلى التلة لإلقاء نظرة على قبر أخيه، وبعدها نزل إلى خيمة العزاء حيث كان الرئيس وجمع هائل من البشر ومن كل الطبقات.

وقفت على طرف الساحة المقابلة لخيمة العزاء التي تمتد على نحو مستقيم وفي الطرف الآخر نصف دائرية، يجلس الرئيس تحت الخيمة في الصف الأول وعلى جنبه المسؤولون والضيوف، وأمامه ساحة كبيرة يمر الناس ويلقون التحية ويكملون المسير، أنظر إلى الرئيس الذي يبدو مضطربًا، يهز فقط رأسه للناس والضيوف والمعزين، ولا يحرك ساكنًا، تلقينا جميعًا

الأوامر، بألا يتقدم أحد من المعزين نحو الرئيس، يبدو أن الرئيس في حالة لا يريد خلالها حتى أن يمد يديه للسلام، ومن أجل ذلك يلقي الجميع نظرة ويمضي.

تعبت من الوقوف، وبدا الرشاش الذي على كتفي ثقيلًا، وأشعر بأن حزام السلاح قد حُفر في كتفي حتى بات يحُكّني ويؤلمني، لذا أبدّل كل دقيقة مكانه، تارة على الكتف اليمنى وأخر على الكتف اليسرى، أتاني أحد الضباط،

- ما الذي تفعله؟
- لم أفهم سيدي!
- ما بالك تتحرك كثيرًا وتحرك السلاح وتنقله من كتف إلى أخرى؟!

بلعت ريقي وشعرت بأني لفتُّ أنظار قادتي!

- عفوًا سيدي، أنا أقف على قدميَّ منذ سبع ساعات وباتت كتفي تؤلمني من أجل ذلك.
- هل تعلم أنك تربك حرس الرئيس يا غبي؟ كلما تتحرك أو تمد يدك على سلاحك تجعل من كل الحرس يتأهبون، يظنون أنك ستقوم بعملية إطلاق النار. قف بشكل جيد ولا تحرك سلاحك وإلا فستُطلَق النار عليك بتهمة محاولة اغتيال! حمار لايا.

ذهب الضابط بعدما وبخني وشتمني، شعرت بالخوف، إلى هذه الدرجة حرس الرئيس ينتبهون إلى كل من يتحرك؟ كيف ذاك؟! وصلت إلى نقطة لو متُّ تعبًا سأتحمل، الحركة محسوبة. ولكني أنظر إليهم لا أجدهم ينظرون إليَّ؛ أتُراهم من خلف النظارات رصدوني أم هناك عناصر مخفية لا نراهم؟ كلما رأيت الرئيس أو أحدًا من حرسه تأتي تلك الرغبة الشديدة بالالتحاق بالحرس الخاص وأحسد حرسه، ولكن في الوقت ذاته أخاف جدًّا من هذه

المهمة الصعبة للغاية التي تتطلب حرصًا وذهنًا صافيًا وتركيزًا في أعلى المستويات، إلا أني أمتلك المقدرة للقيام بذلك ولكن مافيات القصر لن تسمح لواحدٍ مثلي من أبناء الطبقة الفقيرة بالاقتراب من هذا المنصب وهذه المكانة الرفيعة، ربما لم يسمحوا حتى لا يروى على مسامع الرئيس فسادهم الإداري والمالي وما يمارسونه، أتُرى الرئيس لا يسأل؟!

في مساء هذا اليوم ونحن في نادي الضباط حيث الجنة التي لم نكن نحلم بها، أخبرنا القائد بأننا سنعود إلى دمشق صباح الغد.

هذا الصباح يبدو غريبًا، أشعر بأني أودع نعيمًا على حساب تعاسة الرئيس، وهو تعيس وحزين بفقدان ولده، ونحن عشنا في نعيم الخدمة والمكان والطعام، لطالما عاش المسؤولون سعداء على حساب تعاسة المواطنين، وها أنا اليوم عشت هذا الشعور، وعشت أيامًا سعادة على حساب أرفع مسؤول في البلاد.

عدنا إلى دمشق والتحقنا بدورة القفز المظلي التي لا مفر منها، وقفنا بالدور وبدأنا بالصعود إلى الطائرة واحدًا تلو الآخر، ربطت المظلة بعناية فائقة خوفًا من أي خطأ، أشعر بخوفٍ شديد، بدأت الطائرة بالإقلاع، أسمع أصوات المراوح والمحركات لعلها تتعطل ولكن دون فائدة، أمنية لم تتحقق، نجلس في صفين متقابلين ننظر إلى أعين بعضنا، الخوف في جميع الأعين، والأنفاس من خوفها تلهث، صاح المدرب "استعدوا" بدأت نبضات قلبي تتسارع وشعرت برجفة في ركبتي.

"خلال دقيقة واحدة يجب أن تكونوا جميعًا قد قفزتم" قالها المدرب، أي أن أمام كل واحد منا ثانية فقط للقفز ولا مجال للتفكير. يشير المدرب

بيده إلى ضوء أحمر في أعلى باب الطائرة "حينما يصبح أخضرً تبدؤون بالقفز".

بلعت ريقي وعيناي على الضوء، وبحسب تعليمات المدرب، بدأنا بالتصفيق الخفيف، وحين تصبح خضراء نصفق بسرعة شديدة، ثانية ثانيتين، وأصبح الضوء أخضراً، أشعر بأن يديَّ لا تصفقان، بل تتطايران في الهواء خوفًا.

"وقوف، استعدوا هيّا"، وبدأ المدرب برمينا واحدًا واحدًا من الطائرة، لم يَعُد في حلقي ماء لابتلاعه، حتى حلقي نشف وأنا أرى زملائي يتطايرون، قدماي تقتربان من الباب، وصلت عند الباب وألقيت نظرة لأرى الأرض، وجدتني أطير في الهواء ااااه، أشعر بأن فمي أصبح كبيرًا، هواءٌ شديد يضربني في وجهي، أرى دمشق بقعة صغيرة "أو، بف، مم" أحرف تخرج دون أن أنطقها، أصبعي على الزر أراقب مَن أصبحوا أسفلًا مني حتى يفتحوا المظلات، أقترب من الأرض بسرعة فائقة "ززززززز" صوت السرعة تطير بي إلى الأرض، بدأ الرفاق يفتحون مظلاتهم واحدًا تلو الآخر. أشعر بأني يجب أن أدخل الحمّام، أظن أني سأفعلها على نفسي، واحد اثنان ثلاثة، وضغطت الزر وإذ بشيء سحبني إلى الأعلى وبدأت أرى دمشق بهدوء شديد وجمال قل نظيره، أمسك حبال المظلة وأوجهها يمينًا ويسارًا، وأقترب من الأرض، ونزلت محاولًا الوقوف على قدميَّ، لامست قدماي الأرض وإذ بي أركض بجنون من شدة السرعة، أحاول السيطرة، وقعتُ على الأرض ووقفت على الفور.

"برافو يا عليّ"، يقولها المدرب، ولكن حقًّا برافو؟!، لو تعرف شعوري وحاجتي إلى دخول الحمام لما قلت لي برافو أيها المدرب. وقفت في الطابور

بعدما اجتمع الجميع ولم يُصب أحد بأذًى، أحببت وكرهت التجربة، لا أعلم ولكن الجميع سعداء بهذه التجربة.

مضت الأيام وسنؤخذ مجددًا إلى القرداحة صباح الغد، لتأمين أربعينية باسل الأسد، حيث سيكون الرئيس وضيوفه والمسؤولون، وعيناي على نادي الضباط ونعيمه، فمِن بعده عدنا إلى أكل البرغل الناشف وشرب اللبن الخفيف، لو استطعت الحديث مع الرئيس لقلت له بأن ضباطًا يسرقون اللحم والدجاج المخصص لنا، نعم إنه سيكون أمامي ولكن كيف الوصول إليه؟ سيكون وسط كل القيادات العسكرية الرفيعة التي لا ولن تسمح لضابط متخرج جديد بالحديث مع الرئيس في مثل هذه المناسبة، هؤلاء الحرس الذين حوله، ألم يكونوا يومًا مثلنا وخاضوا نفس التدريبات والدورات والأكل والمبيت؟ ألم يعيشوا هذه التجربة؟ لماذا لا يخبرون الرئيس بفساد الضباط؟! ولكن هل سيخبرون بفساد ضباط أوصلوهم إلى القصر؟!

خاب أملي هذه المرة، فالباص سيتوجه إلى قبر باسل ولن نمر إلى نادي الضباط، يبدو أننا تأخرنا، أصبحت حافظًا للمنطقة وطرقها، وصلنا إلى أسفل تلة، أظن أن هذه هي التلة التي دفن فيها باسل الأسد، ولكن ما تبدو كذلك، تمعنت بالطريق ونحن نصعد التلة بالباص، وإذ بأشجار نخيل طويلة على جانبي الطريق الذي بات معّبدًا، وصلنا إلى أعلى التلة وصدمت، أين التلة الجرداء التي كنت عليها قبل أربعين يومًا فقط؟! يا إلهي! أنا في الجنة؟ المكان مختلف، أم أنا مخطئ في التلة؟! من أسفل التلة أشجار نخيل وطريق معبد وأعمدة كهرباء، وفوقها صرحٌ كبير، وكل ما في خارجه وأرضيته مبلط برخام يلمع، فكيف يكون الصرح من الداخل؟! لقد وُضعت جميع إمكانات الدولة لتحويل التلة الجرداء إلى جنة تليق بابن رئيس الجمهورية.

الوفود لا تتوقف، الداخلون إلى الصرح أكثر من الخارجين، موقعي على طرف التلة، ورائي أشجار كبيرة، أتساءل: كيف جُلبت هذه الأشجار التي إن زرعت فستحتاج إلى سنوات لتكبر بهذا الشكل؟ شعور غريب اجتاحني، أتذكر حبيبتي وفقيدتي "زينب" التي لم أزرها منذ أشهر طويلة جدًّا، وقد كنت نسيتها لقسوة ما لقيته في الجيش، أستند إلى شجرة، أشعر بغبطة، آه يا زينب، لو كان بيدي لبنيت لكِ صرحًا أكبر من هذا، وجعلت قبرك مزارًا، أرفع كُمَّة قميصي العسكري، وأنظر إلى ربطة شعرها الأسود الذي بيدي اليسرى، وضع أحدهم يده على كتفي، نظرت إليه بعد أن شعرت بخوف شديد، وإذ به زميلي "لمن هذه الربطة السوداء التي بيدك؟!".

حارس الرئيس

اللاذقية ٢٠٠٩

ساعتين وأنا أنظر إلى ربطة شعر زينب، بينما أجلس على الدرج، أخذتني بعيدًا عدت إلى سنوات مضت ولم تعد، والماضي بطبعه قاسٍ على الإنسان، كل ما فيه يمضي ولا يعود ولا يتكرر، مذ قالت لي: "وأنا معك لستُ أخاف"، وأنا أضع هذه الربطة في يدي، وفي أثناء عملي أغطيه تحت قميص بدلتي الرسمية، ولا أنزع الربطة من يدي إلا عندما أستحمّ، حتى تبقى رائحة شعر زينب فيها. وضع أحدهم يده على كتفي، أفزعني، رفعتُ رأسي وإذ به الرئيس بشار الأسد، وقفتُ مفزوعًا، يا ويلي ألهو وأنا في خدمتي لتأمين حماية الرئيس، إنه الخطأ الذي لا يغتفر.

- احترامي سيدي، اعذرني أرجوك.

ابتسم الرئيس "لا عليك، لمن هذه الربطة؟" وسار في الرواق ومشيت خلفه مسارعًا إلى إخفاء الربطة تحت قميصي، أسير خلفه صامتًا خائفًا، قال وهو يمشي "لم تقل لي لمن هذه الربطة!".

ارتبكت وتلعثمت وأخذت نفسًا عميقًا "إنها لحبيبتي".

- تحبها إلى هذه الدرجة؟ قد سرحتَ إلى عالمها وتركت أمن الرئيس!

كنت والرئيس قد وصلنا إلى آخر الرواق وبدأ ينزل الدرج إلى الطابق الأرضي في قصر تشرين في مدينة اللاذقية، حيث إنه في زيارة للمحافظة.

- أعدك سيادة الرئيس بأن الأمر لن يتكرر.

لم يلتفت الرئيس حتى "أنا لا ألومك يا عليّ"، وقف واستدار إليَّ "لم تجبني، أتحبها؟".

وقفت وتحركت دمعة مريرة في حلقي، ولكني ابتلعتها "أنا لا أحبها، أنا أعشقها" وطأطأت رأسي أمام الرئيس "اعذرني فخامة الرئيس على جوابي".

ضحك الرئيس "بل جوابك أعجبني".

ركبنا السيارة، ولكن الرئيس هذه المرة فاجأني، طلب من السائق أن يركب في سيارة ثانية ليقود بنفسه، وطلب مني الركوب إلى جانبه، وهذا يحدث أحيانًا أن يجلس المرافق إلى جانب الرئيس إذا أراد القيادة بنفسه، للتدخل عند أي طارئ، ولكن هذه هي المرة الأولى التي تحدث معي منذ التحاقي بالحرس الخاص بالرئيس.

ركب الرئيس خلف مقود السيارة، وجلست في المقعد الذي بجانبه وتحرك الموكب، وبدأ الرئيس يقود سيارته إلى خارج القصر إلى حيث مدينته القرداحة لزيارة والدته المقيمة هناك قبل العودة إلى دمشق.

توجه الرئيس إليَّ بالسؤال "أتعلم أني لا أعرف عنك سوى اسمك يا عليّ، ما رتبتك؟

- أنا عقيد، فخامة الرئيس، ولدي الآن دورة أركان لأصبح عقيد ركن.
- رائع، من أين أنت؟
- من قرية الشراشير سيدي في جبلة.. قريتي قريبة من القرداحة.

ضحك الرئيس "يعني جيران".

- هذا شرفٌ لنا سيدي.

ولكن الرئيس جرحني بسؤاله "ولكنك لست صغيرًا في السن، لماذا قلت إن الربطة لحبيبتك وليس لزوجتك؟".

لم أدرِ ماذا أقول له، وشتتني السؤال إلى حيث لا أريد، حتى وإن كان الرئيس الذي يقود السيارة ومعنا من الحرس، فإن مهمتي التركيز على الطريق، تأخرت في الجواب، وبينما يركز الرئيس في القيادة، خطف نظره إليَّ.

- ما بك لا تجاوب؟!
- عفوًا سيدي، أنا لست متزوجًا!
- لماذا؟ وما الذي يمنع زواجكما؟ سألني الرئيس مستغربًا.

شعرت بمرارة السؤال "الموت" وصمتت.

- ماذا ؟!
- لقد ماتت زينب في عام ١٩٩٣ بمرض السرطان.

شعرت بتأثر الرئيس "ومازلت تقول حبيبتي ولم تتزوج؟!".

- لا ولن أفعل، الحب يأتي مرة واحدة في العمر، إما أن يكون جنة أو جحيمًا، وأنا أتى عشقي على هذا النحو من الجحيم، ورضيت به.

صمتٌ خيم علينا، والرئيس يخطف النظر نحوي، وأنا مستغربٌ أني أُحّدث الرئيس عن خصوصياتي، وذكرياتي التي لم أقلها لأحد من قبله، ولكنه كسر الجمود.

- لماذا التحقت بالحرس الخاص؟

- عشقًا فيك سيدي، وأمنية قديمة تحققت.
- هل أنت سعيد بعملك؟
- ما دمتُ بجانبك فلا شيء يستطيع تعكير مزاجي.

ضحك الرئيس ضحكة شديدة "إذًا فأنت تعاني أحدهم في القصر".

انتهت زيارة الرئيس في القرداحة واللاذقية، وعدنا إلى دمشق، ومضت الأيام، وأنا أفكر في الحديث الذي دار بيني وبين الرئيس، لقد تحدثت مع الرئيس عن أمر خاص بي، ولكن مضت أيام وكلما يراني يبتسم، وكأن شيئًا لم يكن. تلقيت اتصالًا من سكرتيرة الرئيس وأخبرتني أن الرئيس يطلبني في مكتبه، الأمر طبيعي ولا شيء يثير الاستغراب وهذا أمرٌ معتاد، صعدت إلى مكتب الرئيس في الطابق الثاني، بهدوء دون أي خوف، رحبت بي السكرتيرة وهي من قريبات السيدة نجاح العطار نائبة الرئيس، عرفت هذه المعلومة عندما سألت كيف تكون امرأة شنيعة مثل هذه سكرتيرة لرئيس الجمهورية، أخبروني أن واسطتها نائبة الرئيس، وكل من عُيِّن بالواسطة لا يحتاج إلى جمال وكفاءة، فالقصر مقسم بين عوائل وشخصيات، وكل من فيه وصل إلى القصر عن طريق المسيطرين عليه، "تفضل بالجلوس، سيادة الرئيس سيخرج بعد قليل"، بهدوء واحترام شديدين طلبت السكرتيرة مني، وأظن أن السيدة أسماء الأسد سعيدة بتعيين هذه السكرتيرة للرئيس، فهي تعلم جيدًا ميول الرئيس النسائية، فحين أفزعني بقصر تشرين في اللاذقية وأنا أتمعن في ربطة شعر زينب، كنت أجلس على الدرج المؤدي إلى جناحه الخاص في القصر، حيث كان مع عشيقته يمارس معها الجنس، وكانت قد دخلت من باب سريّ إلى القصر، لخصوصية علاقة الرئيس النسائية ولمكانة والد العشيقة الذي يُعَد من أكبر مسؤولي البلاد. ولكن استغربت من اطلاعي على مثل هذا السر رغم قسمي العسكري، شعرت بأني أمام اختبار كبير، وعرفت

سبب تردد بعض الممثلات والمطربات على قصر الشعب، كان ذلك يترك عندي حيرة في سبب قدومهم إلى القصر في أوقات غير رسمية.

أنتظر خروج الرئيس وعيناي على السكرتيرة، وأنا على يقين أن الرئيس لم يحاول معها يومًا ليس لأنها غير جميلة، بل لأنها عَين نجاح العطار وأذن أسماء الأسد. كل من يدخل القصر جديدًا تحاول جهة من الجهات المسيطرة على القصر أن تكسب ولاءه، سمعتها مرارًا وتكرارًا، حتى استدعتني يومًا أسماء الأسد بدافع الغَيرة، أكون عينها وأذنها، ومنذ ذاك التاريخ لم تستدعني سوى مرتين ولم تحصل على جواب مقنع، وتهربت منها بكل لطف واحترام.

يرن جرس السكرتيرة وتقوم مسرعة نحو مكتب الرئيس، تطرق الباب البني الفخم بهدوء وتدخل، وبعد قليل خرجت وطلبت مني الدخول، وقفت وأغلقت زر بدلتي السوداء ودخلت، وأغلقت السكرتيرة الباب وخرجت، مكتب الرئيس فخمٌ للغاية، نوافذه تطل على مدينة دمشق، يجلس على كرسي أسود خلف مكتبه، غرفته مزينة على الطراز الدمشقي، المزهريات والأواني النحاسية، والورود، أديت التحية واقفًا باستعداد. كان بين يدي الرئيس ملف.

- احترامي سيدي.
- استارح يا عليّ واجلس.

جلست بعد أن فككت زر بدلتي.

رفع الرئيس رأسه عن الملف الذي كان يقرؤه ونظر إليّ "هل كنت في مهمة تأمين جنازة الشهيد باسل في التسعينيات؟"

فاجأني الرئيس بذلك، إذًا الملف الذي أمامه هو ملفي "كان لي الشرف سيدي، وكان الشرف أن ألتقيكم للمرة الأولى".

ابتسم الرئيس "إذًا كنت في حمايتي أيضًا!".

- نعم سيدي، كنت وقتها ملازمًا ولكني كنت أخضع للدورات بعد فرزي على الحرس الجمهوري.
- وكنت الأول في الكلية الحربية وفي جميع الدورات التي خضتها!

هززت رأسي وشعرت بأن ذلك إطراء من الرئيس.

- تستحق أن تكون من الحرس الخاص يا عليّ، ولكن قل لي: من الذي توسط لك حتى وصلت إلى هنا؟

ترك سؤال الرئيس خيبة أمل كبيرة في داخلي، إنه يعرف بالمحسوبيات وأن لا أحد يدخل القصر دون واسطات!شعرت بغض شديد.

- أوصلتني كفاءتي وحاجة القصر إلى الحرس سيدي. منذ زمنٍ بعيد لديَّ رغبة شديدة في الالتحاق بالحرس الرئاسي، وذلك يعود بعد نجاحي في البكالوريا، كنت أريد أن أصبح طبيبًا ولكن ظروفي المادية لم تسمح لي، التحقت بالجيش وفي عينيَّ هذا اليوم سيدي.

- كنت تريد أن تصبح طبيبًا، لماذا؟

- قريتي تفتقر إلى الأطباء، تعاهدنا أنا وزينب حبيبتي، على أن نكون أطباء لخدمة القرية وأهلنا، ولكن ظروفي منعتني والتحقت زينب بكلية الطب، وبعد فترة أصابها السرطان وماتت، وكانت معضلتنا أيضًا فقدان الأطباء والمراكز الطبية، حلمي اليوم أن أبني مشفًى أو مركزًا صحيًا "مستوصفًا" باسم زينب في قريتنا.

- سنفعل يا عليّ.

نظرت إلى الرئيس بفرحة غامرة، سأكون لك طوال حياتي خادمًا أمينًا، وحارسًا كتومًا، لا عينًا ترى ولا أذنًا تسمع ولا فمًا يتكلم.

- إلى هذه الدرجة يهمك أمر بناء مستشفًى أو مستوصف باسم زينب؟!
- بل وأكثر من ذلك فخامة الرئيس.
- هيا بنا يا عليّ، علينا أن نخرج، سنكمل حديثنا في السيارة.

وقفت "ولكني لم أُبلغ اليوم بخروجكم سيدي حتى نجهز الموكب!".

- لقد قامت السكرتيرة بكل الترتيبات، هيا.

خرجت مع الرئيس وركبنا السيارة وأنا لا أعلم إلى أين، ركبت بجانب الرئيس بينما هو يقود سيارته، وقبل أن ينطلق "ستطَّلع اليوم على سر من أسرار القصر ومتاهاته".

ظننت أنه سيأخذني إلى مكان سري، ولكني رأيته ينطلق مع الموكب إلى خارج القصر، وتوجه نحو طريق ريف دمشق، وأخبرني "نحن ذاهبون إلى قصر الزبداني".

وبدأت الأسئلة تحيرني، ولكن سرعان ما بدأ الرئيس بالحديث "أكمل يا عليّ كيف التحقت بالحرس الرئاسي؟".

أعادني سؤال الرئيس إلى عام ٢٠٠٨ عند التحاقي بحرس القصر، كنت قبل ذلك قد قدمت طلبًا للالتحاق بالقصر، ولكن لم أتلقَّ الرد على طلبي، وبعد أشهر استدعيت إلى قيادة الحرس في مشروع "دمر"، وأخبروني أن في الحرس الرئاسي مكانًا شاغرًا، وعرفت أنهم لم يجدوا شخصًا من أصحاب النفوذ داخل القصر، فاضطروا إلى مراجعة الطلبات، ووقع الاختيار عليَّ لأسباب عدة، أولًا أنَّ طول الرئيس بشار الأسد مئة وخمسة وتسعون

سنتيمترًا، وطولي مئتان وخمسة سنتيمترات، ما يخولني بمرافقة الرئيس، وزني تسعون كيلوجراماً مناسب للركض والحركة لامتلاكي الرشاقة. أمتلك بنية جسدية قوية، وخضعت لدورات قاسية، وجميع نتائجي تخولني، غير أن رتبتي العسكرية عالية، كنت قد ارتقيت مؤخرًا إلى رتبة عقيد، بعدما خضت دورة مدة ستة أشهر أهلتني لاستلام قائد كتيبة في الحرس الجمهوري، وأقل رتبة ترافق الرئيس أو تتواجد في القصر رتبة رائد، وهذا يعني أني أرفع برتبتين، وبسبب حاجة القصر إلى حرس استدعيت إلى القصر، ركبت سيارة خاصة، بعد دراسة أمنية شاملة حولي، وصلت إلى باب القصر الذي كان ضخمًا للغاية، أسواره شاهقة، وعند الباب الخارجي الأول للقصر مكتب سكرتيرة كاملة، وبعد اجتياز الباب الأول وصلنا إلى الباب الثاني، فُتِّشْنا وفُتِّشَت السيارة، بعدما تأكدوا عند الباب الأول من المعلومات، ومررنا بجهاز خاص يكشف أمن السيارة وخلوها من أي متفجرات، وبعدها قابلنا صعود خفيف نحو القصر وكان الطريق من الأسفل إلى الأعلى على شكل غابة من الأشجار التي تغطي طرفي الطريق، وصلنا إلى ساحة ضخمة وواسعة جدًّا تتوسطها نافورة كبيرة على شكل ثلاثة مستطيلات، وأصبحت دمشق على مرمى أعيننا من الجانب الأيمن، وعلى الجانب الأيسر بعد الساحة الكبيرة أشجار من السرو، وأمامنا القصر، اقتربنا من القصر وصعدنا الدرج المنقسم إلى قسمين، ودخلت البهو الكبير العميق، بدا لي مبنىً بارتفاعه يوازي مبنًى بأربعة طوابق، وفي المنتصف سجادة حمراء تؤدي إلى بهو القصر، عواميد ضخمة جدًّا تسند القصر، والأسقف تضيء بإنارة برتقالية اللون، وكان على الجانب الأيمن مكاتب، دخلت مكتبًا كان فيه ثلاثة ضباط من كبار ضباط القصر ويترأسهم قائد الحرس الخاص العميد ذو الهمة شاليش، وبدأوا استجوابي، أبلغوني أني اختِرت لأكون مرافقًا للرئيس، عدت إلى قيادة الحرس في مشروع "دمر"، وبدأت أخضع لدورات وهي غالبيتها

تثقيفية وتعليمية ببروتوكولات القصر. التأكيد على السرية التامة، الحرص الشديد، الذهن الصافي، الكتمان ثم الكتمان ثم الكتمان، خضعت لدورة الرماية، وخضعت لهذه الدورة مدة شهر كامل من التدريب اليومي على الرماية، في اليوم كنت أطلق ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف رصاصة، حتى أصيب الهدف بشكل دقيق وبطريقة خاطفة أو سريعة، أي هدف يتحرك نحو الرئيس علينا بالدرجة الأولى شل حركة المهاجم باستهداف القدم للقبض عليه حيًّا، ولكن إن كان الموقف يستدعي قتله، تُطلق النار على القلب أو الصدر أو الرأس، وذلك يعود حسب المكان والزمان، وهذا قرار الحارس يقيم الموقف خلال ثوانٍ معدودة فقط، ثانية واحدة تُغيّر كل شيء، يحمل الحارس الشخصي مسدسًا رشاشًا في كل مخزن ست عشر رصاصة، وزن الرصاصة ٧,٩ مل، ويحمل كل مرافق مع الرئيس مسدسين، واحدً على الخصر والثاني عند الرجل يخبئه تحت بنطاله، مع خمسة مخازن احتياطية تخبأ تحت الزنار، ودُرِّبنا على سلاح لا يحمله سوى الحرس الخاص للرئيس، رشاش طي روسي، يُطوى ويوضع في صندوق السيارة، يستخدم عند أي هجوم، ويحمل أحد الحرس حقيبة "سامسونايت" تستخدم لحماية الرئيس عند إطلاق النار، والحقيبة واقية للرصاص.

ورغم اختياري لأكون من الحرس الخاص، ولكن في بادئ الأمر خضت تدريبات عملية، بدأت أخرج مع الرئيس عند صلاة كل جمعة، الرئيس في عادته يصلي الجمعة في جامع الرئيس حافظ الأسد تحت القصر بالقرب من مستشفى المواساة في دمشق، كان الطابقان الأول والثاني كلهما من الحرس الجمهوري، ورأيت بعض رفاقي هناك، وكان تواجدنا على أننا مدنيون نشارك الرئيس صلاة الجمعة. وفي اختبار آخر خرجت مع الرئيس في مراسيم وضع إكليل الورد على ضريح الجندي المجهول، بجانب القصر الجمهوري فوق

جبل قاسيون، كنت أذهب على رأس كتيبة ونغلق الطرق قبل ثلاث ساعات من بدء المراسم، وتوزع نقاط التفتيش والحرس، وشاهدت الخلافات بين ضباط القصر الكبار وتصادمهم في هذه المواقف حيث يحاول كل فريق فرض نفسه، وفي المراسم لكل فريق وجهة نظر يحاول تطبيقها، واعتبرت ذلك امتحانًا إلهيًّا بمدة إمكانية غض بصري عن هذه الخلافات بين ضباط القصر وعدم البوح بها.

في أثناء التحاقي بالقصر ومشاهدتي لخلافات الضباط الذين حاولوا إفشالي في بادئ الأمر، ومعاملتي بلؤم شديد، كنت أخاف على الرئيس منهم، فالرئيس بشار ليس كالرئيس حافظ الأسد، الذي كان عسكريًّا صلبًا ومنضبطًا، أما الرئيس بشار على الرغم من التحاقه بالجيش بعد عودته من بريطانيا، والبدء في تأهيله بعد وفاة الرائد باسل الأسد، فإنه ترفع إلى رتب عسكرية بشكل سريع، دون الخوض في أعماق الجيش، أتذكر قبل وفاة الرئيس حافظ الأسد بأشهر، كان هناك تخرج لدفعة من الكلية الحربية حضرها مسؤولون كبار، وكان في البداية يتولى هذه المهمة نيابة عن الرئيس حافظ الأسد، ابنه الرائد باسل الأسد، الذي كان ابن السلك العسكري، المبحر في أعماقه ومتاهاته، ارتكب بشار الأسد الذي كان وقتها يحمل رتبة عقيد وقائد "لواء ١٠٥" حرس جمهوري، خطأً فادحًا لم ينتبه إليه لأنه ليس ابن الجيش ولا علم له ببروتوكولاته، تقدم وقتها اللواء علي حسن قائد الحرس الجمهوري وقدم المنصة إلى العقيد بشار الأسد بوجود رتبة أكبر منه.

وقف جميع الحاضرين، وتقدم اللواء علي حسن وقال: "سيدي القائد ممثل القائد العام حضرة العقيد بشار الأسد، أقدم إليكم العرض العسكري. اندهش مصطفى طلاس وزير الدفاع الذي يحمل رتبة عماد، وجلس على كرسيه كنوع من الاعتراض. ولم ينتبه بشار الأسد حتى همس أحدهم في

أذنه، وأشار بشار الأسد إلى اللواء لتقديم العرض إلى العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع، ولكن طلاس لم يحرك ساكنًا، وأصبح محمر الوجه والغضب يقدح من عينيه، وحاول بشار الأسد تلطيف الأجواء بفتح أحاديث معه لكنه كان يتجاهل بشار الأسد أمام مرأى أعين كبار الضباط، من الخطأ الفادح الذي لا يغتفر في البروتوكولات العسكرية، أن يُقَدَّم العرض إلى رتبة هناك من هو أعلى منه، كنت أخاف على الرئيس حتى من نفسه.

بعد أن شرحت للرئيس كيف وصلت إلى القصر ختمت "سيدي منذ التحاقي بالحرس وأنا أعاني محاولات لإفشالي وطردي من المهمة".

- تعجبني صراحتك يا علي، ولكن هل حاول أحدٌ استمالتك إليه داخل القصر؟!

تبمست: السيدة الأولى، حاولت معرفة إن كان هناك نساء في حياتك أم لا!

ضحك الرئيس: وماذا قلت لها؟

- تهربت بلطف واحترام.
- عليّ، أين كنا قبل أيام؟
- في اللاذقية سيدي.
- وماذا حدث؟
- كان لديك زيارة رسمية إلى المحافظة والتقيت المسؤولين للإشراف على تسيير وضع المواطنين وبعدها انطلقنا إلى القرداحة لزيارة والدتكم الكريمة وعدنا إلى دمشق.

لم يتوقف الرئيس عن الضحك وهو يقودنا إلى قصر الزبداني حيث طريق دمشق - الزبداني من أجمل الطرق، الغابات تغطي الجبال والوديان،

على كامل الطريق، وبالنسبة إلى الحرس يكون تأمين مثل هذه الطرق من أصعب ما يكون.

- وهل حدث أي أمر لافت في زيارة اللاذقية؟
- أبدًا سيدي، لا شيء يذكر.

تبسم الرئيس "أحسنت هذا هو المطلوب، أتعلم لماذا نتوجه إلى قصر الزبداني؟!"

- لا سيدي وأنا مفاجأ!
- اسمع يا علي، أنا خرجت إلى الزبداني لأكسب الحديث معك على الطريق بحجة تغيير الجو، ومن ثم نعود إلى دمشق، وهذا هو السر الذي قلت لك ستعرفه، لو بقينا في مكتبي بقصر الشعب وتحدثنا هكذا، كنا سنلفت الأنظار حول جلوسك معي في مكتبي وقتًا طويلًا، وفي كل الأحوال ستُستدعى حول جلوسك معي في مكتبي وسبب زيارتي المفاجئة إلى الزبداني!
- ولكننا سيدي.
- لا تقاطعني لتفهم قصدي، أنت حديث العهد في القصر، من سنة تقريبًا، ورغم ذلك عندك فكرة كاملة عن القصر ونفوذ الضباط، أنا أعلم أنهم لا شيء من دوني، وأعلم أنه لا أحد يستطيع الإنقلاب عليَّ، ولكن لا أريد لهذا النفوذ أن يكون بعيدًا عن عينيَّ، أنا قرأت ملفك بالكامل ولم تُجَنَّد لصالح أي فريق من الضباط والمتنفذيين في القصر، وأنت ضابط كفء، كل ما سأفعله أني سأطلب من العميد ذو الهمة تثبيتك في القصر، وبخصوص استدعائك سأترك الأمر لك لتهرب منه، وسأطلب بأن تكون مرافقًا دائمًا معي، في الوقت نفسه عليك أن تشكل فريقًا لك داخل القصر يكون تابعًا لي عند الحاجة، لا أعلم كيف ستفعلها، ولكن أنا واثق

أنك ستنجح، وسأطلب منك أن تقوم بدورة أركان حتى تبقى في القصر وتترفع فيه.

على الرغم أنه رئيس الجمهورية ولكنه يحتاط من كل الذين حوله، ألا يثق بهم؟! عدنا إلى دمشق واستدعاني العميد ذو الهمة شاليش كما توقع الرئيس وحاول معرفة سبب زيارت المفاجئة، وسبب جلوسي معه في مكتبه، تهربت من ذو الهمة بطريقتي. أعتقد أني أمام امتحان صعب سأواجه فيه قطعان المافيات في القصر.

قدمت طلبًا للعميد ذو الهمة لكي أقدم دورة أركان، وافق ممتعضًا. ذهبت إلى حي القابون الدمشقي، حيث الأكاديمية العسكرية العُليا مراسم الرئاسة، لأخضع لدورة أركان حيث يُقِدم على هذه الدورة ما بين ستة إلى سبعة آلاف ضابط يتخرج منها أربعمئة ضابط فقط، تجتمع كل الاختصاصات العسكرية في دورة الأركان، تكتيك عام، خرائط، أساليب قتالية، فحص طبي، ويتخرج الضابط، تخرجت وأصبحت عقيد ركن ووضعت شريطة حمراء إلى جانب الرتبة، ولكن أنا أرافق الرئيس بلباسي المدني. حتى في هذه هناك ضباط نافذون وفاسدون يحاولون شراء الأركان حتى لا يخضعوا لهذه الدورة، ويتجنبوا التعب، فمن لم يخضع لدورة الأركان لا يترفع إلى رتبة عميد، ومن ترفع يُسَرَّح برتبة عميد، أما أنا الآن مخول لأصل لرتبة لواء.

كانت سعادة الرئيس كبيرة جدًّا، وبدأت بتجنيد بعض من أثق بهم من رتب صغيرة تحت إمرتي في القصر، لرفع تقارير إليَّ لتأمين الرئيس وبسط نفوذه في القصر. وشكلت شبكة مخفية داخل القصر، وبدأت أترفع درجة في أروقته حتى أصبحت الصديق المقرب من الرئيس وكاتم أسراره الشخصية، والمطلع على كل شيء، والمتواجد في أكثر الاجتماعات سرية، فليس كل من عمل في القصر يستطيع حتى الوقوف عند باب مكتب الرئيس،

هذه أمور تختار بعناية فائقة. أعلم وأفهم ما يدور في عقل الرئيس، هو يتذكر ما حدث بين عمه رفعت الأسد وباقي المسؤولين النافذين حين مرض الرئيس حافظ الأسد في الثمانينيات وغاب عن المشهد، وهو يخاف من تكرار المشهد، المفسدون يتوارثون، والصالحون إن ماتوا فلن يتركوا إرثًا، فالصلاح قرار شخصي، والفساد ينتقل إلى ضعاف النفوس من البيئة المحيطة، وكم أخاف على هذا الوطن من الضباط الفاسدين.

الأسد أو نحرق البلد!

٢٠١١

علمتني تجربتي أن كل ما يجري في البلاد يصل إلى القصر وإلى مكتب الرئيس بأدق التفاصيل وبحقيقتها الكاملة، ولكن كل ما يخرج من القصر إلى الإعلام والشعب هو مجرد من الحقيقة، وحين واجهت الرئيس بهذا برر "أن لكل دولة ونظام حكم استراتيجية معينة ونحن أمام مؤامرة علينا مجابهتها حتى لو بالتضليل، معركتنا إعلامية ونحن ضعفاء إعلاميًّا، وعلينا أن نشتت الإعلام الخارجي".

لم أقتنع، ولكن أفهم ما يرمي إليه الرئيس، الجميع، الرئيس والمسؤولون أصبحوا يدركون أن المعركة معركة رحيل النظام بالكامل، ولكن لابد من تسويق أن هناك حرب بين الدولة والمخربين والمندسين، وسلفيين مرتبطين بالخارج حتى نكسب المعركة بل الحرب.

استنفار كبير داخل القصر، حيث إن جميع المسؤولين الأمنيين والعسكريين سيحضرون اجتماعًا ثانيًا مع الرئيس لوضع خطط والبدء بتنفيذ خطط سابقة، الجميع بات يدرك أن مرحلة جديدة ستبدأ، المظاهرات تجتاح البلاد من شرقها حتى غربها ومن جنوبها إلى شمالها، والقتل بات أمرًا عاديًّا،

وهذا ما يخيفني شخصيًّا، ولكن أتى دور الفاسدين من الضباط والمسؤولين لكي يستغلوا هذه الفرصة وليحرقوا البلد.

طلبني الرئيس إلى مكتبه وفاجأني "في هذا الاجتماع ستجلس خلفي، أريدك أن تكون في الاجتماع"، الرئيس إما بدأ يفقد ثقته حتى بأقرب المسؤولين، أو يريد أن يوجه رسالة مبطنة عن البدء بإبرازي في القصر ومجابهتي مع أحدهم، أويريد أن يقول "هناك غيركم من أثق به". سيلقي الرئيس بعد أيام خطابه الثاني منذ بدء الاحتجاجات، وسيكون ذلك في مدرج جامعة دمشق، ولكن قبل ذلك سيعقد هذا الاجتماع الأمني الكبير.

توافد جميع المسؤولين والضباط إلى القصر، ودخلوا غرفة الاجتماع، وأبلغت السكرتيرة الرئيس بأن الجميع حضر، أقف في مكتبه، قام الرئيس وتوجه إلى غرفة الاجتماع أسير خلفه، وأفكر في ردة فعل الضباط حول تواجدي في الاجتماع. دخلت مع الرئيس، وقف الجميع، وجلس الرئيس على كرسيه على رأس الطاولة المستطيلة الطويلة، وسحبت كرسيًّا ووضعته خلفه، وعند انتهاء الخدم من وضع المياه وترتيب الطاولة، خرجوا وتوجهت معهم وأغلقت الباب وعدت وجلست خلف الرئيس. رمقني العميد ذو الهمة بنظرة استغراب مع عديد من الضباط، ولكن الرئيس بدأ الكلام حول سبب الاجتماع حتى ينبه بأن جلوسي بأمر منه شخصيًّا، كنتُ أشعر بنظرات كثيرين بينما أتجاهلها. يستعرض كل ضابط ما عنده من أحداث، وجل الحديث يدور حول حجم المظاهرات التي تنتشر رغم التشديد الأمني والقبضة الحديدية، والقمع وحجم الاعتقالات وأن ذلك لا يردعهم، يثير استغرابي الشديد كيفية تناول القمع بهذه البساطة بينما الرئيس يركز على ضرورة إنهاء المظاهرات بأي شكل من الأشكال، لأن الموقف بات محرجًا، أو جرّ المتظاهرين إلى حمل السلاح.

الجميع متفق على القمع الشديد حتى يولد عند المتظاهرين ردة فعل عنيفة، يمر الوقت على الاجتماع ويحتد النقاش، فقد حمل الشهر السادس من هذا العام أحداثًا كبيرة تتطلب من الدولة التجهيز لها ووضع خطط لمجابهة المخاطر، وأثارت حشود المتظاهرين في ساحة العاصي في "حماة" مخاوف لدى جيمع المسؤولين، "إن لم يتراجع أهالي "حماة" من ساحة العاصي فسيكون مصيرهم مالاقوه عام ١٩٨٢" قالها آصف شوكت، بحماسةٍ وغضب غير مخفيّ. انتهى الاجتماع الذي كان ثقيلًا على روحي، لشدة مخاوفي مما هو آتٍ، فالوطن سيغرق في بحر من الدماء. واتفق على نقاط عدة، إطلاق سراح الجهاديين من سجن صيدنايا، وتمرير السلاح لهم، إطلاق سراح المجرمين ليستغلوا الفراغ الأمني، زرع عناصر استخباراتية بين التنسيقيات لنقل تحركاتهم وزرع تفرقة في الصفوف، إطلاق شعارات طائفية مذهبية بين السنة والعلوية، تعبئة المجتمع بالأسماء المناطقية بين الريف والمدن، الحضر والبدو وغيرهم، وبين كل فئات الشعب، نشر شائعات بالاندساس والتخريب بين المتظاهرين، وأن الدولة تفعل ذلك حتى تهد الثقة بينهم.

البلاد مقبلة على مرحلة خطيرة يرسم لها حماة الديار وكل من أدى اليمين لحمايته، يقتلني هذا الشعور وأنا أشهد على وضع لمسات قتل الوطن، المؤامرة الحقيقية تحاك هنا، لحفظ السلطة والنظام، حقًّا كما قال الرئيس "ما يدخل القصر حقيقي وما يخرج سيكون بحسب الحقيقة التي نريدها نحن"، سيتحول هذا الوطن إلى ساحة صراع بين أبنائه برعاية السلطة وعلى رأسهم الرئيس، كيف يمكنني أن أخبئ هذه المشاعر عن الرئيس، إن نطقت بها أخشى أن تسوء علاقتي به وهو أحب الناس إلى قلبي، وأخشى إن بقيت

صامتًا أموت من الشعور الذي يمزقني ويخنقني، "الوطن غالٍ والوطن نفيس"، هذا هو كان شعار الرئيس حافظ الأسد.

انتهى الاجتماع، وقررت الخروج مع الرئيس إلى مكتبه لربما أجد صيغة أو حلًّا ما أقدمه للرئيس، وصلت إلى باب مكتبه، استدار نحوي "بإمكانك الذهاب الآن إلى مكتبك" وكأنه يشعر بأني سأقول له شيئًا.

- قبل أن أذهب سيدي، أردت أن أقول لك شكرًا على ثقتك.

تبسمت له وتبسم الرئيس وتوجهت إلى مكتبي، ولكني لست راضيًا عن القرارات التي اتخذت، هذه مغامرة بمصير الوطن بكل ما للكلمة من معنىً، نزلت الطابق الأول ودخلت مكتبي، وأنا ممتعض، أشعلت سيجارتي، أنظر إلى ساحة القصر المكتظة بالحراسات التي أتت مع المسؤولين، الجميع يتحرك يمينًا ويسارًا، وهناك من ينظف سيارات المسؤولين، سمعت صوت باب مكتبي يفتح، استدرت وسيجارتي في فمي، وإذ بالعقيد ماهر الأسد يدخل، أطفأت سيجارتي على الفور، على الرغم أننا نحمل الرتبة ذاتها، ولكنه أعلى مني كونه قائد فرقة الجيش وأنا قائد كتيبة في الحرس "احترامي سيدي"، ابتسم العقيد بابتسامة خفيفة "شو حالك يا علي؟".

- كله تمام سيدي، تفضل إلى مكتبي.
- اجلس يا علي.

احترامًا له توجهت إلى حيث جلس خلف مكتبي، فهذه التفاصيل تعطي عديدًا من الرسائل، إما احترامًا أو انتقاصًا، جلست وجهًا لوجه إلى العقيد ماهر الأسد.

- سعيد جدًا بزيارتك لمكتبي.

- قل لي يا علي، لماذا جلست خلف الرئيس في الاجتماع ولم تخرج كما هي العادة؟

- أنا فقط أنفذ أوامر فخامة الرئيس.

- أنا أعلم ذلك، ولكن أنت عسكري وتفهم جيدًا أن مثل هذه التصرفات تعطي إشارات غير جيدة لباقي المسؤولين!

- أعلم سيادة العقيد ما ترمي إليه، لربما يترجمونها أن الرئيس لم يعد يثق بأحد، أو خائف حتى وهو في قصره..

قاطعني العقيد ماهر الأسد: بالضبط، وإن كنت تعرف كل ذلك، فلماذا لم تقل له؟

- في الحقيقة أنا أيضًا فوجئت بقراره، لكنه أبلغني بذلك قبل الاجتماع بخمس دقائق ولم يبق لدي مجال لمناقشته، مع أني في العادة لا أناقش الرئيس في قراراته.

أكذب على ماهر الأسد، فأنا سعدت بقرار الرئيس، وما كنت لأناقشه في ذلك، لأن هذه الحركة تعني لي على الصعيد الشخصي كثيرًا، يرفع من مكانتي لدى الضباط والمسؤولين، حينما يرون بأعينهم مدى ثقة الرئيس بي.

- اسمع يا علي، كلنا ثقة بك ليس الرئيس وحده من يثق بك، ولو كان الأمر بيدي، لأردتك قائدًا في إحدى كتائب الفرقة الرابعة، فأنت خير ضابط، ولكن في الوقت ذاته لا نستطيع أن نأمن على الرئيس مع أحد غيرك وتحديدًا في هذه الظروف، ولكن عليك أيضًا مساعدة الرئيس في اتخاذ مثل هذه القرارات، أنت تعلم جيدًا أن الرئيس على الرغم أنه يحمل رتبة فريق أول، فإنه ليس من المؤسسة العسكرية، وأنت ابن المؤسسة وتعلم بروتوكولاتها وبأدق التفاصيل.

- سأفعل ذلك.

خرج ماهر الأسد وهو غير راضٍ على تصرف الرئيس لأنه يحمل بين طياته رسائل غير جيدة لمسؤوليه وضباطه، وهذا لا يبشر بالخير ونحن مازلنا في بداية الأزمة.

استعرت الأجهزة الأمنية وقوات الحرس الجمهوري والفرقة الرابعة وبعض التشكيلات العسكرية بحق المتظاهرين في محاولة للحد من تمدد المظاهرات، ولكن الشارع مازال يحرج أعلى هرم السلطة بتمسكه بحق التظاهر السلمي رغم كل شيء.

أحب الوطن وأحب قائدي وأحب أبناء بلدي، وأنا واقعٌ الآن بينهم، في الوضع الطبيعي يجب أن نفضل الوطن على كل شيء، لكن لكل طرف وجهة نظر، وكل طرف يدعي أنه يدافع عن الوطن، إن استخدام السلطة للقوة المفرطة لإعادة هيبة الدولة وأجهزتها يجعلني صامتًا، الرئيس يقول دائمًا إن بين المتظاهرين مندسين ومخربين، ولكن في الاجتماعات المغلقة إن من يندس ويخرب هو من عناصر الأجهزة الأمنية، أنا أشعر بهذا التناقض، أتُرى الرئيس لا يشعر؟

رافقنا الرئيس إلى قصره في حي المهاجرين حيث يقيم مع عائلته، وجلست في المساء معه في الحديقة، انتبه الرئيس إلى صمتي وهو غير معتاد ذلك، وأنا أحاول تجميع الأحرف والكلمات لنطقها، ولكن أخشى من غضب الرئيس مني، فأنا لا أطيق غضبه، وإذا مر يومٌ لا أراه فيه أو لا أكلمه أشعر بشيء ناقصٍ في حياتي، علاقتي مع الرئيس أكبر من علاقة مرافق مع الرئيس، أو ضابط مع قائده، هي علاقة صداقة قوية واحترام وحب، ولكن شيطان السلطة قد يوسوس له ما لا تُحمد عقباه.

قاطع الرئيس خلوتي: "يا رجل، تكلم، منذ الظهر وأنت تريد التعليق على الاجتماع، قل ما عندك؛ أعلم أنك لست راضيًا!".

شجعني تعليق الرئيس "نعم سيدي لست راضيًا لأن القرارات التي اتُّخذت مغامرة كبيرة في مصير الوطن".

- يا علي، نحن أصحاب حق وسلطة، وعلينا حماية حقنا وسلطتنا.
- ولكن رفيق، أنا أعترض على الأسلوب.
- لا سبيل غير ذلك، وفي هذه الظروف، نحن محرجون أما العالم، يجب أن نصنع إرهابًا لنمتلك الحجة أمام العالم أجمع.
- ولكن إطلاق سراح الجهاديين وتمرير السلاح والمال لهم ربما ينعكس ضدنا.

ضحك الرئيس "لا تقلق، هؤلاء آخر من نخافهم".

- كيف ذلك؟ بينما نحن جالسون هنا والمظاهرات تزداد يومًا بعد يوم، ولا نستطيع السيطرة عليهم وهم سلميون، فكيف إذا تسلحوا؟!

- الأمور وقتها ستختلف، أنت متعاطف معهم؟

نظرت إلى الرئيس نظرة بائس، وخيبة أمل "بل أنا متعاطفٌ مع الوطن".

في اليوم الثاني وأنا في مكتبي في القصر الجمهوري "قصر الشعب"، أراجع تقارير مرئية وصلت إليَّ من مناطق عدة، وأتابع تعليق الإعلام عليها، وأقرأ التقارير الأمنية على الرغم أن هذا ليس من مهامي، فإني أتابع كل شيء حتى أصل إلى نتيجة أو حل ما ينقذ البلاد مما تذهب إليه، التقارير التي تدخل قصر الشعب تكون دقيقة بكل التفاصيل وهذه قاعدة باتت معروفة، حتى لو كانت مُدينة للرئيس، حتى يستطيع الفريق الأمني للرئيس والأجهزة الأمنية بوضع خطط لها على أثر ذلك.

كان الرئيس قبل ذلك وَكَّل إليَّ مهمة بالدخول في المفاوضات مع بعض وجهاء مدينة "حمص" لإنهاء اعتصام "ساحة الساعة" وسط المدينة، واتصلت بأحد شيوخ حمص محاولًا إقناعه بفض الاعتصام وإلا فإن العاقبة ستكون وخيمة. فشلت في ذلك وحين رفعت تقريري إلى الرئيس ضحك وكأنه ينتظر فشلي أو فشل أي مفاوضات ليبرر أن لا حل إلا الحل الأمني.

تولت المخابرات الجوية والحرس الجمهوري والفرقة الرابعة واللجان الشعبية "الشبيحة" أمر فض اعتصام ساحة الساعة في حمص، وتم ذلك يوم ٢٠١١/٤/١٨، كنت حزينًا على ما حدث، حيث جمعت القوات، وتولى العقيد عبد الحميد إبراهيم من المخابرات الجوية فض الاعتصام، الذي جعل من ساحة الساعة ساحة حرب، كانت النار تُطلق عشوائيًا حتى قتل وجرح العشرات، ونجح في فض الاعتصام، شاهدت المرئيات وأصوات الرصاص تغطي وتترجم المشهد، اعتُقلت أعداد كبيرة، ورغم ذلك أحاول جاهدًا البحث عن منافذ للخروج من الأزمة. انتقلت إلى تقارير وردتني سابقًا من قرية "بيضا" في بانياس، التي تولى أمرها بالدرجة الأولى "الشبيحة" من اللجان الشعبية، حيث اعتُقل العشرات ووضعوا في ساحة القرية وهم ملقون على وجوههم وعُذِّبوا ودُعِسوا، واغتُصب عديد من النساء، وهذا ما أثار غضبي ولكن لم أجد أذنًا مصغية لوقف هذا الأمر.

الرئيس اليوم في مكتبه ولديه عديد من اللقاءات ولن يتحرك كثيرًا، وهذا ما يجعلني أتفرغ لكل التقارير الواردة إلى القصر وأعيد قراءة التقارير السابقة، عند المساء سألتقي الرئيس في أثناء ذهابه إلى قصر المهاجرين، عليَّ أن أنهي قراءة كل التقارير التي فاتتني وأعرف ما الذي يحدث، تمر عليَّ أوقات وأيام أنشغل مع الرئيس ولا أجد الوقت لقراءة أي تقرير، مهما كان الحدث عظيمًا.

ملف باسم حمزة الخطيب وثامر الشرعي، أفتح الملف وأنصدم بصورة الطفلين، يدفعني الفضول لمعرفة أعمارهم، أتخطى السطور إلى خانة المواليد، حمزة ثلاثة عشر عامًا وثامر خمسة عشر عامًا، أعود إلى السطر الأول لمعرفة ماذا فعلا هذان الطفلان حتى يُرفع تقرير أمني إلى القصر الجمهوري ومكتب الرئيس شخصيًّا. أقرأ السطور وأنا في صدمة **لا** توصف، طفلان يُقتلان في فرع من أفرع المخابرات الجوية في "درعا" لمشاركتهما في مظاهرة يوم ٢٠١١/٤/٢٩ كانت متجهة إلى "درعا" لفك الحصار عنها، وعلى حاجز صيدا أطلق رصاص من قبل القوات الأمنية، المخابرات الجوية، والجيش على المتظاهرين وقُتل العشرات واعُتقل آخرون مِن بينهم هذان الطفلان. أتوقف عن قراءة التقرير وأستغرب برودة دم كاتبها وهو يذكر قتل الناس بهذه البساطة، بل أستغرب كل الضباط الذين يرفعون التقارير إلينا، كيف يذكرون القتل؟ ألا يشعرون بما يكتبون؟ هل أصبح في سوريا شَعبان متفرقان حتى يتصرفا مع بعضهما بهذه الطريقة لدرجة أن قتل الطرف الآخر يُذكر هكذا دون أدنى من مشاعر الإنسانية؟

أشعل سيجارتي وأسحب من تبغها بغضب، أضع يدي اليسرى على جبيني محاولًا تمرير أصابعي على آثار الألم الناتج عن الصداع الذي أصابني، منذ أشهر والصداع لا يفارقني. الشاهد على حقيقة ما يجري ويعمل على إخفائها بل المساهمة في تزوير الحقيقة، ليس كمن يحاول البحث عن الحقيقة، أما الذي يجهل الحقيقة فهذا أكثر الناس ارتياحًا رغم تعاطفه مع أي حالة.

أعود إلى قراءة التقرير، حُقِّق معهما وقُتِلا بعد تعدّيِهما على السيادة السورية وسَبّ الرئيس الخالد حافظ الأسد، بل بزق حمزة على صورة الرئيس بشار الأسد، الأمر الذي أثار غضب المحققين ودفعهم إلى تعذيبهما عقابًا

على عدم احترامهما للسيادة السورية ورموزها، وفي أثناء التعذيب قُتل الإرهابيان ثامر وحمزة بإطلاق الرصاص عليهما وأفرغ المخزن في جسديهما، وبسبب تطاول المدعو "حمزة" بُتِر عضوه الذكري ليكون عبرة لمن يعتبر. توقفت وأخذت نفسًا عميقًا، وبدأت أسعل من الدخان، شربت كأس ماء وعيناي على الورقة، كيف يُبتر عضوه الذكري؟ هل المحققون وحوش؟ هؤلاء ليسوا ببشر، توقفت عن قراءة التقرير، وبدأت أتجول ذهابًا وإيابًا في مكتبي لأخفف من غضبي، عدتُ إلى طاولتي ورفعت سماعة الهاتف واتصلت بسكرتيرة الرئيس للذهاب إليه ولكنها أخبرتني أنه في اجتماع.

"عند انتهاء فخامته من الاجتماع أخبريني" أغلقت الهاتف بغضب، هل أذهب وأدخل عليه في اجتماعه؟ لا هذه خطوة عدوانية، هل قرأ الرئيس التقرير أم لا؟ إنهم يتركون ملاحظة في آخر التقرير بأن مقتل الطفلين أثار موجة غضب شديدة وتنديدات دولية، هل يُعقل أن الرئيس لم يعرف بالحادثة؟ لقد تحول هذا الوطن إلى ميتم كبير.

أعود إلى طاولتي وأشعل سيجارة أخرى، وفتحت ملفًّا آخر، المقدم حسين الهرموش، يشير التقرير أن الضابط حسين الهرموش قد انشق عن الجيش مع عناصره ولجأ إلى محافظة إدلب، ويُعَدّ هذا أكبر رتبة تنشق عن الجيش مما ينذر بخطر قادم، مع الإشارة في التقرير عن المخابرات العسكرية تلاحق المذكور للقبض عليه، وعلمت أعيننا أنه يحاول الوصول إلى تركيا، بعد أن شكَّل ما يسمى حركة الضباط الأحرار، ويتواصل مع الضباط والعناصر الفارين من الجيش لتشكيل قوة عسكرية.

أضع التقرير من يدي وبِتّ أفكر كيف لضابط بهذه الرتبة أن ينشق عن الجيش وهو يعرف عواقب ذلك، لقد سمعنا في الفترة الماضية عن انشقاق

أفراد وصف ضباط وضباط برتب صغيرة، ولكن أن تنشق الرتب الكبيرة، إذًا فنحن أمام كارثة ستؤدي بالجيش إلى تهلكة.

فتحت الإنترنت لأعرف أسباب انشقاقه وماذا قرأ في بيانه، ظهر أمامي رجلٌ عسكري برتبة مقدم وخلفه العلم السوري، حليق الوجه والشارب، أصلع الرأس، "السلام عليكم يا حماة الديار، نترحم على أرواح شهدائنا الأبرار عسكريين ومدنيين، أنا المقدم حسين الهرموش من أمناء "فرقة ١١" قيادة الفرقة، أعلن انشقاقي عن الجيش وانضمامي إلى صفوف شباب سوريا مع عدد من عناصر الجيش العربي السوري الحر، ومهمتنا الحالية هي حماية المتظاهرين العزل المطالبين بالحرية والديمقراطية، تتلخص أسباب انشقاقنا ما يلي:

١- القتل الجماعي للمدنيين العزل في جميع أنحاء سوريا.

٢- توريط الضباط وصف ضباط أفراد الجيش العربي السوري الحر في مداهمة المدن والقرى الآمنة. لقد أقسمنا في القوات المسلحة اليمين على توجيه السلاح في وجه العدو وليس في وجه شعبنا الأعزل، مهمتنا هي حماية المواطنيين وليست قتلهم.

٣- قتل الأطفال والنساء والشيوخ في المقابر الجماعية وارتكاب المجازر الجماعية خصوصًا مجزرة جسر الشغور ٢٠١١/٦/٤. أود توجيه الرسائل التالية، **الرسالة الأولى:** نخاطب ضباط وصف ضباط وأفراد الجيش العربي السوري الحر، عليكم حماية المدنيين والأملاك العامة والخاصة والمؤسسات الحكومية من عصابات القتل والإجرام التي يقودها بشار الأسد ونظامه. **الرسالة الثانية:** إلى الشعب السوري الحر العظيم الكريم بكل طوائفه ليطمئنوا، نحن العسكريين الأحرار نذرنا نفوسنا لحماية طلاب الحرية والديمقراطية في سوريا الحبيبة. **الرسالة الثالثة:** نخاطب كل من غرر به من قبل النظام أن ينضم إلى صفوف الشباب المتظاهرين العزل الأحرار في جميع

شوارع سوريا، ولْيَعْفُ عنكم الشعب السوري العظيم، وإن لم تنضموا فسيحاكمكم الشعب محاكمة عادلة أنتم والطاغية بشار. **الرسالة الرابعة:** إلى كل أحرار العالم، الشعب في سوريا يريد ركوب سفينة الحرية والديمقراطية، وبصدوره العارية وأغصان الزيتون فساعدوه على ذلك. أخيرًا وليس آخرًا سلمية سلمية لا طائفية، واحد واحد واحد الشعب السوري واحد، سوريا باقية وبشار راحل، سوريا حرة وستبقى حرة، سوريا للجميع وليست للأشخاص، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

انتهى المقطع المرئي وأنا سارحٌ في الشاشة التي أمامي، شعور متناقض ينتابني، هل أأشعر بالغضب من ضابط انشق عن جيشه وانضم إلى المؤامرة الكونية ضد بلاده، أم أفرح من ضابط اختار الفرار على ألا يقتل أو يشارك في القتل؟ لقد وجه رسالته إلى كل الضباط وصف الضباط والأفراد، إنهم يريدون إنهاء الجيش، أين العقلاء لوقف ما يجري؟ لابد من محاولة أخرى مع الرئيس، وإلا فإننا نغرق دون أن نشعر بذلك. بل إننا نرى بأعيننا، لم يعد لي قوة وأنا أقرأ ما تبقى من التقارير المكتظة أمامي، فكل واحدٍ من هذه التقارير يحمل بين أحباره آلام الوطن وما يحدث فيه من الويلات. إنهم حقًّا يحرقون سوريا كما سمعت في هتافات اللجان الشعبية "الشبيحة"، الأسد أو نحرق البلد، ولكن ها أنا أعشق الرئيس وأفتديه بحياتي ولكن لا أحرق ولا أقتل، إنَّ حُبّ الرئيس يجب أن يُترجم إلى أفعال تخدم الوطن لا تحرقه أوتغرقه في بحر من الدماء، إن استمر الوضع هكذا فإننا أمام كارثة لا تحمد عقباها.

رفعت سماعة الهاتف واتصلت بزميلي في المخابرات العسكرية وطلبت منه "حين تعتقلون الضابط الفارّ المقدم حسين الهرموش أخبروني، أريد التحقيق معه بنفسي".

"يا حافظ قوم وشوف صرنا نسبك عالمكشوف"

إن بقيت هكذا مستسلمًا للوقت حتى ينتهي الرئيس من اجتماعاته فسأفقد عقلي، عليَّ الالتهاء بقراءة التقارير، عدتُ إلى الملفات والأوراق المكتظة أمامي وبدأت أمر على التقارير، وقعت عيناي على تقرير مرفق "هام جداً"، فتحت الملف، مكتوب اسم "إبراهيم القاشوش"، أنا لم أسمع هذا الاسم من قبل، أتُراه أيضًا ضابطًا منشقًّا أم مسؤولًا كبيرًا حتى يُرفَق إلى جانب اسمه "هام جداً"؟ أنظر إلى أسفل التقرير لمعرفة الجهة المرسلة، وإذ بي أفاجأ أن عدة أجهزة أمنية ومنها المخابرات الجوية والأمن السياسي وأمن الدولة قد رفعوا تقاريرهم حول هذا الرجل، يثير فضولي كثيرًا أهمية هذا الرجل، أتمعن في الاسم ولا أتذكر أني سمعت به من قبل، أسير بين السطور بخطًى بطيئة محاولًا فهم من يكون، وأتريث عند كل كلمة وكأني فيَّ حقل ألغام لا أريد الإسراع والتدهور حتى لا ينفجر في لغم، يُرفق بالتقرير أن إبراهيم القاشوش، أحد منشدي الثورة المزعومة من أبناء محافظة حماة، يؤلف أغانيَّ وهتافات مناهضة للرئيس والحزب والعقيد ماهر الأسد، ويقود المظاهرات في ساحة العاصي ويلهب الجماهير حتى إنه تحول إلى رمز من رموز ثورتهم، وباتت أغانيه وهتافاته تنتقل من مدينة إلى أخرى، كما أنه أصبح ملهمًا للمتظاهرين وسببًا في تزايد الأعداد، بل إن هتافاته جارحة بحق فخامة الرئيس وأعين المخبرين تتربص به للنيل منه في أقرب وقت.

أنهيت قراءة التقرير ووجدتني فضوليًّا للذهاب إلى حماة، لقد سمعت من عدة ضباط كبار حتى آصف شوكت، يقولون إن الأعداد في حماة تتزايد بل أن آصف شوكت قد هدد بتدمير حماة كما حدث في عام ١٩٨٢، بات الجلوس خلف الطاولة يتعبني، حملت التقارير بيدي وذهبت خلف الطاولة، وجلست على "الكنبة" الجلدية المريحة، وضعت ساقيَّ على الطاولة الزجاجية الصغيرة التي تتوسط مكتبي، بدأت أشعر بالراحة، وإذ بباب مكتبي يفتح، أنظر إلى الباب لأجد المستشارة الإعلامية للرئيس "لونا شبل" تدخل المكتب دون استئذان، انزلت ساقيَّ، "كن كما أنت سيادة العقيد، لستُ غريبة"، قالتها وهي تغلق الباب، ابتسمتُ لها وطلبت منها الجلوس، استغربت من هذه الزيارة المفاجئة، حيث لم نلتق كثيرًا، غير أنها جديدة في القصر، بعد أن تركت قناة الجزيرة المتآمرة على سوريا، وانضمت إلى الفريق الإعلامي للرئيس "زيارة مفاجئة ست لونا"، قامت من مقعدها وجلست إلى جانبي، نظرت بطرْف عيني إلى حركتها، وإذ بها تجلس بجانبي، تلبس بدلةً رسمية سوداء بقميص أبيض وشالٍ أحمر حول عنقها، "أراك غارقًا في قراءة التقارير". تنبهت على الفور إلى التقرير الذي بيدي ووضعته على طاولتي حتى لا تطلَّع على مافيه "لم أعرف سبب الزيارة ست لونا" محاولًا فهم ما يجري.

- أنت غارق في العمل، ألا تعطي نفسك قليلًا من الوقت؟
- هذا عملي.
- لا بأس، ولكن ليس كل الوقت، ما رأيك في سهرة اليوم؟

استغربت كثيرًا من دخولها إلى مكتبي وجلوسها ودعوتها إليَّ، أفهم جيدًا ما ترمي إليه وما تحاول الوصول إليه، كل من يدخل القصر حديثًا، يحاول أن يكسب الأطراف لصالحه ليصنع لنفسه مطرح قدم.

- أعتذر إليك كثيرًا اليوم لديَّ مهمة، ربما في وقت آخر.
- أين مهتمك؟

رمقتها بنظرة تعجب.

- أعتذر أعتذر ليس القصد. ضحكت "تعلم؟ أنا إعلامية والفضول أهم ما فينا".
- وأنتِ الآن في مكانٍ الفضول فيه أسوأ شيء، وأي فضول في غير مطرحه سيترك عنكِ انطباعًا ليس جيدًا.
- على مهلك، على مهلك.
- ست لونا، أراكِ في وقت لاحق.

وقفت وتبسمت ابتسامة لؤم، ظهرت غمازتان على خديها الجميلين وذهبت.

رحتُ أرفع السماعة وطلبت من مساعدي أن يجمع معلومات حولها، ولكنه أتاني بعد لحظات قليلة، "سيدي، هي أتت عن طريق السيدة بثينة شعبان".

- هل لديك أي معلومات عن لقاءاتها داخل القصر؟
- تقضي أغلب وقتها مع الرئيس في جناحه الخاص.
- انصرف.

بينما ينصرف مساعدي الذي يعمل ضمن فريقي الخاص في القصر، رن هاتفي، وإذ بالسكرتيرة الخاصة بالرئيس تخبرني بأن الرئيس في انتظاري. رتبت الأوراق فوق بعضها، ووضعتهم في ملف وتوجهت إلى مكتب الرئيس، دخلت مكتبه وبيدي ملفٌ كبير أحمله في يدي اليمنى، أديت التحية العسكرية، بادرني الرئيس بالتساؤل: "بربك، ما هذه الملفات؟".

- بعض التقارير التي رفعت إليكم مسبقًا وأريد مناقشتك في بعضها.
- ليس وقتها يا علي، أنا اختنقت من الاجتماعات.

قام الرئيس من خلف مكتبه واستدار نحو الباب "ضع التقارير من يدك واتبعني".

وضعت التقارير على مكتب الرئيس وتوجهت معه، نزلنا إلى حديقة القصر جناح الرئيس، حيث لا يتجول فيه إلا الرئيس وبعض الأفراد من الخاصة، وحتى الحرس فيه قليل، على بعض الزاوية فقط، كونه يقع خلف القصر ولا أبواب تؤدي إليه سوى باب واحد من جناح الرئيس، ومراقب بالكاميرات. ومن جميع الجوانب أشجارٌ تغطي الأسوار ومسبحٌ يتوسط الساحة. وقف الرئيس مناظرًا إلى الجبل الذي أمامنا ووضع يده خلف ظهره، وصامت.

- سيدي، أراك قلقًا!
- الوضع ليس بخير.

صمتُّ قليلًا "أعلم ذلك".

- جميع الخطط التي وضعناها في حاجة إلى بعض الوقت لتؤتي نتائجها، ولكن الوقت ليس لصالحنا.

- وهل الأجهزة الأمنية فشلت في تهدئة الأوضاع؟

التفت إليَّ الرئيس ويداه خلف ظهره "هذا ما يؤرقني، الحل الأمني لم يخفف من المظاهرات بل أراهم يكثرون في الشوارع".

- سيدي، الحل الأمني منذ البداية لم يكن حلًا مناسبًا.

- دعك من فلسفتك، فنحن في سوريا لا في أميركا، لدينا وضعنا وهيبتنا، ستضيع هذه الهيبة بالمفاوضات، ثم إنهم لا يقبلون أي حل سوى رحيلي أنا وكل النظام وأنت معنا.
- سيدي، القتل والقمع لم يولدا سوى ردة فعل، لن يخيفا الناس.
- وهذا ما يثير استغرابي، ردة فعلهم كثرة المظاهرات، نريدهم أن يحملوا السلاح لنلقنهم درسًا لن ينسوه.
- حمل السلاح ليس في صالحنا صدقني.

توجه الرئيس إلى كرسي وجلس عليه وأشار إليَّ بالجلوس ووضع ساقًا على ساق "لقد طلبت من رؤساء الأجهزة الأمنية بالترتيب مع شخصيات مدنية وعسكرية وأمنية وسياسية للانشقاق والانضمام إلى الطرف الثاني حتى يكونوا عيوننا وينفذوا أوامرنا، هكذا نحرضهم على حمل السلاح، وإن كثر السلاح فستكون حجتنا قوية أمام العالم، خلق الإرهاب هو أفضل حل حاليًّا يتناسب مع هذه المرحلة".

- أخشى ما أخشاه أن تنقلب حساباتنا كلها ضدنا.
- إذًا،فما الحل برأيك؟ ولا تقل مفاوضات، لقد أعطيتك فرصتين وفشلت.
- لكن سيدي، الفرصتان كانتا دون حلول، بل كانتا أوامر بفض التظاهر مع التهديد، أريد فرصة معها الحلول وقتها.

قاطعني الرئيس "ستفاوضهم على رحيلي؟!".

- على روحي ودمي لن يحدث ذلك، ولكن ألا ترى أن الضباط يتنافسون على القمع من أجل مصالحهم؟ ألم تسمع بقصة حمزة الخطيب وما فعله اللواء جميل الحسن من فظاعات وجرائم لإثبات نفسه وجهازه؟

أنا أخشى من ضباط لا يعملون إلا لأنفسهم ومصالحهم، لا من أجل حفظ الوطن والنظام.

- انتبه يا علي! أنت تأتي بذكر أفضل ضباطنا.

- سيدي أنا...

قاطعني الرئيس "أتعجب من ضابط مثلك كيف يرق قلبه!"

صمتُّ، ونظرت إلى عين الرئيس، وكأنه يقول إن الجيش لا يُخرج إلا وحوشًا، ولكن الرئيس باتت تثقله انتقاداتي، عليَّ أن أنتقي ما أقوله ولكن لن أقول إلا الصدق، تنفست ووضعت رأسي في الأرض، ورفعت عينيَّ إليه "هذبني عشقُ زينب يا سيدي".

العشق يا سيدي يوصلنا إلى سمات الإنسانية، ويجعلنا زاهدين في كل ما هو يناقض الجمال والسمو، عندما رأيتك أول مرة في القرداحة وأنت حديث العهد في سوريا، كنتَ إنسانًا بسيطًا، اليوم تقاتل تلك البساطة بل وتنكرها عليّ. هل السلطة تفعل كل ذلك وتجعلنا أناسًا آخرين؟ ولكني لم أتغير ولم تغيرني السِّنون، مازلت على عشق زينب وعفو أبي وطيب أمي، ومازالت رائحتي من رائحة تراب الأرض، ومازلت على السلام الذي تربيت عليه من أشجار الزيتون. لو أحببت يومًا يا سيدي لعرفت ما أعنيه. ولكني لم أقل أي شيء من هذا الكلام للرئيس، يعز عليَّ إحراجه وجرحه بأي كلمة أو تصرف يصدر مني. بل تبسمت قليلًا وطلبت الانصراف، لديَّ مهمة عليَّ أداؤها.

ركبت سيارتي ولحق بي الحرس وتوجهت إلى ميادين المظاهرات، إلى ساحة العاصي في مدينة حماة، أريد رؤية كل شيء عن قرب وأريد سماع القاشوش عن قرب قبل قتله من قبل القوات الأمنية، نحن في حرب مستعرة

لا يعرف المرء حين يخرج من منزله أيعود ثانية على قدميه أم على أكتاف محبيه. دخلت مدينة حماة حيث تنتشر الحواجز الأمنية بشكل مكثف على مداخل ومخارج المدينة، ومداخل الأحياء نفسها في محاولة من الأمن لتقطيع أوصال المدينة لمنع تدفق المتظاهرين إلى ساحة العاصي، وصلت إلى الحاجز وعرَّفتُ نفسي، طلب مني الضابط التوقف وركن السيارة بعد أدائه التحية العسكرية، لأن الطريق مغلق ولا يمكن دخول السيارات، نزلت من سيارتي التي أقودها بنفسي وطلبت من حرسي الخاص اللحاق بي دون لفت الأنظار، وضبط النفس مهما تعالت الهتافات، حاول الضابط المسؤول على الحاجز ردعي خوفًا على حياتي، لكني مُصِرٌّ على المضي قدمًا نحو الساحة. "ولكن سيدي، هؤلاء مخربون ومندسون وإن عرفوا هويتك ومن تكون فسيقتلونك".

- حضرة الرائد، قم بعملك ودعني أقوم بعملي، لا عليك، معي سلاحي إن لزم الأمر، وها هم الحرس من حولي.

بدأت المسير نحو التظاهرة أنا والحرس نلبس اللباس المدني، تفرَّق الحرس على شكل حلقة دائرية كبيرة لعدم لفت الأنظار ولتأمين ظهري وإعطاء مساحة جيدة من أمامي لكشف أي شخص يحاول الهجوم. كلما أقترب يقترب صوت المتظاهرين "الله سوريا حرية وبس" يرددونها بحماسة زائدة، ولكن اعتدنا في سوريا أن نقول "الله سوريا بشار وبس"، هذا شعارٌ وطني وهم يردون عليه. إنهم في حركة احتجاجهم يريدون نزع اسم الرئيس من اسم سوريا، وتحديد صلاحياته، "حرية، حرية" يرددونها بحرقة قلب كالفاقد لشيء يريد الحصول عليه، وسبق أن سمعت هذا الهتاف في حرستا، ولكن الحرية من أولويات حزب البعث العربي الاشتراكي وضمن شعاراته، إذًا فما الحرية التي يريدون الحصول عليها؟ وصلت إلى شارع طويل، على يميني مبانٍي سكنية وأمامي ساحة كبيرة للغاية يتوسطها ساعة ضخمة، ولا يمكننا

التقدم أكثر، وقفت حيث وصلت، لقد اختار القاشوش مكانًا استراتيجيًّا له يتوسط الساحة حيث لا يمكن الوصول إليه، يقف على منصة ويهتف عبر مكبرات الصوت، ويرد من بعده المحتجون، لا يمكن رؤيته وسط هذا الطوفان البشري، نظرت إلى ساعتي، إنها الساعة الثامنة مساءً، صوتٌ قوي أجش يهتف، إنه القاشوش، إنه حقًّا يشبه صوت نواعير حماة، فمهما أصدرت الناعورة صوتًا مزعجًا مع كل دورة من دورانها، فهي محببة على قلب أهالي المدينة، وهكذا يبدو القاشوش، صوتًا أجشّ، قويًّا، يزعج الأمن والسلطة ولكنه يلهب قلوب الجماهير.

أعطيت ظهري إلى الحائط، وأنظر أمامي إلى هذا العدد الهائل من الناس، والحرس الخاص بي على بُعد أمتار قريبة مني.

"يا حافظ قوم وشوف صرنا نسبك عالمكشوف"، كانت الجماهير قد بدأت بتململ حتى سمعوا هذا الهتاف من القاشوش لدب الحماس، ويبدأ الناس بالصياح وترديد الهتاف، لكن الهتاف وقع على مسامعي ثقيلًا، هل كانوا يبغضون الرئيس حافظ الأسد ولا يجاهرون بذلك؟ هل كانوا يشتمونه بعيدًا عن أذن السلطة والأمن رغم الحب الذي كانوا يظهرونه؟ إنهم يتخطون المحرمات، إنه حافظ الأسد الذي كان شوكةً في حلق إسرائيل، لماذا يكرهونه؟ وبدأ هتاف أثقل قلبي وبصوتٍ جماعي، آلاف البشر يرددونها "يلعن روحك يا حافظ"، أعادني هتافهم إلى عشر سنوات مضت، حين توفي الرئيس عام ٢٠٠٠، كنت وقتها ضابطًا صغيرًا في الحرس الجمهوري برتبة نقيب، كنت بمنطقة عين الخضراء بريف دمشق، عند الساعة السابعة صباحًا توجهت إلى الساحة حيث سيكون الاجتماع الصباحي، بينما أشرف على ترتيب الطابور، دخلت سيارتان عسكريتان بشكل مسرع ووقفتا عند مبنى الضباط، وبعد قليل نُودي بالمذياع الخاص الموزع على أطراف الساحة

بالاجتماع فورًا لكل الأفراد وصف الضباط والضباط، ونزل الضباط واحدًا واحدًا وسط استغراب الجميع.

وقف الضابط المسؤول "لقد صدر قرار بمنع الإجازات وعودة كل الضباط وصف الضباط والأفراد من إجازاتهم"، الجميع ينظر إلى بعض "ماذا هناك؟"، واستطرد الضابط "وتُرفع على الفور الجاهزية القتالية بنسبة ١٠٠% واستنفار على الدرجات القصوى في كافة التشكيلات العسكرية في الجيش العربي السوري وتُنصب راجمات الصواريخ على الفور".

إنها الحرب، بدأت الأصوات تتهامس، هل هاجمتنا إسرائيل؟

"اليوم" صمت الجميع وأعار انتباهه "اليوم فقدنا قائد الأمة العربية الرفيق حافظ الأسد رئيس الجمهورية الخالد في قلوبنا". بدأنا جميعًا في البكاء والنحيب، وبشكل لا إرادي بدأ كل مَن في الساحة بالهتاف "إلى الأبد إلى الأبد يا حافظ الأسد". لم أُصطحَب مع باقي الزملاء إلى القرداحة لتأمين الجنازة كما فعلنا مع باسل الأسد، بل نزلنا إلى شوارع دمشق لتأمين المناطق الحساسة والشوارع الرئيسة وتأمين طرقاتها، لأن زعماء العالم سيتوافدون على سوريا للمشاركة في تشييع الرئيس حافظ الأسد، سوريا لبست السواد وكل من وقعت عليه عيناي كان يبكي وينتحب، كانت النساء يشدُدن شعرهن حزنًا.

اليوم أرى الجموع في ساحة العاصي يهتفون "يا حافظ قوم وشوف صرنا نسبك عالمكشوف"، احمر وجهي ولكني ضبطت نفسي، وأنظر إلى الحرس خوفًا من أن يقوموا بأي ردة فعل تكون نتائجها كارثية، كنت أومئ إليهم بحاجبيَّ رافضًا القيام بأي حركة، التعليمات هي ضبط النفس، أبحث عن المندسين والمخربين لا أجد، كل الذين هنا يهتفون ضد السلطة والرئيس.

هذا القاشوش يعرف كيف يحرك المتظاهرين، بدأوا من جديد "جنو جنو البعثية لما طلبنا الحرية، ويلعن روحك يا حافظ يا ابن الحرامية". أتعجب من هذا الكره بحق الرئيس الراحل حافظ الأسد، الأسئلة تتدفق إلى رأسي لأعرف ذلك، ولكنْ شيءٌ واحد يخطر لي، ما حدث في حماة عام ١٩٨٢ في حرب الجيش مع الإخوان المسلمين، وتولى وقتها القيادة الميدانية رفعت الأسد شقيق الرئيس حافظ الأسد قائد سرايا الدفاع آنذاك التي تحولت إلى الفرقة الرابعة، ونُفي رفعت إلى الخارج بسبب الخلاف على السلطة مع أخيه.

هل يُعقل أن الجيش وقتها استخدم القوة المفرطة أكثر من الآن؟ أحاول فهم هذا الكره ولا أفهمه، أما حزب البعث فلقد سمعت أن المتظاهرين يطالبون بتغيير الدستور الذي ينص في مادته الثامنة أن الحزب هو قائد الدولة والمجتمع، إنهم يريدون تغييرًا جذريًّا وهذا مالا يقبله الرئيس. الهتافات تتكرر والناس يرددون بملل ربما قد تعبوا، باستثناء تلك المجموعة التي تتوسط الساحة ومن حول القاشوش لا يتعبون ولا يكلون، لكن ليس جمهور القاشوش من يمل، بدأ القاشوش بهتافه الشهير حتى بدأ منهم في آخر الساحة يتفاعلون "يلا إرحل يا بشار، ويا بشار ويا جبان ويا عميل الأمريكان، ويلا إرحل يا بشار"، ويرد الجماهير بصوت واحد "يلا إرحل يا بشار"، "ويا بشار وطز فيك وطز في اللي بيحييك ويلا إرحل يا بشار". بدأ الناس بالصفير والضحك.

قبل أن أغادر الساحة أدركت أن هذا القاشوش لن يطول وسيُوصَل إليه بأي طريقة، إنه خطرٌ حقيقي في إشعال وإلهام الجماهير، فإن لم يصل إليه اللواء جميل الحسن والمخابرات الجوية، فسيصل إليه آصف شوكت ومعه المخابرات العسكرية، الذي هدد بإبادة حماة.

بدأ الجيش بالانهيار رويدًا رويدًا، الانشقاقات تتوالى وتصل إلى أكبر الرتب، وبدأت الانشقاقات تطول الأجهزة الأمنية والسياسية والدبلوماسية، والأجهزة المختصة تفشل في احتواء الموقف، بات تحرُّك الرئيس محدودًا وعلى نطاق ضيق، وباتت الحلقة الخاصة بالرئيس تضيق وتحركاته لا تُعرض إلا على أقرب المقربين، حتى العاصمة دمشق بكل حجمها باتت ضيقة علينا، وكأن الخطط التي وُضعت لا تأتي بنتائجها، وصل إليَّ تقريرٌ من حماة عليه اسم القاشوش "إبراهيم القاشوش"، قبل فتح الملف عرفت ما فيه، وحين قرأته كان توقعي في محله، لقد نالت القوات الأمنية من القاشوش، واعتُقل وقُلعت حنجرته التي كانت تصدح ضد الرئيس شخصيًّا، ورُمِي في نهر العاصي، لقد توقعت هذا المصير لهذا الشاب، ولا أعلم إن كان يتوقع هذا المصير لنفسه في يوم من الأيام، لقد تحول إلى أيقونة للمتظاهرين وباتت هتافاته تذاع في جميع ميادين التظاهر في سوريا.

لم يعد الرئيس مرتاحًا لما يجري وبدأ يشعر بالقلق، وبات أكثر أوقاته متوترًا وعصبيًّا، الخطط التي وضعها لمواجهة الاحتجاجات الحاصلة في البلاد لم تؤتِ ثمارها بعد، على الرغم من أن أحد أهداف الخطة قد طُبِّق بحمل السلاح، وبدأت بعض الاشتباكات تحدث في عدة مناطق مختلفة من البلاد، ولكن ما حدث من انشقاقات داخل الأجهزة الأمنية والعسكرية تحديدًا قد صدم الجميع.

حتى الرئيس أصبح قلقًا وخائفًا من كل الذي حوله، وأصبح يتوقع انشقاق أي شخص، حتى اضطر رؤساء الأجهزة بافتعال انشقاقات مزيفة لزرع عيونها وأجنداتها في الطرف الآخر، ولكن حتى تحقيق نتائج ذلك، لربما يفوت الأوان، التقارير الأمنية الواردة مقلقة للغاية، حتى إن الرئيس فاجأني بسؤال وضعني أمام واقع قد يبدو أخطر مما أتخيل.

جلست معه في مكتبه الخاص في قصر المهاجرين، كان الرئيس في حالة اضطراب شديدة، وبادرني بسؤال "هل يمكن أن تنشق في يوم من الأيام يا علي؟".

- لن يبعدني عنك سوى الموت يا سيدي.
- أنا لا أشك فيك يا عليّ، على العكس ثقتي بك أكثر من ثقتي بأغلب ضباطي، ولكن السفينة تغرق، ما الذي يجعلك تبقى فيها ولا تقفز؟
- لكل شيء دوافعه، ودوافعي كثيرة، منها قسمي العسكري الذي أنا أقدسه، عشقي لك الذي لا أبدله، وولائي لك مطلقٌ، ودَينك في عنقي لا أنكره، أنت من حققت حلمي، وبنيت مستشفًى في "الشراشير" باسم زينب، أنت خلدت اسمها في الوقت الذي كنت أنا عاجزًا عن تحقيق ذلك.
- ما يريحني مبادؤك يا عليّ وحبك للوطن، وتمسسكك بالثوابت، ونظافة قلبك ويدك لم تتسخ، ولم تستغل يومًا منصبك مثل باقي الضباط.
- أعطني فرصة حقيقية، نضع الحلول معًا، لربما ننهي ما نحن فيه، ونغلق الطريق أمام المعارضة والمتظاهرين، نلبي بعض المطالب، والصعب منها نناقشها، دعنا ننقذ الوطن معًا، الناس إن وجدوا منك محاسبة حقيقية لبعض الضباط سيسمعون منك، نحن قادرون الآن على الالتفاف عليهم صدقني.

أمعن الرئيس في كل ما قلته وصمت برهة ونطق "حضر ورقتك لنناقشها".

ابتسمت وفرحت، ولكن سؤال يحيرني "رفيق، هل ما يحدث في سوريا ثورة حقًا أم مؤامرة؟".

مناظرة وطنية مع حسين الهرموش

- إنها ثورة حقيقية ضد الفساد والمحسوبيات والقمع، ثورة من أجل الحرية والكرامة والديمقراطية، ثورة عفيفة وعفوية.

بهذه الكلمات رد الهرموش على سؤالي عن رأيه في ما يحدث في سوريا، إن كانت ثورة أم مؤامرة.

تلقيت اتصالًا عند الساعة العاشرة صباحًا في مكتبي بالقصر الجمهوري، وأنا منهك في قراءة التقارير الواردة من المدن والمحافظات عن آخر التطورات الحاصلة التي انعكست على داخل الهيكلية الأمنية وشرخت بين الضباط أنفسهم الذين على خلافٍ مسبق فيما بينهم، ولكن الصدأ قد وصل بين أهم رجلين في السلطة: الرئيس وصهره آصف شوكت، صاحب النفوذ القوي في البلاد، خلق جوًّا من التوتر داخل أروقة القصر، أحاول التدخل بطريقة ما لإنهاء هذا الصدأ الذي سيجلب نهاية النظام في سوريا إن تطور، ولكن لم أكمل ما كنت قد بدأت فيه حتى أتاني اتصال يخبرني فيه أحد الضباط أن أجهزة المخابرات قد وصلت إلى المقدم الفار حسين الهرموش وأصبح منذ ليلتين في قبضة المخابرات العسكرية.

- منذ يومين؟! لماذا لم تخبروني؟ قلتها غاضبًا خلال الهاتف وكدت أحرق يدي من السيجارة التي كانت بين أصابع يدي اليسرى وأنا أثور غضبًا.
- عفوًا سيدي، كان على العملية تكتم كبير جدًّا، ونفَّذها كبار الضباط حتى أوصلوه إلى دمشق. رد بصوت هادئ خائف.
- أين هو الآن؟
- كان في فرع ٢٩٣، وهو الآن في مبنى الإذاعة والتليفزيون لتسجيل اعترافاته وبثها على الهواء، وبعدها سيُنْقَل إلى سجن صيدنايا العسكري.
- بعد الانتهاء من التسجيل أعيدوه إلى الفرع ولا تأخذوه إلى السجن، وسأخرج على الفور في اتجاه الفرع.

أنهيت المكالمة وأطفأت سيجارتي، وحملت سلاحي واضعًا إياه على خصري للذهاب إلى فرع ٢٩٣ شعبة المخابرات العسكرية في ساحة الأمويين التي يترأسها اللواء الركن عبد الفتاح قدسية، أحد كبار الضباط النافذين في سوريا، أنا على خلاف كبير في السلوك معه، فهو جعل من الفرع بحسب التقارير الواردة مقبرًا لكل من دخله، وتحديدًا لكل من انشق من الجيش والأجهزة الأمنية.

ركبت سيارتي وانطلقت نحو ساحة الأمويين التي لا تبعد كثيرًا عن مكتبي في قصر الشعب، أنا على عجلة من أمري، ولكن لماذا لا أعلم؟!، ماذا أقول له؟ لا أعلم، وأساسًا لا أعلم سبب زيارتي له، لكن كل الذي أعرفه، أنه أول رتبة كبيرة تنشق عن الجيش. وصلت إلى مدخل شعبة المخابرات العسكرية، وفتحت الأبواب أمام السيارات الرئاسية، أخبرني الضابط على الباب، أن اللواء رئيس الشعبة في انتظاري بمكتبه. أعلم أنه سيكون في انتظاري، يود أن يعرف كل شيء.

وصلت إلى مكتبه في الطابق الثالث، وكان المكتب مستنفرًا في أثناء دخولي، وقف الجميع مستعدًّا في أثناء مروري إلى مكتب اللواء قدسية، بل فتح الباب على الفور، الجميع يتساءل مستغربًا: ماذا يفعل الحارس الخاص بالرئيس هنا؟ وقائد كتيبة في الحرس الخاص، حتى اللواء نفسه يريد معرفة ذلك، ولكني شخصيًا لا أعرف ذلك.

"تحياتي سيادة اللواء"، زارعًا ابتسامة خفيفة على وجهي ومؤديًا التحية العسكرية، أنا أمام شخصية عسكرية وأمنية كبيرة، صاحب نفوذٍ كبير لا يمكن أن أمارس عليه نفوذي.

- أهلًا أهلًا سيادة العقيد علي، فوجئت حين أبلغوني بزيارتك!

تنفست الصعداء "أتمنى ألا تكون زيارتي ثقيلة عليكم".

- اجلس لا تقل ذلك.

جلست وطلب اللواء فنجانين من القهوة، وبعد أن صرف الحاجب.

- قل لي سيادة العقيد، كيف حالة فخامة الرئيس؟
- إنه بخير.
- هل أنت هنا بأمر من الرئيس؟!

كنت منتظرًا سؤال كهذا من رجل لئيم.

- أنا هنا باسمي لا باسم الرئيس، أريد مقابلة الهرموش.

- فوجئت حين أبلغوني أنك طلبت إعادته إلى هنا وليس نقله إلى صيدنايا واستغربت كيف وصل إليك الخبر!
- سيادة اللواء، نحن في القصر مستيقظون لكل ما يجري في البلاد.

ضحك اللواء "بكل تأكيد، ولكن باعتبارك هنا باسمك لا باسم الرئيس، يحق لي معرفة سبب لقائك إياه، وسبب طلبك ببقائه هنا وليس بنقله إلى صيدنايا!

- في الحقيقة، أنا طلبت إعادته إلى هنا للقائه أفضل من أن أذهب إلى صيدنايا، فالمسافة كبيرة، وبعد انتهائي منه خذوه إلى حيث تريدون.

نظر إليّ اللواء مبتسمًا "لم تقل لي سبب زيارتك له!".

- فضول شخصي لا أكثر، لديَّ أسئلة خاصة بي أريد معرفتها منه.

- لو طلبت لأرسلنا محضر التحقيق بالكامل إلى مكتبك بكل سرور، بكل الأحوال سيقول كل اعترافاته على التليفزيون.

ضحكت قليلًا "ما سيذاع على التليفزيون نحن من كتبناه، أنت تتحدث مع عقيد في الحرس الخاص، العفو منك سيادة اللواء".

تبسم اللواء "ليس القصد التقليل من خبرتك، ولكن إن أردت فسأسلمك نسخة من محضر التحقيق".

- أسئلتي مختلفة عن أسئلتكم حضرة اللواء.. والمحضر تحصيل حاصل لعرضه على فخامة الرئيس.

رأيت اعتراضًا وعدم رضّا على وجه اللواء وقبل أن ينطق...

- عفوًا سيادة اللواء، لا تعتبر زيارتي هذه نوعًا من تدخل القصر في شؤونكم، وإن أردت أن تكون أكثر ارتياحًا من زيارتي، فاعتبرها زيارة زميل، أي زيارة خاصة، ولديَّ فضول للقاء هذا الفار الخائن، أما إن أردت أن يكون كل شيء قانونيًّا، فأنا على استعداد أن آتي لك باستثناء رئاسي خلال دقائق.

- لا، لا، الأمر ليس هكذا كما فهمت، إنه مجرد فضول لأني مفاجأ بزيارتك، ليس هناك أي مشكلة، أتريد رؤيته هنا في مكتبي أم في مكتب آخر؟

- أريد رؤيته في زنزانته.

علامات استغراب على وجه اللواء "كيف؟ ولكن !".

- سأكون مرتاحًا هكذا، فقط جردوا غرفته من كل شيء، واسمح لي بإدخال كرسي لي إلى الزنزانة.

استغرب اللواء طلبي "كما تريد".

خرجت من مكتب اللواء بعد أن شكرته على تعاونه، رغم لؤمه وفضوله، وتوجَّه معي اثنان من الحرس نحو زنزانة الهرموش، الذي وقع بمكيدة المخابرات السورية في تركيا، ولبى دعوة عشاء من ضباط في المخابرات التركية وخُدِّر وسُلِّم إلى المخابرات السورية، وكان هذا التعاون خفيًّا عن أعين الإعلام الذي ركز على الخلافات السياسية بين سوريا وتركيا، ونجحت المخابرات السورية في عقد اتفاق ثمين مع المخابرات التركية لتسليم الهرموش بهذه الطريقة، وصلت إلى الطابق الأرضي وبدأت أسمع أصوات التعذيب من الزنازين وروائح كريهة تفوح من المكان، استدرت نحو الحارس وكان معنا ضابط "اطلب من جميع المحققين أن يوقفوا التعذيب حتى أنتهي وأخرج من هنا، هيا"، لا أطيق سماع هذه الأصوات، أو ربما لا أريد سماع صوت التعذيب لغايةٍ ما لا أعرفها.

وصلت إلى زنزانة الهرموش، الباب مفتوح بعدما جُرِّدت زنزانته من كل شيء، يقف على الباب حارس وبيده كرسي ينتظر وصولي، دخلت الزنزانة ووضع الكرسي، أنظر إلى الهرموش الواقف وينظر إليَّ باستغراب من هذا التحرك أمام زنزانته، أناظره من الأسفل إلى الأعلى وهو ينظر بعينيه دون أن

يتكلم أحدنا، استدرت نحو الحرس "اتركوا الكرسي واخرجوا جميعًا وأغلقوا الباب"، حاول الحرس الاعتراض ولكن "نفذوا الأمر هيا". خرجوا جميعًا وأغلقوا الباب ووقفوا خلفه يرمون مسامعهم على حديثنا لأنهم سيُسألون عن فحوى الحديث، اللواء عبدالفتاح قدسية والجميع يريد معرفة السبب الحقيقي من زيارتي. يداي في جيب بنطالي الأسود، كنت قد خلعت ربطة العنق.

أخرجت يدي وسحبت الكرسي وجلست وأخرجت سيجارة وأشعلتها، وأنا أنظر إلى الزنزانة الضيقة، مترين بالعرض وبالطول، ونافذة وحيدة لدخول الهواء من أعلى باب الغرفة، أتمعن في الزنزانة، بينما يتمعن فيَّ الهرموش الصامت والواقف، استدرت بنظري نحوه وأنا أنفخ الدخان في وجهه "هل تعرف من أكون؟".

- لا يهمني من تكون.

ابتسمت له "لم أنت واقف؟ اجلس".

- أنا مرتاح هكذا.

نفخت مرة أخرى في وجهه غيمة دخان من السيجارة "كما تريد، هل تدخن؟".

- ولا أطيقه.

ضحكت قليلًا "هذا شأنك، هل تعرضت للتعذيب؟".

ضحك قليلًا "ليس بعد، ومستغربٌ كرمكم هذا!".

عنفوانه يقتلني وبرودته في الجواب تُثقل عليَّ الأمر، أنظر إلى وجهه لا يبدو كما ظهر في المقطع المصور في أثناء انشقاقه، ذقنه خفيف، ويبدو انه

أكبر مما كان عليه في المقطع المصور، وشعره قد طال نوعًا ما، يلبس قميصًا أبيض وبنطالًا أسود. للوهلة صمتنا نحن الاثنين ننظر إلى بعضنا، رميت سيجارتي على الأرض ودستها بحذائي الجلدي الأسود، ووضعت ساقًا على ساق.

- قل لي ما الذي دفعك للفرار من الجيش، وأنت مقدم ومجتهد أيضًا؟
- أنا لستُ فارًّا، أنا أعلنت الانشقاق عن جيش قاتل.

أصدرت ضحكة بسيطة "هل يعجبك وضعك الآن في هذه الزنزانة الحقيرة؟!".

- لكن ضميري مرتاح، ويبقى أحسن من ضمير من يسكن في القصر!
- من القصر؟! ألا يثير فضولك من أكون؟!
- قلت لك لا يهمني من تكون، مجرم من مجرمي النظام.
- وحكمت عليَّ بالإجرام، كما تريد، أنا العقيد الركن علي زين العابدين من مرتبات الحرس الجمهوري، الحارس الخاص للرئيس وقائد كتيبة في القصر والمسؤول عن تأمينه.
- ألم أقل لك إنك أحد مجرمي النظام؟ هل ستقنعني بأنك نظيف اليد؟ يستحيل لولا أنك مثلهم لما دخلت القصر.

عدلت جلوسي "اهدأ يا هرموش ولا تعجل بالحكم، هل يقينك بأنك مقتول يدفعك إلى هذه الجرأة؟"

- الخير فيما اختاره الله.
- وما أنت فيه تسميه خيرًا؟

أومأ برأسه وتنفس بأنفه، شعرت وكأنه يتعاطى مخدرًا "بكل تأكيد هو خير، سألاقي ربي وأنا بريء من دم الأبرياء".

- ألستم السبب في إراقة هذه الدماء؟!

- وهل رأيتنا نحن من يقتل المتظاهرين ويقتحم القرى والمدن والبلدات؟ هل ترانا نحن من نعتقل ونعذب ونغتصب النساء؟ هل ترى نحن من ندهس الناس ونطلق عليهم الرصاص الحي؟!

- لكنكم أنتم سبب كل ذلك، أتريد من الدولة أن تصمت وهي ترى المندسين والمخربين يجتاحون البلاد ويشاركون في مؤامرة؟

- فلنتفق أولًا، من "نحن" الذين تقصدهم؟

- أنتم يا معشر "الثوار".

- لقد أنهيت الحديث، ثوار لا مخربون كما تدعون، لقد أصبحتم أضحوكة العالم بسبب روايتكم هذه.

- ما الذي كان ينقصكم؟ قل لي! الأمن والأمان، والحرية التي تزعمون هي من مبادئ الحزب، الحياة المعيشية هي الأرخص في المنطقة، لدينا اكتفاء ذاتي في سوريا، ما الذي تريدونه حتى أوصلتم البلاد إلى ما نحن فيه الآن؟ قلتها بصوت غاضب مرتفع.

- ينقصنا الكرامة، الحرية الحقيقية، لا التي تزعمها في حزبك، ذكرت كل ذلك ولم تأتِ بذكر المحسوبيات والفساد والتسلط.

قاطعته بصوت عالٍ "لماذا لم تكن تقول هذا قبل ذلك؟ لماذا الآن؟!"

- لم نكن نتجرأ بسبب بطش المخابرات.

- وهل أتتكم الجرأة الآن في هذا التوقيت؟!

- ثورات الربيع العربي كانت دافعًا قويًّا لتحريك المياه الراكدة.

- قصدك الربيع الصهيو أميركي!

- قلت لك لقد أصبحتم أضحوكة العالم بهذا الاتهام.

- قلت لي أضحوكة! ولكن تقولون حرية، وهل الحرية تنال بالتخريب؟! إنما الحرية تُدرس ونحن لا نزعمها في الحزب، بل أحد ثوابت الحزب!

ضحك الهرموش أخيرًا وأدار ظهره نحو الحائط وجلس ونظر إليَّ "لا أستغرب أن يكون ضابط برتبة عقيد ركن وحارس للرئيس بهذه البساطة، إن كان من يحكم البلاد أبله، فهذا هو سبب الفساد الذي أوصل البلاد إلى ما هي عليها.

وقفت على قدميَّ وصرخت في وجهه "لا تُسئ الأدب يا هرموش وإلا ستجد مني ما لا يرضيك".

وقف الهرموش وانفعل للمرة الأولى "أي تخريب تقول؟! الحرية التي نطالب بها، لا شعارات نتغنى بها ونضعها على لافتات مقرات الحزب مثلكم، الحرية المنشودة أن يكف البطش عن أفواهنا، وأفواه المواطنين التي تصدح في كل ميادين سوريا، خرج الناس في مظاهرات سلمية راقية يشهد لها العالم أجمع، جوبهت بالقتل والرصاص والقنابل والتخريب الذي تدعيه، أنتم من قمتم به".

أمسكته من أعلى قميصه عند العنق وضغطت على أسناني واحمرت عيناي وأزوره، بدأت أتنفس، تركت القميص من قبضتي، وتوجهت نحو الباب واستدرت وعدت إليه سائله "ماذا يعني لك الوطن ها؟ قل لي، هل يعني أن تنشق وينهار الجيش ويستغل العدو ذلك، وتعرض الوطن للخطر؟ قل ماذا يعني لك الوطن؟".

هدأ الهرموش وأجاب بهدوء سلس "الوطن أن نحميه حتى من أنفسنا، حُبّ الوطن أن نترجمه إلى أفعال لنحميه، لا إلى أقوال فندمره ونسبيه، وأنتم سبيتم الوطن بقبضتكم الأمنية، الوطن أن يكون مواطنوه بكرامتهم وأن

يشعروا بإنسانيتهم، الوطن هو الدماء الزكية التي تراق بأيديكم، الوطن هو صوت ثكلى وأنين معتقل، الوطن ألا يكون فيه من أمثالكم مستعدون لتدميره من أجل مصالحكم، اذهب أيها العقيد وابحث عن الوطن في ميادين التظاهر في سوريا، ستجده في هتافات الثوار، وستشعر بالدفء من صدق ما يقولونه، الوطن ألا يكون فيه جلادون مثلكم، الوطن هو حنجرة ثائر اقتلعتموها، الوطن أن أخاطر وأضحي بكل ما أملك حتى ينعم بالأمان.

إن كنت تدعي حب الوطن، فحاذر وأنت تسير على أرضه من أن تدوس بقدميك النجسة قبر شهيد، لقد تحولت أرض سوريا إلى مقبرة جماعية بسبب بطشكم، حاذر أيها الجلاد، حاذر وأنت تسير، فإن دُست على قبر شهيد، فستكون قد دُست على تضحيته وعلى حلم أخيه بالحرية ووطنٍ آمن وعلى أنين أمه، وقلب حبيبته، لقد جعلتم من سوريا ثكلى، من أجل رئيس باع وسيبيع الوطن من أجل كرسيه.

بدأت أعود بخطواتٍ إلى الخلف، وقفت وأنا لا أكاد أسيطر على نبضات قلبي محاولًا حبس مشاعري، أخذت نفسًا عميقًا وتقدمت نحو الهرموش بخطواتٍ هادئة، وصلت إليه والتصق رأسي برأسه، وعيناي في عينيه وهمست له "يؤلمني أننا خسرنا رجلًا مثلك، سيقتلونك"، وعدت إلى الخلف مقبلًا على الخروج، طرقت الباب، فتح الحارس، وأنا هائم بالخروج، صاح بي الهرموش "إن مت فسأموت حرًّا وإن عشت فأنت ستعيش عبدًا". نظرت إليه محدِّقًا في تفاصيل وجهه التي لن أراها ثانية وتحركت نحو الخارج، أحاول الوصول إلى الأعلى لأستنشق بعض الأكسجين، أشعر بضيق شديد يخنقني، أو دمعة تحرقني، أريد أن أبكي لأشعر بالحرية، ولكن أي دمعة تعني تعاطفي الصريح مع المقدم حسين الهرموش، والألم الذي أشعر هو عليه أم

علي لا أعلم، أتيتُه ولا أعلم سبب قدومي، وخرجت من عنده ولا أعلم على من أحزن، على نفسي أم عليه.

بدأت أتجول بسيارتي في شوارع دمشق، أحاول استنشاق بعض هوائها، تحولت بسيارتي نحو القصر، أمامي كثير من العمل، أمامي فرصة ذهبية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وصلت إلى مكتبي، لحق بي مساعدي الخاص.

- سيدي، لدى الرئيس ضيوف من إيران، ووصل إليك هذا التقرير.
- ضيوف من إيران؟ سياسيون أم ماذا؟
- الجنرال قاسم سليماني، قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني، ويرافقه ضباط كبار!
- ماذا؟ لم أعلم بقدومهم!
- الزيارة سرية.

خرج مساعدي من مكتبي، وشعرت بشي سيء بداخلي من هذه الزيارة، جلست على مكتبي وفتحت التقرير "خاص جدًا"، لم أرتح لهذه التسمية يومًا، فهذه التقارير لا تحمل إلا المصائب، ما الجديد يا ترى؟ أفتح التقرير وقد أرفق معه ورقة صغيرة، هذه نتيجة ما طلبتموه حول الخلاف الدائر بين الرئيس واللواء آصف شوكت، نعم قد طلبت من فريقي الخاص التحري والتحقيق حول سبب الخلاف، لأن الرئيس تهرب مراتٍ عدة من الجواب، أسير بين الأحرف حذرًا، صدمني ما أقرأ ويخيفني ما سيكون، الوضع بدأ يتأزم أسرع مما كنت أتوقع، اللواء النافذ آصف شوكت يشكل حلفًا مع كبار ضباط الدولة للضغط على الرئيس، التقرير يقول إن الرئيس يدرس فكرة دخول قوات إيرانية وكتائب لبنانية وعراقية موالية لإيران لمساعدة الأجهزة الأمنية والجيش للسيطرة على الوضع بعد الانشقاقات الكبيرة التي شهدها الجيش، بينما يرفض اللواء آصف شوكت ومن معه هذا الأمر، أقوم واقفًا مذهولًا، ما

الذي يجري؟ منذ بدأت الاحتجاجات دخلت عناصر من حزب الله اللبناني إلى سوريا واعترض آصف عليهم، ولكن ما ينصه التقرير أن هذه المرة ستدخل ميليشيات وبأعداد كبيرة وعلى رأسهم الحرس الثوري الإيراني، ولكن الرئيس قال لي جَهِّز ورقتك لوضع الحلول، ما الذي يفعله الرئيس؟!

مزادٌ لبيع الوطن

- ماذا أفعل لأحمي النظام وإرث أبي؟

قالها الرئيس وهو غاضبٌ، بعد أن خرجتُ إليه لأفهم الاتفاق الذي يحاول أن يبرمه مع إيران.

- سيدي، لكنك قلت لي جهز ورقتك، وكنا سنحاول معًا إنقاذ الموقف.

قاطعني الرئيس "يا علي، هؤلاء لن يرضوا إلا برحيلي".

محاولًا التوضيح "ولكن سيدي".

أشار الرئيس بيده اليمنى لأتوقف عن الكلام "دعني أكمل، إن دخلنا في أي مفاوضات مع هؤلاء فعلينا أن نقدم تنازلات، يعني أن نفقد هيبتنا، وهذا ما لم يحدث في تاريخ حكمنا لسوريا منذ قرابة نصف قرن، نعم فكرت في تقديم تنازلات بعد جملة الانشقاقات التي حصلت داخل الجيش، وبدأت أفقد ثقتي بالأجهزة الأمنية، ولكن هذا الاتفاق الذي سأبرمه مع الإيرانيين، سيوفر لنا عناصر بشرية وسيعوضون خسارتنا بفرار الضباط والعناصر في الجيش، وفقدت ثقتي حقًّا بأغلب الضباط والمستشارين، وها هو آصف ومن معه يشكلون حلفهم الخاص، ولكن سيُعَوَّضون بمستشارين من إيران،

ومستشارين من روسيا وخبرائها العسكريين والأمنيين، هكذا سنخوض حربنا من أول وجديد".

- مقابل ماذا؟

- لهم مصالحهم الاستراتيجية التي لا تتعارض مع مصالحنا، وما يهمني السيطرة على الوضع بشكل كامل.
- لكن الروس والإيرانيين وكل من سيأتي من طرفهم من ميليشيات عراقية ولبنانية وإيرانية وأفغانية، سيقاتلون على أرضنا وسيحرقونها ويدمرونها دون هوادة لأن هذه البلاد ليست بلادهم سيدي.
- لكل حرب ثمنها.
- ولكن أين الحرب؟ إنها مظاهرات سلمية شهدتها بعينيّ.
- يا علي، ألا ترى المعارك بينا وبين ما يسمى الجيش السوري الحر، في درعا وحمص وإدلب؟
- ولكن سيدي.
- دعك من كل ذلك يا علي وهيىء نفسك لمرحلة جديدة.

تذكرت كلام المقدم حسين الهرموش "لقد جعلتم سوريا ثكلى من أجل رئيس باع وسيبيع الوطن من أجل كرسيه" نعم عندما نسمح للغرباء بالدخول إلى بلادنا من أجل مصالحهم بحجة حمايتنا، فنحن بهذا نبيع الوطن لهم ونحن نتجاهل ذلك.

بدأت عناصر حزب الله اللبناني بالانتشار في سوريا، في دمشق وريفها وحمص تحديدًا، لقد بات للحزب صولاتٌ وجولات في سوريا بعدما كان الحزب ومسؤولو لبنان يؤتمرون من ضابط سوري صغير، يقال إن اللواء غازي كنعان أحد أبرز ضباط الرئيس حافظ الأسد كان يرعب رئيس لبنان وكل

المسؤولين والضباط، بل جعل من مقره في "مجدل عنجر" في جنوب لبنان مكانًا يرتعب منه المسؤولون اللبنانيون. والآن انقلبت الآية، أتفهم تمامًا مشاعر آصف شوكت حيال ذلك.

أستيقظ عند الصباح مثقل الجسد، بعد ليلة متعبة من العمل والاحتساء، أحتسي مشروبي المفضل "العرق" حيث تشتهر قريتي وما حولها بصناعتها، لا أحب الخمور الأجنبية، بل أحب جدًّا مشروب "العرق" المصنوع من أيدي نعرفها.

على مكتبي جدول أعمالي، دعا قائد الحرس العميد ذو الهمة شاليش إلى اجتماع لكل ضباط القصر والحرس الجمهوري، دخلت الاجتماع وأنا غير راضٍ عن شيء، شعورٌ بات يلازمني طوال الوقت، لا أحب الحديث مع أحد، لا أريد الخروج، كارهٌ لكل شيء، رافضٌ لكل شيء، أشعر بحزن لا أعرف سببه، كسعال يلازمني طوال النهار.

ذو الهمة: "السادة الضباط، نحن مجتمعون هنا لوضع خطة أمنية محكمة لساحة الأمويين، لأن الرئيس بشار الأسد سيلقي كلمة في الساحة أمام الناس، عليه أن يظهر إعلاميًّا، حتى لا يستغل أعداء الوطن غيابه، بل يقولون إنه فقد حاضنته الشعبية، أريد أفكارًا من الجميع لمناقشتها.

- لكن ذلك يشكل خطرًا كبيرًا على الرئيس في هذا الوقت.

- أعلم ذلك يا عقيد علي، ولكن خطوة لا بد منها.

- أنا سأؤَمِّن مداخل ومخارج الساحة وسأستعين بألف ضابط وصف ضابط وأفراد من الحرس الجمهوري لتأمين المنطقة كاملة. قالها أحد الضباط.

- في رأي أن نختار الجمهور الذي سيأتي وألا يكون العدد كبيرًا. قلتها في محاولة للمشاركة.

- كيف ذلك ونحن نريد أن يرى العالم حاضنة الرئيس؟ رد ذو الهمة.

- سيادة العميد، سنطلب من مديري كل مؤسسات دمشق إجبار الموظفين على الحضور وسنرسل إليهم باصات لنقلهم، حتى نضمن ألا يندس أحد داخل الباصات أو عدم زرع أي شي فيها، والموظف الذي لا يأتي سينفصل من وظيفته، أما بخصوص الأعداد فبإمكاننا الاستعانة بمخرج يصور زاوية معينة حيث يُظهر الناس بشكل أكبر، أما الحرس فسيكونون في الساحة وسيكونون من حرس القصر ولا يسمح لكائن من كان دخول الساحة لغير الحرس الخاص، وخارج الساحة من الحرس الجمهوري، ويتولى المخابرات الانتشار بين الناس.

- خطة جيدة، ولكن يجب التذكير أن السيدة الأولى أسماء الأسد وأبناء الرئيس سيرافقونه، علينا تأمين نقلهم. رد ذو الهمة.

- لست مع هذه الفكرة أن ترافق السيدة الأولى وأبناؤها فخامة الرئيس في هذه الظروف، ولكن إن كان ولابد، فنحن لا نستطيع الخروج بموكب كبير لعدم لفت الأنظار، علينا استخدام ممراتنا السرية. رد أحد الضباط

- أوافقك حضرة المقدم، وأضيف أن بإمكاننا استخدام الممر السري من القصر إلى ساحة الأمويين، سنخرج من تحت وزارة الدفاع هيئة الأركان، ومن هناك سيخرج موكب الرئيس نحو الساحة، وهذه مسافة قصيرة جدًّا نستطيع تأمينها، وفي الوقت نفسه نخرج بموكبين رئيسين من داخل القصر بشكل علني يسلك كل موكب طريقًا مختلفًا للتمويه. قدمت فكرتي.

وافق الجميع على الخطة الموضوعة، بدأ جميع الضباط بالاستعداد والتجهيز وتنفيذ الخطط، حيث سيكون إلقاء الرئيس كلمة في ساحة

مفتوحة تحديًا كبيرًا، في الوقت الذي يشكل الأمر بالنسبة إلينا مخاطرة أمنية. ولكن عرفت أن هذه الفكرة من المستشارين في روسيا، حيث انتشرت شائعات حول خلافات داخل القصر وأن الرئيس غادر دمشق وأرسل عائلته إلى خارج سوريا، أخرجنا سيارات واقية ضد الرصاص كما لبس الرئيس وزوجته وأبناء الرئيس سترات واقية ضد الرصاص، يربط بين القصر وأماكن عدة ممرات سرية ومنها ممر من القصر إلى أسفل وزارة الدفاع في ساحة الأمويين. سندخل وزارة الدفاع ونخرج بموكب مصغر بسيارات مضادة للرصاص من خلف مبنى هيئة الأركان وزارة الدفاع، وندخل ساحة الأمويين. أشعر بخوف شديد بدا على الرئيس بعد أن فقد ثقته بكل من حوله، هنا المعركة لم تعد معركة نظام ومتظاهرين من الشعب، أو نظام وكيانات المعارضة، بل أصبحت داخل النظام نفسه، بين الرئيس وصهره وضباط كبار.

رافقت الرئيس وزوجته وأبناءه مع خمسة ضباط من فريقي الخاص إلى مبنًى سري داخل القصر، حيث يوجد ثلاثة طوابق تحت القصر الجمهوري "قصر الشعب"، وكانت السيارات بانتظارنا، الرئيس ينظر إليَّ بثقة كبيرة بعد أن علم الخطة التي اقترحتها وهمس في أذني: "هل عرفت سبب تشكيل فريق خاص بك داخل القصر؟".

هو يطمئن لفريقي الذي يشـــرف عليه بنفســـه دون علمهم، اخترتهم بعناية فائقة لحماية الرئيس داخل القصـــر من أي خيانة، واليوم يخشـــى الرئيس صهره وفريقه ونفوذهم داخل القصر، يظن الرئيس أن صهره اللواء آصف شوكت يدبر لانقلاب عسكري، مع الأخذ في عين الاعتبار أن آصف شـوكت يقود معركة شـرسـة ضـد الجيش الحر بريف دمشـق، هذا الجيش الذي بدأه المقدم حسين الهرموش بفكرة حركة الضباط الأحرار ليتحول إلى

اسم "الجيش السوري الحر" بقيادة العقيد المنشق رياض الأسعد وضباط كبار انشــقوا أيضًــا، ويحاول آصــف شــوكت خلال ذرائعه أن يفكك هذا الجيش من خلال ملاحقات وعمليات تصــفية وقمع مظاهرات، وعليه فإن الرئيس لا يملك دليلًا على خطة صهره، سوى شكوك في النوايا.

يجلس الرئيس دون أن يخوض أي نقـاش مع زوجتـه، توتر ملحوظ بينهما، أعرف سببه، فالرئيس في حرج شديد أمامها، بعد أن انشق أحدٌ من مكتبه الإعلامي وسرب رسائله الإلكترونية التي أظهرت علاقاته النسائية مع بنات كبار المسـؤولين ورجال الأعمال، ومشـاريعه الجنسـية، ويحاول فريق الرئيس وعـائلتـه التـدخـل لإنهـاء هـذا التوتر وحـل الخلاف، وربمـا اليوم ظهورهما معًا يحمل دلالات كبيرة، وصــلنا إلى أســفل وزارة الدفاع بعد أن سـلكنا الممر السـري المحصـن بشـكل كامل والمجهز بأحدث التقنيات، هذا نفق سري رئاسي فخمٌ جدًّا تسير فيها السيارات بسرعة كبيرة وبكل أريحية. دخلنا مبنى هيئة الأركان وزارة الدفاع، وصــعدنا نحو الطابق الأعلى داخل مبنى هيئة الأركان، وكانت الخطة قد تغيرت، حيث رأينا من الأمان أكثر أن يخرج الرئيس وعائلته إلى الســاحة من داخل المبنى نفســه، وعليه الســير فقط من أعلى الدرج الكبير إلى الســاحة، كانت عناصــرنا قد انتشــرت على أطراف الدرج الكبير وعندما بدأنا في الخروج كنا نسـمع أصـوات الجماهير، وُضـعت منصـة متوسـطة في السـاحة أمام هيئة الأركان وعُلِّق على خلفية المنصة علم كبير، بعد أن بدأ المتظاهرون يرفعون علم الاستقلال السوري عن فرنسا، علم الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، وجميع الكوادر المرافقة ترتدي قميصًا عليه العلم الأحمر كما لبسته زوجة الرئيس، وصلنا إلى خلف المنصــة، في انتظار تقديم الرئيس، نســمع أغنية "منحبك" وهو شــعار مؤيدي الرئيس، وحين قال المسؤول عن المنصة في الميكروفون: "الرئيس

بشـــار الأســـد يتقدم إليكم" أشـــرت بيدي إلى الحرس الخاص للخروج على المســـرح، خرج خمسة ضباط وتوزعوا على المنصة الرباعية وخرج الرئيس الذي يرتدي بنطالًا رصاصيًّا وجاكيت أسـود وقميصًـا أبيض، خرجت خلفه وهو يلوح بيده اليمنى للجمهور، وبدأ هتاف الترحيب والتصـــفير، ولكن صـــوت أغنية "منحبك" قد طغى على المشـــهد، بدأ الرئيس يصـــول على أطراف المنصـــة يحاول تحية الجماهير من جهات عدة، ونحن من خلفه وبجانبه لتأمينه، والشعب يصرخ "بالروح بالدم بنفديك يا بشار" يقف ذو الهمة شـــاليش كالعادة في الدائرة الثانية بعد الرئيس يوجهنا ويده اليســـرى تتحرك نحو خصر الرئيس دون أن يلمسه، توقفت الأغنية وأمسك الرئيس الميكرفون، وبدأ مســـؤولو المنصـــة يهتفون "الله ســـوريا وبشـــار وبس" والجمهور يرد على شـعار "الله سـوريا حرية وبس"، اثنان من حرس الرئيس يحملان رشـــاشـــات أتوماتيكية حديثة تحت الجواكيت يقفان على يمينه ويساره، وخلفنا يقف ضابط يحمل حقيبة سامسونايت، لفتحه في أثناء أي محاولة اغتيال وهي واقية للرصـاص، بدأ الرئيس بكلمته، والمســرح مكتظ بالحرس "أيها الإخوة والأخوات، أيها الشباب أيتها الشابات، أنا أبادركم نفس المحبة، وأتمنى أن يمنحني الله قلبًا كبيرًا قادرًا على إعطاء محبة تتســـع أو تكفي هذا الشـعب العظيم" صـاح الجمهور وصـفر وبدأ بالهتاف "شـبيحة للأبد لأجل عيونك يا أسد"، وهذا وصفٌ أطلق على مجموعات غير رسمية تساعد الجيش والأجهزة الأمنية لفض المظاهرات بالقوة وتشارك في عملية القمع، وأطلق أيضًـــا على كل مؤيد للرئيس. أكمل الرئيس كلمته "عندما علمت أنكم قررتم النزول إلى الشـوارع في عدد من السـاحات، في عدد من المحافظات السـورية، شـعرت برغبة عارمة أن أكون معكم في هذا الحدث، وأردت أن نكون معًا في ساحة الأمويين، شعرت برغبة عارمة أن أكون معكم في ســـاحة الأمويين في قلب دمشـــق عاصـــمة الأمويين، في قلب دمشـــق

عاصــمة المقاومة، في قلب دمشـــق عاصــمة التاريخ، لمن لا يقرأ التاريخ يتعلم منها، في قلب دمشق عاصمة الحضارة التي حضارة لمن لا يمتلكها، أردت أن أكون معكم في دمشــق، في قلب عاصـمة بلاد الشـام، بلاد الشـام التي أردوا لها أن تتحول من أرض الوئام والمحبة والسـلام إلى أرض يزرعونها بالدمار والقتل والخراب ولكن هيهات أن يحققوا هذا الشـيء"، بدأ مسـؤول المنصة يهتف بالجمهور الذي ردد "بالروح بالدم نفديك يا بشار" ليقاطعهم الرئيس بعد دقيقة "فهذه الأرض أرض بلاد الشـام، هذه الأرض المباركة التي أحبها الله وأحبها رسـوله فحباها الله هذا الشـعب الطيب، وعندما قلت في يوم من الأيام إن سـوريا الله حاميها فلم أكن أقصد على الإطلاق بأننا شـعب الله المختار كما يفكر بعض الناس، أو أن الله ميز ســوريا عن غيرها من البلدان والشـعوب، فالله يحب كل الشـعوب في الأرض، ولكن عندما يحب الله أرضًـا يمنحها شـعبًا طيبًا واعيًا صـامدًا قويًّا وفيًّا كهذا الشـعب العظيم"، هتف المجتمعون "الشـعب يريد بشـار الأسـد" ردًّا على شـعار "الشـعب يريد إسقاط النظام"، نحن خلف الرئيس ننظر في كل الاتجاهات لتأمينه.

"أيها الإخوة والأخوات أردت أن أكون معكم الآن لأنني أنتمي إلى هذا الشارع، وإنه من يرد أن يخاطب الشارع فعليه أن ينزل إلى الشارع ليخاطب الشارع من الشارع، قيل لي في مرات كثيرة"، راح نظري نحو الرئيس لأن من يقوله دائمًا أكون أنا فهل الرئيس سيصارح الشعب بما يقوله لي وأقوله له؟

"الناس تريد منك أن تخاطبها عبر التلفاز فكنت أرفض، أقول إنني لا أتحدث إلا مع الناس مباشرة"، حاولت أن أتذكر متى قلت ذلك لكني لم أقل.

"وإذا كانت طبيعة الحديث والخطاب في بعض الحالات تفرض أن يتحدث الإنسان في قاعات وخلال فعاليات فهذا لا يغني عن اللقاء مع القاعدة العريضة من الشعب"، بدأ الجمهور بالتصفيق والهتاف "بالروح

بالدم نفديك يا بشار"، أكمل الرئيس "أنا أقول الله أكبر ما هذا العنفوان؟ ما هذه القوة؟ ما هذا الصمود؟ ما هذه الكرامة؟ كل هذه الأشياء هي التي تعطي المعنويات لأي مسؤول ولأي دولة، ولا يمكن أي دولة أن تنجح إن لم يكن هناك احتضان من الشعب، أتيت هنا لكي نضع أيدينا مع بعض لننظر إلى المستقبل، إلى الأمام، إلى سوريا التي نحب، إلى سوريا القوية، سوريا الشامخة، سوريا الكرامة، سوريا العزة، نسير إلى الأمام نقبض بيد على الإصلاح وبيد أخرى على مكافحة الإرهاب، نسير إلى الأمام بمسيرة بخطوات واثقة رصينة ثابتة، لا مكان فيها للانهزامين، لا مكان فيها للجبناء، لا مكان فيها للانتهازين، لا مكان فيها للجهل، ولا مكان فيها للتخلف"، عاد الجماهير إلى الهتاف "بالروح بالدم نفديك يا بشار"، تقف زوجة الرئيس أسماء الأسد مع أبنائها أسفل المنصة يسمعون الكلمة، أكمل الرئيس "أردت أن أكون معكم اليوم لكي أستمد القوة في مواجهة كل ما تتعرض له سوريا، وأنا لم أشعر بالضعف في يوم من الأيام بفضلكم ومن خلال قوتكم، من خلال هذه البوصلة التي تدلنا على الطريق الصحيح، وأردت أن أكون معكم لأوجه الشكر إليكم وأبث محبتي فيكم وفي كل مواطن سوري خرج في كل ساحة، في كل مدينة، في كل حي، في كل شارع، أحييكم وأنتم تخرجون من المساجد والكنائس والمدارس ومن الجامعات تقفون في وجه التغريب وتدعمون التعريب، وتؤكدون مؤسساتكم في مقدمتها مؤسسة الجيش والقوات المسلحة" صفق الجمهور.

"يسقط شهداؤنا كل يوم لكي نكون آمنين، لكي نكون أحرارًا، أبث فيكم محبتي ولا أريد أن أقول إن الوطن يتعرض لمؤامرة، وإنه في خطر، فأنتم هنا لهذا السبب ولا أريد أن أقول إننا يجب أن نكون مستعدين عندما ينادينا الوطن، إن الإنسان الوطني ليس في حاجة إلى نداء فهو يتحرك مباشرة بدافع

ذاتي وأنتم تقومون بهذا الشيء، المهم أن نمتلك الثقة بالمستقبل، وأنا أمتلك هذه الثقة بالمستقبل وبكم ومن خلالكم بأننا سننتصر من دون أدنى شك على المؤامرة، هم الآن في مراحلهم الأخيرة أو في مرحلتهم الأخيرة من المؤامرة، وسنجعل هذه المرحلة هي النهاية لهم ولمخططاتهم، أبث فيكم تحياتي وأرجو أن أصافح كل واحد في هذه الساحة وفي حلب وفي الحسكة وفي القامشلي وفي درعا وفي كل مكان من هذ الوطن الغالي، أرجوا لكم ولكل مواطن شريف، التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله". أنهى الرئيس كلمته وبدأت الأغاني وخرجنا على الفور إلى خلف المنصة، وعدنا من حيث دخلنا إلى داخل مبنى هيئة الأركان بشكل سريع، بعد أن دخلنا المبنى وبدأنا ننزل أسفل المبنى حيث الكراج، بدت خطواتنا بطيئة ومريحة وتنفسنا الصعداء وعدنا إلى القصر من الممر السري ذاته، كنت أفكر ونحن في الطريق في فحوى الكلام الذي قاله الرئيس حين قال "إن المؤامرة في مراحلها الأخيرة" ولكنها ليست كذلك، نحن الآن نستعين بإيران وروسيا لإنقاذ الموقف، ولكن الخطاب الإعلامي مهم في الحروب، الجيش اليوم يخوض معارك عنيفة مع الجيش الحر، والطيران المروحي بدأ بدخول المعركة وضرب مدينة الرستن في حمص.

احتدَّت المعركة في مدينة الزبداني في ريف دمشق بين الجيش الحر وحزب الله، قُطعت المياه والكهرباء وأُحْكِم حصار عليها، التقارير الأمنية الواردة تؤكد فشل حزب الله في السيطرة أو حتى التوغل في الزبداني ومضايا، تَدَخَّل اللواء آصف شوكت لتولي الموقف واحتَدَّ مع حزب الله الذين يبغضهم، ووقعت هدنة لتُخرق من جديد، ويزيد الخلاف بين الرئيس وصهره حول آلية إدارة الأزمة.

المعارك تحتدم، وبدأ العمل العسكري في أَوْجه والانشقاقات تتوالى، لنعيش في القصر على التقارير الواردة دون تحركات تذكر، تلقيت أمرًا بالتوجه إلى حي المزة في قلب دمشق حيث خرجت مظاهرة حاشدة، ترأست مجموعة وتوجهت، امتلأت الغيوم في السماء، والجو بارد ينذر بشتاء قارس، هذا البرد يذكّرني بأيام خدمتي في الجيش ودورات الصاعقة، لكني اليوم أركب سيارة مكيفة، لا أجلس في العراء أرتجف من البرد، شعرت بهزة كبيرة حينما وصلت، جموع ضخمة يتهافتون على الحرية رغم كل ما يحدث، لا الاعتقالات توقفهم ولا القتل يرهبهم ولا الضرب يثنيهم، نحن أمام قوة شعب قد تذوق من ثدي الحرية، ما الذي سيثنيهم عن لذة ما ذاقوه؟ أقف أمام المشهد خجلًا، وأنا أسلط سوطي نحوهم بينما هم يرفعون أغصان الزيتون ويهتفون للحرية "الشعب يريد إسقاط النظام" جملة غيرت مصير وطن بأكمله، نراقب الجموع وهي تشيع قتلى مظاهرات الأمس ويكملون درب من كانوا معهم، شعب يعاهد بعضه أن الحي بعد أن يدفن الشهيد يكمل الدرب، وهذه وصية شهداء الثورة، والشعب يوفي بالعهد.

بدأ الثلج يتساقط رويدًا رويدًا، أسأل نفسي: أتُراهم لا يبردون؟ لا يتعبون؟ أفواههم وأيديهم حمراء من البرد ولكنهم يصفقون ويهتفون "يا الله! مالنا غيرك يا الله!"، بدأ الثلج يهطل بغزارة، وكأن البخار الخارج من أفواههم يتصاعد ليشكل غيمة تحمي قوافل الشهداء وتقيهم البرد، يجعلني هذا الشعب أن أقف أمامهم عاجزًا، حائرًا، أنا أومن بهم وأومن بالوطن، وأومن بالرئيس وأحبه، فأي شيء أختار؟ نظر إليَّ أحد الضباط وهو واقفٌ أمام المتظاهرين بينما أنا جالسٌ في سيارتي لا أتجرأ على الخروج من غزارة الثلوج وقساوة البرد، أشرت بيدي إليه أن يطلق أعيرة نارية في الهواء، لكن دون جدوى، لا يتفرقون، أكره ما أنا فيه، لا أريد أن أحمل دمًافي رقبتي، أتاني أمر من العميد ذي الهمة شاليش بإنهاء المظاهرة بأي شكل، فالمظاهرات في

دمشق تحمل رسائل سياسية قوية، فكيف وهي بقلب دمشق حي مزة، حيث السفارات وعلى بُعد كيلومترين من القصر؟! أهز رأسي للضابط بتنفيذ الأمر وكأني لا أجد كلمات أقولها، بدأت أصوات الرصاص تعلو على هتافات الحرية، والمتظاهرون يتفرقون في الأحياء والشوارع، تركوا خلفهم أغصان الزيتون تداس بأرجل عناصر الأمن، رصاصٌ كثيف ودماء ما عادت تتوقف.

أغمض عينيَّ عن تلك الدماء التي تسال، وأنفذ مكرهًا، أحاول أن أتقبل الواقع الذي فُرض علينا نحن السوريين، فأصبح أبناء الوطن الواحد يتجابهون ضد بعضهم، ويرفعون السلاح في وجه بعضهم، يؤلمني ما وصلنا إليه، تحول الوطن إلى مظاهرة تشييع، فيها الجنائز لا تتوقف، وفيها هتافات تعلو ورصاص لا يميز كبيرًا أو صغيرًا، تحولت سماء هذا الوطن إلى غيمة من الدخان حيث يحترق كل شيء ونخسر كل شيء، حيث نفقد الإنسان، أحياء ومدن تنزح وتلجأ إلى دول الجوار، حدائقنا تحولت إلى منازل للنازحين، والموت يدخل بيتًا ويخرج من آخر، تحولت حدائق المنازل إلى مقابر، بعد أن اكتظت المقابر بالأموات، وتحولت ساحتنا للقتال، تحول موطننا إلى مرتع للغريب يصول ويجول وابن الوطن يهرب منه باحثًا عن الأمان، نفقد هويتنا مع كل رصاصة تُطلق وصيحة لا تهدأ ولا تتعب، صيحات الهتافات هي الوحيدة الثابتة والمقاومة، والحناجر كلها تحولت إلى القاشوش الذي سكن في كل بيت، كل شيء في هذا الوطن يموت إلا الموت فهو باقٍ. انقسم الوطن وابناؤه إلى أقسام، قسم في ميادين المظاهرات، وقسم في ميادين القتال، وقسم في مخيمات اللجوء، وصلنا إلى نقطة ما عدنا نعرف فيها شيئًا. روائح الياسمين والجوري استبدلت بها روائح الموت والبارود. والهدوء الذي كنا فيه تحول إلى ضجيج صاخب. وتحول كل مواطن سوري إلى مشروع قتيل إن لم يكن اليوم ففي الغد، لكن مهما كثر الموت ومهما اتسعت رقعة المقبرة، فلن أخطئ الرائحة الفائحة من قبر زينب، آه يا زنيب، ليتني ما خرجت يومًا

من الشراشير، ولا تمنيت ما تمنيته، أن أكون في هذا الموقع، فأنا اليوم شاهدٌ على قتل الوطن وتزوير الحقائق ودفن المستقبل، أنا الشاهد على تقلب التاريخ، أنا الشاهد على مذبحة يتناحر فيها الإخوة، أنا الشاهد على أسماء ما كانت موجودة، أنا الشاهد على التقسيم بين الحر والعبد، سامحيني يا زينب فالوطن الذي أوصيتني به أضعناه بأيدينا، فهل يعقل أن وصية غيرت مصير وطن؟!

أدخل على الرئيس المضطرب، هو لا يخاف على نفسه في القصر، فالقصر محصن في وجه أي عدوان، يقع في أعلى جبل في دمشق، ويحرسه من الأسفل تشكيلات عسكرية كبيرة، ويقع تحت القصر مبانٍ مهيئة ومعدة، لكن الرئيس يؤرقه صيحات الثائرين في حي مزة وكفرسوسة وداريا والصالحية والميدان وباب توما والمعضمية، هو محاصرٌ بهذه الصيحات، يجلس عند النافذة ولا يتوقف عن النظر إلى دمشق، لا أدري أهو يودعها أم يتوعدها، لقد ضاقت به دمشق، فالقتال يقترب من كل الأطراف، حتى داخل دمشق بات صوت الرصاص لحنًا يتغناه الدمشقيون حتى اعتادوه.

يخيف الرئيس الحلف الذي شكله صهره، فقد بات يتصرف من تلقاء نفسه، وإن كان لمصلحة النظام، ولكن ما عاد يرجع إلى رئيس النظام، يختلفان على الأسلوب، آصف يريد إخراج الإيرانيين والروس من سوريا، ويحد من تدخل الجيش في الشارع، ولكنه يتفق مع الرئيس على الحل الأمني بل إنه يطبش بجنون لا مثيل له، لكن الرئيس يخشى من تمرد لآصف يشجع ضباطًا هم برتبته ونفوذه.

خلية الأزمة، حين انتصر الأسد

يفقد الجيش السيطرة كل يوم على منطقة ما، ويخشى الرئيس أن يفقد السيطرة على نظامه وضباطه.

- آصف يدبر إنقلابًا يا علي!

- ولكن سيدي، لا دليل على ذلك، فقد اعتمد الحل الأمني، بل يفعل مثل كل الضباط، ها هو يرفض نزول الجيش لغاية معروفة وهي زرع أعينه وأذرعه بين الجيش الحر لتفكيكه، وبات المنشقون يهابون سماع اسمه لما يلاقوه من بطشه.

- أي خطط ونحن نخسر كل يوم معركة، وينشق عن الجيش كل يوم العشرات؟

- بالضبط سيدي، هذه هي فكرة اللواء آصف شوكت، أن نزول الجيش إلى الشارع يتيح لهم الهروب، ولكن إن بقوا في الثكنات فلن يكون للهروب أي مجال، وفي نفس الوقت هو ينفذ كل خططك أو ما هو متفق عليه.

- أراك تدافع عنه، هل أصبحت جزءًا من فريقه؟!

- وهل هذا ظنك بي يا سيدي؟! إنما أنا أدافع عن الفكرة.

- اسمع يا علي، لقد أعطيت أمرًا بدخول الطيران الحربي بكل قوته إلى المعركة وسأزج بكل الإمكانات، ولقد وافقت على مقترح بصناعة البراميل المتفجرة، وأي منطقة ستخرج من تحت سيطرتنا سأدمرها وأحرقها، سمع الناس عن حرق نيرون لروما، وسأجعلهم يرونها بأعينهم.

قمت واقفًا متلبكًا "ولكن سيدي، هذا خطير، سندمر مدننا بأيدينا".

وضع الرئيس يده على طاولته وأشار بسبابته "سنعمر فيما بعد، ولكن يجب أن يصبحوا عبرة حتى نوقف تمددهم على المدن والقرى".

- سيدي، أرجوك.

قاطعني الرئيس بحدة "يا علي، أنا أمام مرحلة مجبر فيها على خوض أشرس المعارك، وقبل أن أبدأها عليَّ أن أعرف من معي ومن ضدي، قل لي هل أنت معي؟

- أقسم لك بروح الخالد حافظ الأسد إني معك وفداك، ولكن...

وقف الرئيس وصرخ "يا علي، لا يوجد ولكن".

بصوت هادئ "أنا معك سيدي وأبصم لك بالدم".

جلس الرئيس وعاد إلى هدوئه "أنا أعلم يا علي، وأنا سعيد بأنك معي، أمامك مهمتان عليك تنفيذهما، اجلس"

جلست "أنا بأمرك".

بشار الأسد: "عليك أولًا أن تعيد النظر بشكل سري في كل الضباط العاملين بالقصر لكي أؤمن نفسي في بيتي".

- لك هذا، وسأبدأ من الساعة.

أعاد الرئيس وركن ظهره على كرسيه وأراح رأسه وصمت قليلًا "أريد منك خطة محكمة بالتخلص من آصف ومن معه!".

ذهلت "ولكن سيدي، اللواء آصف ومن معه هؤلاء أركان الدولة!".

أجابني الرئيس بكل برود "أعلم ذلك جيدًا، وإن نجحنا في فعل ذلك، فستكون ضربة قوية لباقي الضباط، سيصبحون كالخاتم في إصبعي، وسأكون مثل أبي الآمر الناهي في القصر وكل سوريا، وسيصبح الحرس القديم وكل الضباط النافذين يرتعدون مني خوفًا مثل أبي".

- سيدي، أفهمك جيدًا، ولكن سيكون قتلهم خسارة للنظام، هؤلاء الضباط سيميلون إلى كفة أي فريق إذا ما انحازوا له.
- علي، أنا سأرتب الأوراق لوضع الأشخاص في أماكنهم، وأنت أعِدّ خطتك، وهذه فرصتك لتكون الآمر الناهي في القصر.

أشار الرئيس بيده لإنهاء النقاش. وقفت "بأمر سيدي، سأبدأ على الفور".

أنصرف إلى مكتبي هائمًا على وجهي، لقد جن جنون الرئيس، أنا في حيرة من أمري، لا أعلم ماذا أفعل، سأساعده على تدمير الوطن، إلى أين ستأخذنا يا سيدي؟ إلى أين؟

بدأت بوضع الخطة من أجل السيطرة على القصر وتأمينه بشكل أقوى، وبهذه أنا مع الرئيس، ولكن الأمر الثاني كيف سأفعله؟ هؤلاء الضباط هم من يسيطرون على البلاد، هؤلاء وحوش، كيف سأصل إليهم وأخترق دائرتهم الأمنية المشددة؟ أقلب أسماء الضباط المرافقين لآصف ومن معه، جميعهم موالون له أكثر من الرئيس نفسه، الرئيس فقد ثقته بآصف، لقد حاول آصف شوكت عام ٢٠٠٨ انقلابًا عسكريًّا على الرئيس ولكنه فشل، وتزوج شقيقة الرئيس بشرى الأسد رغم الخلاف الشديد مع باسل الأسد، لكنه رجل دولة

قوي وهو المطلوب أميركيًا وأوروبيًّا بتهم ارتكاب جرائم حرب، لقد شكل آصف حلفه المتين مع كبار رجالات الدولة، آصف شوكت نائب وزير الدفاع وقائد المخابرات العسكرية السابق، ومعه وزير الدفاع داود راجحة، ورئيس مكتب الأمن القومي هشام بخيتار، وحسن التركماني وزير الدفاع السابق ورئيس خلية الأزمة، وشكوك من انضمام وزير الداخلية محمد الشعار، ومحمد سعيد بخيتان الأمين القطري المساعد لحزب البعث، إلى حلف آصف.

كلما مررت بأسمائهم ارتعبت، بدأت أفكر في حلول، الرئيس يطلب مني مهمة مستحيلة، أفكر في إغتيال كل واحد على حدة ولكن كيف؟ شكلت فريقي ولم نتوافق على خطة اغتيال منفرد لكل واحد، لأنه بمجرد اغتيال واحد منهم سيجعل البقية أكثر حيطة وحذرًا، وإن كشفوا الأمر فربما يتحركون ضد الرئيس أو يهربون خارج البلاد ولا أحد يستطيع توقيفهم حتى لو عممت الأسماء.

أفكر جديًّا: هل ينوي الرئيس التخلص مني بهذه المهمة؟ فمن اقترب من حمم النيران احترق، والرئيس يريدني أن أرمي نفسي في هذه الحمم، أو أن أوقد نيرانًا ربما ستطولني شخصيًّا، أَصُبّ جل تركيزي على وضع خطة محكمة مع فريقي دون الوصول إلى نتيجة، أفكر في ما بعد قتلهم، سيختل توازن القوى وربما نخسر الحرب، هذه الأسماء ترعب الطرف الآخر، وإن قتلوا فسيتجرؤون علينا، أرجوا أن يعدل الرئيس عن هذه الفكرة. طلبني الرئيس إلى اجتماع، عرفت أنه يريد سؤالي عما وصلت إليه.

- لماذا لم تضع خطتك إلى الآن؟

- سيدي، ندرس الموقف من كل جوانبه، ونفكر في النتائج والأسلوب والتبعيات.

قاطعني الرئيس الذي أصبح مستعجلًا "النتائج والتبعيات اتركها لنا".

- سيدي أقصد في قتل هذا الفريق، أسنعلن أنهم خونة وقُتلوا أم سنقول إن أيدي الجيش الحر وصلت إليهم؟ فالأولى ضربة قاصمة لنا وسيبين للعالم أن أقوى ضباط الرئيس ومستشاريه يخونونه أي أن النظام في نهايته، أما الثانية سيبين مدى قوة الجيش الحر وأن أيديهم أصبحت تطول أكبر المسؤولين، وهذا سيزعزع ثقة باقي الضباط والمسؤولين ويرفع من معنويات الأعداء ويقوض من مساعينا للسيطرة على البلاد وربما نشهد انشقاقات كبيرة!

- علي، أنت تفكر أكثر مما تفعل، المطلوب منك وضع خطة محكمة، الباقي أنا سأتصرف تجاهه، هناك أجهزة أخرى ستتولى الأمر، أريد الخطة يا علي.

- كما تريد سيدي.

خرجت من عند الرئيس بعدما فشلت مساعيَّ لعدوله عن الفكرة، وأصبح يتصرف دون عقلانية، سيؤدي بنا جميعًا إلى الجحيم.

طلبت من فريقي الإسراع بوضع خطة والنظر في اجتماع لخلية الأزمة، مع بدء المظاهرات شكل الرئيس خلية لإدارة الأزمة وكلف العماد حسن تركماني وزير الدفاع السابق بها، وعين فيها أقوى ضباط الدولة، آصف شوكت نائب وزير الدفاع، محمد الشعار وزير الداخلية، محمد سعيد بخيتان الأمين القطري المساعد في حزب البعث، اللواء علي مملوك رئيس المخابرات العامة، العماد داود راجحة وزير الدفاع، اللواء هشام بخيتار رئيس مكتب الأمن القومي، اللواء محمد ديب زيتون رئيس الأمن السياسي، اللواء عبد الفتاح قدسية رئيس المخابرات العسكرية، اللواء جميل الحسن رئيس

المخابرات الجوية. أقرأ التقارير الأمنية والشخصيات الواردة والأسماء، ومَنْ منهم من مؤيدي الرئيس، فكيف سُيعالج الأمر؟

أقرأ التقارير لمواكبة ما يحدث في البلاد خطوة بخطوة، الوضع سيئ، ضغط خارجي وطرد للسفراء، انشقاقات سياسية ومدنية ودبلوماسيون، انشقاقات في الجيش والشرطة، انحياز فنانين وشخصيات اعتبارية للثورة، المركب يغرق والجميع يقفز، والرئيس يريد أن يزج بكل قوته في المعركة. تقرير يحمل اسم "عبد الباسط الساروت"، أفتح التقرير وفي ظني أنه ضابط جديد انشق عن الجيش، وإذ به شابٌ يافعٌ تحاول أجهزة الدولة الوصول إليه، ولقد فشلت الأجهزة الأمنية في قتله بعد محاولة اغتيال خرج منها مصابًا، واستُهداف منزله وقُتل أخوه وابن أخته، إنه قاشوشٌ آخر، منشد المتظاهرين في حمص. أشعر بأسفٍ على هؤلاء الشباب، من يمتلكوا طاقات كبيرة يستطيعوا خدمة البلاد، ولكن يصبحون صيدًا لصنارة الأجهزة الأمنية، أقرأ ملفه وأنا حزين على ما سيواجهه، على المصير الذي ينتظره، لقد احطاط القاشوش أيضًا، ولكن في النهاية اقتُلعت حنجرته، وهذا الشاب اليافع وضعت الدولة مكافأة مليوني ليرة سورية لمن يسلمه، أي سيتهافت عليه الجميع.

أدخن سيجارتي محاولًا أن أتجاهل الصداع الذي ما عاد يفارقني ويلازمني طوال اليوم، بدأت أشعر بأني أخسر صحتي من شدة ما ألقى وأشاهد وأسمع، مِليونا ليرة لو دُفعا لذوي أطفال درعا كنوع من الاعتذار، وإقالة عاطف نجيب، لكنا جنَّبنا البلاد كل ما تلاقيه من مآسٍ، وما خرج الشعب وهتف "عالجنة رايحين شهداء بالملايين" لما أصبحنا نقتل إخواننا بأيدينا.

أكمل ما أقرأ ويذهلني أن شابًّا في أول عمره يتخلى عن حلمه ليلتحق بالثورة! فإن كانوا حقًا خائنين ومخربين ومندسين، لارتدعوا منذ أول رصاصة، فالخائن والمتآمر إنسان جبان بطبيعته، ولكن هؤلاء يُظهرون شجاعة لا مثيل لها، شابٌّ يتخلى عن مستقبله من أجل ثورة، ماذا يجد في هذه الثورة غير الحرية والكرامة والديمقراطية حتى يتخلى عن حلمه ومستقبله؟ عبد الباسط الساروت حارس فريق الكرامة ومنتخب سوريا للشباب، رياضي مدني، كلما حاولت أن أبطش هذه الثورة، خرج من بين أبنائها من يردعني.

أفتح الإنترنت لأبحث عن عبد الباسط الساروت وهتافاته، فقد كان في هتافات القاشوش حتفه لشدتها على الدولة، يظهر أمامي مقطع بعنوان "أجمل هتافات شباب الثورة السورية" أضع سماعتي في أذني حتى لا يسمع أحد، أشغل المقطع "جنو جنو البعثية لما طلبنا الحرية، يلعن روحك يا حافظ يا ابن الحرامية"، أغلق المقطع المرئي لأني قد سمعت هذا الهتاف سابقًا، أبحث عن عبدالباسط الساروت، يظهر أمامي هتاف "خافوا الله يا عرب" يلومون العرب على تخاذلهم، ومنذ متى انتصر العرب لبعضهم حتى ينتصروا لسوريا؟ لقد كانت آخر معاركهم منذ العصر الإسلامي. وأخيرًا يظهر أمامي مقطع مرئي للساروت "جنة جنة والله يا وطنا" وآخر "بابا عمر احنا معاك للموت باب السباع احنا معاك للموت" إنهم يتهافتون على الموت دون رادع أو خوف، أي قوة هذه يمتلكون؟! أعود إلى الساروت وهو يغني "جنة جنة والله يا وطننا، يا وطن يا حبيب يابو تراب الطيب حتى نارك جنة"، أغلق المقطع قبل أن تظهر صورة الساروت، فمن تغنى بالوطن كنت وهو عهد المحبة. لكنه يغني لوطنٍ أنا وهو نختلف على أسلوب حبه، وكل منا في

جهة مختلفة، لا أريد لهذا الشعور أن ينتابني، بأن من أحببت سيقتله أصحابي.

أعود إلى أوراقي بوضع خطط لتنفيذ أمر الرئيس، تلمع فكرة في ذهني أسجلها ثم أحذفها، وأتذكر أن المستهدف ليس ناشطًا ثوريًا أو منشدًا في إحدى الساحات أو سياسيًا، إنما رجالات الدولة السورية.

راودتني فكرة طرحتها على فريقي واتفقنا عليها مع يقيننا أنها مغامرة منا ولكن لا حل آخر، طلبت لقاء الرئيس لطرح الفكرة، ولحسن الحظ أن العميد ذو الهمة شاليش قد انشغل بتوجيه الحرس لقمع المظاهرات ما يتيح لي مساحة التحرك مع الرئيس ولقائه بعيدًا عن أعينه.

- سيدي، الخطة الوحيدة أن تدعو إلى اجتماع لخلية إدارة الأزمة لمناقشة آخر التطورات ومناقشة خطة ستعرضها عليهم، وسنرسل أحد ضباطنا إلى قاعة الاجتماع لوضع حقيبة في الغرفة، أطلب أن يكون الاجتماع في مبنى خلية الأزمة نفسها حتى يطمئنوا، أما الضباط الذين هم موالون لفخامتك، إما سنحاول تأخيرهم أو تعطي لهم مهمات تجعلهم يعتذرون عن الاجتماع، ويفضل أن تكون هذه المهمات خارج دمشق.

بشار الأسد "بل الجميع سيحضر الاجتماع، ومن هم على ولاء لنا سنفتعل اتصالًا معهم لإخراجهم من الغرفة، ومن كان على الطريق سأتصل به شخصيًا للتوجه إلى القصر بشكل سري، علي، ضع خطتك الكاملة وأنا سأدعو إلى اجتماع في أقرب وقت".

دعا الرئيس عن طريق العميد ذو الهمة إلى اجتماع عاجل لخلية إدارة الأزمة، وتواصل شاليش مع كل المسؤولين المعنيين، وحُددت الساعة الثامنة

مساءً موعداً للاجتماع في مبنى إدارة الأزمة، اختيار المكان على أرض الخصم يُشعره بالراحة في أجواء محتقنة، بات كل مسؤولي الدولة يدركون حجم التوتر بين الرئيس وصهره، لا يستطيع آصف شوكت ولا أحد من الضباط الاعتذار عن الاجتماع. ولو اختير قصر الشعب للاجتماع لأتى آصف بنفسه، فثقته بنفسه وبنفوذه كبيرة جدًّا، ولربما يترجم ذهاب الرئيس إلى مبنى الإدارة على أن الرئيس يبسط نفوذه في المكان. اتصل الرئيس باللواء علي مملوك مدير المخابرات العامة، وطلب منه القدوم إلى القصر قبل الاجتماع بساعة، كما اتصل بماهر الأسد قائد الفرقة الرابعة وطلب منه الأمر ذاته، مهمة الفرقة الرابعة بالدرجة الأولى تأمين العاصمة، استغربت من تحرك الرئيس ولكن ربما يريد إخبار مملوك وماهر فهو يثق بهما، لم أهتم بالأمر، فأنا أصب جل اهتمامي وتركيزي على تنفيذ الخطة بحذافيرها.

قبل الاجتماع بساعتين، بدأنا بالتحرك، استدعيت أحد ضباط القصر من فريقي الخاص إلى مكتبي.

- حضرة الرائد حسام، سأعطيك هذه الحقيبة "سامسونايت" فيها متفجرات، ستذهب إلى مبنى إدارة خلية الأزمة في حي الروضة وستدخل قاعة الاجتماع وتضع الحقيبة عند كرسي الرئيس وتبقى في القاعة لا تغادرها، وسيكون اتصالك مفتوحًا معي حتى تخبرني بوصول الحاضرين أول بأول.

- حاضر سيدي، ولكن كيف سأدخل المبنى بهذه الحقيبة المليئة بالمتفجرات وأتخطى أجهزة الكشف؟!

- خذ هذه ورقة استثناء خاصة بخط الرئيس شخصيًّا، وعليها اسمك ويسمح لك بالدخول إلى المبنى والقاعة نفسها دون تفتيش.

- ومتى أغادر؟

- حتى أخبرك أنا.

حمل الرائد حسام الحقيبة والاستثناء الرئاسي وتوجه إلى مبنى الإدارة وأنا معه على الخط، أشعر بتوتر كبير خشية أي عائق أو حدوث طارئ فتفشل المهمة، لن يتجرأ أحد على تفتيش ضابط يحمل بين يديه استثناءً مُوَقَّعًا من الرئيس شخصيًّا، توجهت إلى غرفة عمليات مصغرة شكلتها مع فريقي داخل القصر ونتابع تحركات الضباط إلى الاجتماع، وقد زُرع عناصرنا خلف المواكب لإعطائنا الأحداث أول بأول.

وصل اللواء علي مملوك والعميد ماهر الأسد الذي ترفع رتبة بأمر من الرئيس، دخلا إلى مكتب الرئيس، وبعد نصف ساعة خرج علي مملوك من مكتب الرئيس وتحدث مع أحد مساعديه وعاد إلى مكتب الرئيس، بينما غادر مساعده القصر.

أخبرني الرائد حسام على الهاتف أنه وضع الحقيبة في مكانها حيث لم يواجه صعوبات، وأخبرني عن وصول الوفود والضباط أول بأول وكان أولهم حسن التركماني رئيس الخلية. خرج موكب مزيف من القصر نحو الاجتماع لعلمنا التام أن أعين الضباط في القصر سيبلغونهم تحركات الرئيس، وكخطوة احترازية حتى يطمئنوا بشكل كامل. رن الهاتف الأرضي في غرفة العمليات، وإذ به يريد معرفة كل الخطوات وطلب أن يبقى الخط مفتوحًا بيننا وبينه ليضطلع بنفسه من مكتبه ومعه علي مملوك وماهر الأسد، وردنا اتصال أن اللواء جميل الحسن وصل إلى المهاجرين، سمعت الرئيس يقول لعلي مملوك "اتصل عليه الآن"، فهمت أنه يريد الطلب منه بالتوجه إلى القصر، واتصل ماهر باللواء عبد الفتاح قدسية وطلب منه التوجه إلى القصر بشكل سري، أسمعهم وأسمع ما يدور في مكتب الرئيس وهم يسمعون ما يدور في غرفتنا.

- فخامة الرئيس، وصل إليَّ الآن من الرائد حسام، أن جميع الضباط قد دخلوا قاعة الاجتماع، وأن وزير الداخلية وبخيتان وصلا إلى الطابق، في انتظار أوامركم حتى أسحب الرائد حسام من الموقع.

- تمام.

وانقطع الصوت من عند الرئيس وأنا مستغرب، أحاول التنصت إلى السماعة وإذ بالخط قد قُطع ونحن في انتظار الأوامر بعد دخول الجميع إلى المصيدة ولأسحب عنصري من هناك. وضعت السماعة وأنا أشعر بالاستغراب. سألني مساعدي "في انتظار الأوامر" وأنا صامت. ويسألني الرائد حسام على الهاتف "ما الأمر؟"، وإذ بي أسمع صوتًا شديدًا على الهاتف وانقطع الاتصال" ألو، ألو، رائد حسام، ألو حسام" أصرخ على الهاتف ولكن لا مجيب، استدرت نحو مساعدي "هناك أمرٌ ما!" وإذ باتصال وارد من أحد ضباطنا في المنطقة، ليرد مساعدي على المتصل ويقف "ماذا؟!"

- ماذا هناك؟ سألته.

- سيدي انفجار كبير داخل إدارة خلية الأزمة.

نظرنا إلى بعضنا، وتساءلت "الرائد حسام؟!" لا أحد يجيب. تركت الهاتف من يدي وخرجت من غرفة العمليات نحو مكتب الرئيس لفهم ما يجري، وقفت أمام المصعد إذ به تأخر، أركض على الدرج كثور هائج إلى مكتبه وأنا ألهث، استقبلتني السكرتيرة واقفة "احترامي سيادة العقيد". بصوتٍ غاضب "أخبري الرئيس بوجودي".

السكرتيرة بتلعثم "عفوًا سيادة العقيد، الرئيس في اجتماع مغلق وطلب مني عدم تحويل أي مكالمة أو إدخال أحد".

أتنفس بغضب "من في الداخل؟".

- اللواء علي مملوك والعميد ماهر الأسد واللواء عبد الفتاح قدسية واللواء جميل الحسن واللواء محمد ديب زيتون.

أشعر بغضب يدفعني للدخول وبقوة لاقتحام المكتب ومعرفة ما جرى، ولكن سأقتل قبل أن أتكلم، أحاول تمالك أعصابي، نظرت إلى السكرتيرة "بمجرد أن ينتهي الرئيس من اجتماعه أخبريني على الفور".

- حاضر سيادة العقيد.

تمعنت في الباب ضاغطًا على أسناني من الغضب ونزلت إلى غرفة العمليات، كان الضباط ينتظرون قدومي، وبادرني مساعدي.

- هل قابلت الرئيس؟
- الرئيس في اجتماع مغلق، هل وصل إليكم أي خبر من الرائد حسام؟
- لا سيدي، وطلبنا من عناصرنا التواجد في المكان لإطلاعنا على كل المجريات.
- أنا ذاهب إلى مكتبي إن حدث شيء فبلغوني.

دخلت مكتبي وطرقت الباب بكل قوة، أشعلت سيجارتي وتسطحت على الكنبة الجلدية وبدأت أسعل، جلست لشرب كأس ماء، دفعت برجلي الطاولة الزجاجية في المنتصف، أحاول جاهدًا فهم ما جرى، أعيد الأحداث من جديد وأتذكر التفاصيل، ونتيجة واحدة تأخذني إلى خروج اللواء علي مملوك من مكتبه وتحدُّثه مع مساعده الذي غادر القصر ومن ثم عاد مملوك إلى مكتب الرئيس، هنا سيكون اللواء علي مملوك قد أعطى جهاز التحكم "ريمونت" لمساعده الذي توجه بدوره إلى أقرب نقطة لمبنى الإدارة، وضغط على الزر حينما أبلغت الرئيس عن تواجد الجميع في القاعة، لكن إن كان هذا

ما حصل، فلماذا غامر الرئيس بحياة الرائد حسام وقتله؟ كان يمكنه ببساطة أن يطلب انسحابه وتأمينه وكانت الخطة ستنجح.

أشعل سيجارة أخرى وأشرب كأسًا من الماء لتهدأ أعصابي قليلًا.

ترر، ترر، يرن هاتف مكتبي، إنه الخط الواصل بيني وبين مكتب الرئيس، أقوم على الفور للرد على الرئيس.

- احترامي سيدي.

صـــوت من خلف الهاتف يطلب مني التوجه إلى مكتب الرئيس على الفور، ولكنه ليس بصوت الرئيس، إنه العميد ماهر الأسد، لماذا لم يحدثني الرئيس نفسـه؟ ما الذي يحدث؟ أغلق الهاتف، أطفئ سـيجارتي، أرتشـف ما تبقى من الماء في كأسي، وأتوجه إلى غرفة العمليات لمعرفة آخر التفاصيل وبعدها أصـعد إلى الرئيس. وصـلت إلى مكتبه، وقفت السـكرتيرة في أثناء وصـولي، يجلس في غرفتها بعض الضـباط من مسـاعدي رؤسـاء الأجهزة الأمنية، وقفوا اسـتعدًا باعتباري أعلاهم رتبة، تشـير السـكرتيرة بيدها نحو مكتب الرئيس تطلب مني الدخول، أخذت نفسًـا طويلًا وأنا مرتبك، أحاول أن أسيطر على غضبي، طرقت الباب وفتحته ودخلت، يجلس الرئيس على كرســيه خلف الطاولة، ومن وراء الطاولة يجلس على اليمين العميد ماهر الأســد ببدلته العســكرية، وبجانبه اللواء علي مملوك وبجانبه اللواء محمد ديب زيتون، ويقابلهم على الجانب الثاني اللواء جميل الحســن واللواء عبد الفتاح قدسية والعميد ذو الهمة شاليش ولكن نظرات شاليش نحوي غاضبة بعكس نظرات الآخرين المبتسمة.

- احترامي سيدي.

يرد الرئيس بشار الأسد بابتسامة عريضة "أهلًا بالعميد علي".

رمق ذو الهمة الرئيس بنظرة استغراب وبعض الضباط، وأنا في ذهول، ليس الرئيس الذي يخطئ في رتبتي! بقيت صامتًا ولكن الذهول تكلم عني.

الرئيس موضحًا "نعم، أنت من اليوم العميد الركن علي زين العابدين".

بصوت خافت متردد "شكرًا سيدي".

شد الرئيس ظهره على كرسيه وبدا يتحدث كمنتصر ومسيطر، نعم لقد أرعب الجميع "قل لي حضرة العميد ما هي آخر المستجدات؟".

أحاول تمالك نفسي قليلًا "سيدي، لقد قتل العماد داود راجحة واللواء آصف شوكت والعماد حسن تركماني واللواء هشام بختيار، وأصيب الوزير محمد الشعار والسيد محمد سعيد بخيتان بإصابات طفيفة كونهم خارج القاعة في أثناء الانفجار، ونُقِل الجميع إلى مستشفى الشامي بحسب الخطة".

ضحك الرئيس "أحسنت يا علي، أنت وفريقك تستحقون مكافأة قيمة".

تبسمت له "نحن بأمر فخامة الرئيس وفداءً للوطن".

أحس بشعور كل الضباط وهم غير مرتاحين، وعلى رغم نفوذهم، فإنهم سيبدون يحسبون كثيرًا من الحسابات تجاه الرئيس، وأدركوا أنه الآن أصبح حافظ الأسد نفسه وفهم أسلوبه في ترهيب وترويض ضباطه.

توجه الرئيس للجميع بالكلام مؤشرًا بيده اليمنى نحوي "سادة الضباط، اعلموا أن ثقتي بالعميد الركن علي كبيرة، وأنه يمثلني شخصيًّا، تصرفوا معه من الآن فصاعدًا على هذا النحو. تفضلوا ونفذوا ما اتفقنا عليه، وستصل إليكم القرارات التي اتخذت بمراسيم رسمية، ماهر ابقَ هنا"، قام الجميع مودعًا الرئيس وألقوا عليَّ السلام وهم ينصرفون، إلا العميد ذو الهمة رمقني

بنظرة غضب وحسد وانصرف حتى دون أن يلقي أي سلام أو تهنئة بترفيع رتبتي كما فعل من هم أرفع منه، بقيت مع الرئيس والعميد ماهر، وطلب مني الرئيس الجلوس. جلست وتوجه إليَّ العميد ماهر بالكلام "أحسنت يا علي، على الرغم من أنني غاضب منك لأنك لم تخبرني، ولكن تصرفت بما يجب لحماية الرئيس والوطن والنظام نفسه".

- شكرًا سيادة العميد.

وضع الرئيس يده على الطاولة وأحنى ظهره قليلًا "يا علي، أنا طلبت من العميد ماهر البقاء حتى أقول لك أن ثقتي بك مثل ثقتي بأخي، هو ذراعي العسكري وأنت الأمني".

- هذا شرفٌ عظيم سيدي، روحي فداك وفداء سوريا.

- اسمع يا علي، لقد أنجزت المهمة ببراعة ونجح الجزء الأهم، ولكن مازال أمامنا لنثبت ما أنجزناه، الآن سيشتعل القصر والدائرة الضيقة بالرئيس، وعليك تسليط جل اهتمامك على القصر نفسه حتى يكون الرئيس آمنًا في بيته. يقولها ماهر الأسد.

- بكل تأكيد سيدي، ونحن وضعنا خطة مسبقة لهذا الأمر.

- أحسـنت، إطراء من الرئيس. قل لي يا علي مابك، تبدو وكأنك لسـت سعيدًا بما حققناه! اليوم نحن ثبَّتنا أركان الحكم وبسطنا السيطرة على أقوى رجالات الدولة.

- فخامة الرئيس، بكل تأكيد أنا سعيد بذلك، وسعيد أكثر بثقتك التي تمنحني إياها، وأنت تعلم أن سبب عدم ارتياحي هو أن من قتلوا هم أهَمّ رجالات الدولة، وكل ما أخشاه أن ضباطًا غير أكْفاء يتولَّون هذه المناصب ونحن في حالة حرب.

بشار الأسد "يا علي، قلت لك سابقًا هذه الترتيبات اتركها لي، المراسيم التي تكلمت عنها للضباط قبل أن يخرجوا هي تنص على تعيينات مهمة ولن يبقى الجميع في مكانه وسأُحدث تنقلات كبيرة".

- أنتم أعلم بذلك سيدي، ولكن سؤال يحيرني حول...

قاطعني الرئيس "حول الرائد حسام أعلم، كان لابد أن نضحي به، كان سحبه من الغرفة سيشكل مغامرة للمهمة وكنا أمام فرصة ذهبية، فكر في الإيجابيات، وعائلة الرائد حسام ستكافَأ وسنرفعه إلى رتبة مقدم لتأخذ عائلته مستحقات رتبة مقدم لا رائد مع تعويض جيد".

- لكن سيدي، ضباطي سيفقدون ثقتهم بي.

تدخل ماهر الأسد "يا علي، نحن في حالة حرب والجميع معرض للقتل بأي لحظة، اعتبره أنه استشهد على إحدى الجبهات، الأمر بسيط".

بشار الأسد "الآن اذهب إلى فريقك ونفذ خطتك لتأمين القصر وتقليم الأظافر التي طالت في القصر لنكون أصحاب الكلمة الوحيدة".

خرجت من مكتب الرئيس وأنا غير مقتنع بتبريره لقتل الرائد حسام، لكني جنديٌ في هذه الحرب وعليَّ الالتزام بأوامر قائدي رغم عدم قناعتي.

الخائن، ليتني ما خرجت من الشراشير

"لم تقنعني يا بشار" تصرخ بشرى الأسد في وجه الرئيس بوجود ماهر الأسد ووالدتهم أنيسة مخلوف، وأسماء زوجة الرئيس، في جناح الرئيس الخاص في قصر الشعب، وبعض من الضباط وأنا معهم نقف خلف الباب، استوحشت بشرى الأسد زوجة اللواء آصف شوكت على أخيها وتتهمه بقتل زوجها، يبرر الرئيس أن ما فعله من أجل الحفاظ على النظام والإرث الذي تركه الرئيس حافظ الأسد، والذي عبث به آصف وفريقه، لكن بشرى تصرخ "بل قتلته من أجل نفسك وكرسيك كما تقتل الشعب". هنا صرخ ماهر في وجهها "تأدبي" سمعنا صوت ضربٍ وكأنه صفعها، وأنيسة تبرر "بشرى نحن في حرب، وقتل زوجك من أجلنا جميعًا لا تكوني أنانية"، بشرى وهي تبكي "أنانية؟!، بعدما قتلتم زوجي ويتَّمْتُم أطفالي؟!"، أنيسة وهي تصرخ "دائمًا يجب أن يكون هناك مَن يضحي بنفسه من أجل النظام"، استشرست بشرى حتى على والدتها "ولكنكم أنتم من ضحيتم بزوجي ولم يضحِّ هو بنفسه بقرار منه، زوجي كان خادمًا لهذا النظام سنوات طويلة وخدم بإخلاص لبابا ولابنك!"، "بشررري!" صرخت عليها أنيسة بصوت عالي "هذا اسمه الرئيس"، "لن أسامحكم لا أنا ولا أولادي" قالتها بشرى وهي تتحدى الجميع، لترد أنيسة "خذي أبناءك وغادري سوريا إلى دبي ولكن بعد انتهاء العزاء".

حاولت بشرى الكلام ولكن أسكتها الرئيس وطلب إنهاء النقاش وخرج من الغرفة ولحقت به، بينما أسير خلف الرئيس توجَّه إليَّ "علي، ضع عيونك عليها في أثناء تواجدها هنا وحتى تغادر سوريا".

اشتعلت الدائرة الضيقة بالرئيس بالتوترات بين العائلة والمقربين وحتى النافذين في القصر، لقد هزت العملية العالم بأسره، وازدادت احتياطاتنا الأمنية داخل القصر تحسبًا لأي طارئ، ولكن الأمر لم يتوقف عند الرئيس ودائرته، بل حتى طالني الأمر، تلقيت استدعاءً من العميد ذو الهمة شاليش إلى مكتبه وعرفت مسبقًا ما يريد، هذا الرجل الذي لطالما كرهني ولم يرد لي الخير، بل إنه لم يرد الخير يومًا لأحد، هو أحد النافذين في القصر باعتباره رئيس الأمن الرئاسي ورئيس فرع العمليات في المخابرات الخارجية وابن عمة الرئيس، وحتى إنه من الحرس القديم للرئيس حافظ الأسد، يعرف بالقصر ما يجهله الرئيس والآخرون، تطوله العقوبات الأوروبية لمشاركته في جرائم حرب وقضايا فساد عالية، وصاحب ثروة كبيرة ونفوذ واسع، وصلت إلى مكتبه ولم يطلب مني الجلوس، وهو متربع على كرسيه خلف الطاولة ينظر لي وكأني عدوه.

- هل أعجبك ما فعلته يا علي؟!
- عفوًا سيدي، ما الذي فعلته؟!
- تنفيذك لهذه العملية.

قاطعته "ولكني لم أفعل من تلقاء نفسي".

صرخ في وجهي "لا تقاطعني".

- عفوًا سيدي، ليس القصد.

- كيف تتجرأ على تنفيذ مهمة كهذه دون الرجوع إليَّ وأنا مسؤلك المباشر؟
- العفو سيدي، أنا نفذت تعليمات الرئيس بحذافيرها.
- ورغم ذلك كان لابد أن تخبرني سرًّا، أنا هنا رئيس الحرس وأنت ضمن فريقي، وكيف تتجرأ على تشكيل فريق خاص بك؟!
- سيدي، أنت أقدم مني خبرة وأعلم مني بمثل هذه الأمور، السرية كانت بطلب من فخامة الرئيس، أما الفريق الخاص هو أمر الرئيس شخصيًّا، وإن كان لديكم أي أعتراض فعليكم بالتوجه إلى الرئيس وليس إليَّ،

صارخًا "علي، أنت لا تفهم ما أقوله!"

- سيدي أنا...
- لا تكرر يا علي لا تكرر، باعتبار أن ما فعلته خدم النظام فلن أعاقبك عقابًا عسكريًّا أو أسجنك، إنما باعتبارك تجاوزتني وشكلت فريقًا خاصًّا بك، أوجه إليك إنذارًا بالفصل كإجراء احترازي حتى لا تتجاوز مرة ثانية، وارفع أسماء فريقك إليَّ ويُحَلّ الفريق فورًا.
- أتقبل الإنذار بكل روح عسكرية وأتفهمه وأقدره، أما فيما يخص الفريق، الأسماء ومصير الفريق بيد فخامة الرئيس وحده.
- تتحداني يا علي؟ ضاحكًا.
- العفو سيدي، فقط ألتزم بقرارات الرئيس حول ذلك ولست إلا عضوًا.
- جيد، أنت موقوف عن العمل وسأحيلك إلى محكمة عسكرية، اذهب إلى مكتبك وسلم سلاحك وانتظر نتائج التحقيق وقرار المحكمة، انصرف.

خرجت من عنده وأنا أثور غضبًا، حيث لم يحترم رتبتي التي تساوي رتبته وجعلني واقفًا، وأوقفني عن العمل، حاولت التوجه إلى مكتب الرئيس لكن

الثعلب القذر قد احتاط لذلك وطلب من بعض مساعديه مرافقتي ومنعي التوجه إلى أي مكان سوى مكتبي. دخلت مكتبي ووقف المساعدان عند الهاتف لمنعي إجراء أي إتصال ولأنقطع عن الرئيس تمامًا، حملت أغراضي وسلمت سلاحي وخرجت من مكتبي، ومُنِعْت ركوب سيارتي، بل طلب مني أركب سيارة أخرى يرافقني فيها ضابط إلى خارج القصر، لم آبه لكل هذه الإجراءات ولم أتأثر بطريقة إخراجي من القصر بهذه الطريقة، لأني أعلم بأني قادم، ذو الهمة لا يريد من ينافس نفوذه في القصر، لا يريد النزول عن هذا العرش، خرجت من القصر متوجهاً إلى دمشق، هي فرصة سانحة لي أن أتجول قليلًا في شوراع دمشق المنهكة، منذ فترة طويلة لم أفعل ذلك لعملي الدائم مع الرئيس. أتجول في شوارع دمشق والتعب في عيون الناس ألمحها، تعبٌ لا يخفي نفسه، توجهت إلى أحد المطاعم وتناولت سندويشة فلافل شهية أغيظ فيها الجوع، أجلس في حديقة تشرين في ساحة الأمويين بعض الوقت، لكني أجد الحديقة قد فر منها العشاق ولجأ إليها المنهكون والفارون من الحرب، اتخذوا من بعض زوايها ملاذًا آمنًا لهم، مقاعدها فارغة، فقط الذكريات وحدها منحوتة على هذه المقاعد والأماكن مهجورة، والورود ذابلة والأشجار بدأت تتيبس من أوراقها بعدما كانت حديقة تشرين في العيون بريقًا من ألقها، أجلس مستذكرًا حياةً مرت في لمح البصر، تحول فيها البشر إلى وحوش ومن عشاقٍ حاملين الورود إلى قتلة يحملون البارود ويجلخون السكاكين، أصبحت رؤية وردة بيد عاشق ومحب للحياة جريمة وفضيحة في زمنٍ لم يعد الإنسان إنسانًا، أرفع كُمَّ قميصي وأتفحص ربطة شعر زينبتي على معصمي أشم رائحتها وأستنشق من رحيق عبيرها، آهٍ لو كانت زينب معي الآن في هذا المقعد لأقول لها ما في قلبي، قبل أن يتحول من الجفاء إلى حجر! ولكن قلب المحب لا يتوقف عن الحياة، ويبقى ينبض بالأمل. بقيت

دمشق طوال الدهر حاملة راية الجمال وستبقى جميلة، لكنها اليوم تبدو حزينة من حزن أبنائها، لقد طغت رائحة الموت على رائحة الياسمين.

يرن هاتفي المحمول، أُخرجه من جيبي، الرئيس يتصل، لا يعلم الأحمق ذو الهمة أن الرئيس سيعلم وأن بيني وبينه خطًّا خاصًّا.

- احترامي سيدي.
- علي، أين أنت؟

"مشردٌ في شوارع دمشق هائم على وقع الذكريات والأسى، ألملم حطام الروح المبعثرة" قلتها في نفسي.

- أنا في حديقة تشرين!
- ماذا تفعل في حديقة تشرين؟!
- آكل سندويشة فلافل.

سمعت ضحك الرئيس "من أين لك هذه الشهية بعد الذي حدث معك؟! لماذا لم تتصل بي؟"

- وجدتها فرصة مناسبة أن أريح القصر مني وأتجول قليلًا في دمشق بعيدًا عن التجوال بين الملفات والتقارير.
- وهل هذا وقت فلسفتك؟ سأرسل إليك سيارة، أنا في انتظارك.
- حاضر سيدي.

ولا يعلم الأحمق ذو الهمة، أنَّ أَعْيُن فريقي قد رصدت كل شيء وستخبر الرئيس دون أن ينتبه، ألم يستغرب من عدم مقاومتي وخروجي بهذه السهولة؟! لقد أعماه تكبره.

وصلت إلى القصر بسيارة رئاسية وأعين الضباط ممن نفذوا أوامر شاليش تتحرك نحوي بخوفٍ شديد، أسير بينهم زهوًا متعجرفًا، دخلت المبنى وصعدت إلى مكتب الرئيس، ركض نحوي أحد مساعديّ وهمس في أذني أن العميد ذو الهمة نزل للتو من مكتب الرئيس وكان غاضبًا يثور كالبركان الهائج. دخلت مكتب الرئيس.

- احترامي سيدي.
- قلت لي تأكل سندويشة فلافل!

ابتسمت له.

- لقد أبلغت العميد ذو الهمة أنك من الآن وصاعدًا مسؤول مني مباشرة، رغم أنك تتبع له في التسلسل الوظيفي، ولكن ما يخصك شخصيًّا فأنت مسؤول مني. وكل ما صدر عنه يُلغى على الفور، وتعود إلى عملك، مرة أخرى أخبرني، واذهب بعدها وتجول في دمشق وتناول ما شئت من الفلافل.

ضحكت مرة أخرى وخرجت، نزلت إلى مكتبي وكم تمنيت لو أزور شاليش! لكن شرٌ يجب الابتعاد عنه، عدت إلى عملي كما يجب وتلقيت برقية خاصة بي أرفقت بجملة "هام وخاص جدًّا" تعجبت من هذه البرقية، فهذه هي المرة الأولى التي تصل إليَّ فيها برقية خاصة وباسمي وإلى مكتبي، المرسل المخابرات العسكرية، تعجبت من ذلك كثيرًا، أفتح البرقية على عجل وأقرأ السطور والحروف وما حُمل إليَّ شخصيًّا، تخبرني البرقية بالقبض على جاسوس خائن يتعامل مع الأعداء ويزود الجيش الحر بصور وتقارير سرية ومعلومات، وقد ألقي القبض عليه بعد الاشتباه به ووضعه تحت المراقبة ليُقبض عليه متلبسًا وهو يحاول إرسال معلومات عسكرية عن

تحركات الجيش للطرف الثاني. استغربت هذه البرقية، لِم ترسل إليَّ شخصيًّا؟ وما شأني بذلك؟ ولكن سرعان ما أعرف أن الخائن يكون زميلي السابق وابن دورتي "عماد"، وفي أثناء التحقيقات والبحث عن معلومات عنه، توصلت المخابرات العسكرية إلى معلومة حول صداقته وقربه مني، ويطلب تقديم أي معلومات تفيد التحقيق، أغلقت البرقية. عماد؟ يا إلهي! كم من السنوات مضت دون أن ألتقيه! لقد أصيب عماد بكسر في أثناء وفاة باسل الأسد عام ١٩٩٤، كنا معًا عند بوابة جامع ناعسة، ووقع على الأرض نتيجة تدافع كبير وأخذ فترة نقاهة، وآخر مرة رأيته فيها كانت بعدها بثلاث سنوات، عندما كنا نقباء في عين الخضراء، التقينا في مهمة وخطفتنا الذكريات، ولكن منذ تلك الفترة لم يحدث أي تواصل بيننا، أغلق الظرف، واتصلت بمساعدي أطلب منه الاتصال بالمخابرات العسكرية وتأمين اتصال مع اللواء رفيق شحادة مدير المخابرات العسكرية حيث تولى المنصب من اللواء عبدالفتاح قدسية بعد تفجير خلية الأزمة، وأحدث الرئيس كثيرًا من التنقلات الهامة في الدولة. يثق الرئيس باللواء رفيق شحادة وقد استمات شحادة لكسب رضا الرئيس بعد ما أبلاه من بلاء في ملاحقة المعارضين والناشطين، وقد شكل خلايا نائمة بين الجيش الحر، واللواء رفيق شحادة صاحب القبضة الحديدية من قريتي الشراشير! طلبت من اللواء أن يرسل إليَّ "عماد" في القصر كوني لا أستطيع زيارته لانشغالي، وافق اللواء على طلبي "قهلا بابن ضيعتي". تُرى ما الذي فعلته في نفسك يا عماد؟ وكيف سأنقذك مما أنت فيه؟

وصلت سيارة المخابرات العسكرية إلى القصر وأُدخل عماد إلى مكتبي وهو مكبل اليدين ومطموس العينين وآثار التعذيب من توقيع اللواء شحادة على وجهه، ولكن احترامًا لي وربما للقصر تم إلباسه لباسًا لائقًا، أُجلس خلف

مكتبي وأنا أنظر إليه بعدما رُكِّع على الأرض كونه لا يقوى على الوقوف بسبب التعذيب، ويقف ضابطان خلفه.

- فكوا قيده وعينيه واخرجوا.
- ولكن سيدي...
- نفذوا الأمر هيا، وأجلسوه على الكرسي. بهدوء شديد قلتها للضابط.

أخرجت سيجارة وأشعلتها وبدأت أسحب الدخان وأنا أشاهد وجهه المتورم من التعذيب والخدوش الواضحة على خديه والأزرق تحت عينيه، وهو ينظر نحوي يحاول استجماع قوته وتارة يفتح عينيه ويغلقها، حتى استقر به القرار. "علي!".

- ماذا فعلت في نفسك يا عماد؟
- ما يرضي الله وضميري.
- يا عماد، ما فعلته خيانة، منذ متى كانت الخيانة ترضي الله والضمير؟!

يحاول عماد استجماع قوته وبل ريقه ومتكلمًا بصعوبة بالغة، يتأوه من بعض ألم يخفيه "إن كنتُ خائنًا كما تقول فلماذا أنا هنا عندك في القصر؟!"

مستغربًا "وكيف عرفت أنك في القصر؟!".

- لا أعلم الرتبة التي تحملها الآن، ولكن أعرف منذ سنوات أنك أصبحت حارس الرئيس ومن طريقة جلوسك خلف الطاولة عرفت أنك في مكتبك.
- أنا الآن عميد ركن، وأنت مقدم ولكن في الجيش!
- كنا أبناء دورة واحدة، ولكن لأنك بعت ضميرك أصبحت عميدًا وأنا مازلت مقدمًا، وأصبحت قويًّا لدرجة أنك أتيت بواحد مثلي إلى مكتبك، ما عرفتك كذلك يا صديقي القديم.
- اشرب الماء يا عماد، اشرب.

بعد ما شرب الماء بدأ يشعر ببعض الراحة.

- أنا كما عاهدتني، ولكن ما قمت به خيانة بكل المفاهيم، تسرب معلومات عسكرية وتحركات زملائك إلى الأعداء، ما تفسير ذلك؟!

- هذا النظام يجب أن يسقط يا حضرة العميد، وسيسقط، أنا لم أخن، بل حبًّا بالوطن فعلت ما فعلت ولست نادمًا.

- ما تقومون به وهمٌ، تنشقون عن الجيش وتحاربون جيشكم وتقولون ثورة؟!

احتد عماد "من قتل المتظاهرين السلميين؟ من؟ أليس هذا الجيش الذي تقول عنه ومخابراتكم؟ ألا تعرف ماذا يحدث في المعتقلات؟ كيف يُعذبون المعتقلين حتى الموت؟ ويغتصبون النساء؟ ألا ترى كيف تدمرون المدن؟ أي جيش هذا؟! هذه هي الخيانة في حد ذاتها".

- ونحن ندافع عن وحدة الوطن ونحفظ أمنه ونحارب من أجل عودة الاستقرار إليه ليعيش المواطن في أمان كما كان، ما فعلتموه أنكم قسمتم الشعب إلى قسمين، ها نحن أنا وأنت نقف وجهًا لوجه، نحن أبناء بلدٍ وأصدقاء دورة عسكرية، ولكن أعداء!

- تدافعون عن وحدة الوطن بالمرتزقة الإيرانيين من الحرس الثوري وحزب الله وميليشيات عراقية وأفغانية وعصابات أمل وشبيحة وزعران، والروس حتى؟! تبًا لهذا الدفاع.

- الدولة تتصرف كما تراه مناسبًا وفقًا لمصالح سوريا.

- تقصد لمصالح النظام! إن أتيت بي إلى هنا لتسمعني هذه المحاضرة السخيفة، فدعك منها واقتلني، وإن كنت حقًّا تحب الوطن كما تدعي فسأقدم لك أمرًا تمتحن فيه وطنيتك!

- عماد، أنت في موضع اتهام وضعف لا في موضع تختبر فيه وطنيتي، فكّر كيف يمكن مساعدتك بشأن ما اقترفته، إن ساعدتك فهل تعدني بألا تعود إلى ما كنت عليه؟

- ساعد نفسك أولًا فيما أنت فيه، أما أنا فدعك مني، لقد قبلت بالمصير الذي ينتظرني، لأني مرتاح الضمير، ولكن افعل ما يريح ضميرك، واتخذ قرارك في الوقت المناسب.

- أي قرار؟!

- أنت تعرف أي قرار في وقته، ولكن إن أردت المساعدة حقًا، ففي المخابرات العامة فتاة جامعية بفرع الخطيب، اعتقلت لنشاطها السلمي المدني فقط، عذبت بطريقة بشعة، وتُغتصب كل يوم وسِنّها عشرون عامًا، اذهب وأنقذها، يلقبونها في فرع الخطيب بـ"حبيبة المعلم" ساعدها، ودعك مني.

شعرت بغضب شديد، ولكن تمالكت نفسي "وكيف عرفت بذلك؟!".

- لقد كَشَفَ أمري أحد أعين المخابرات العامة، وأخذوني إلى فرع الخطيب، وعرفت قصتها من صراخها وهي تُسحب إلى غرفة رئيس الفرع، وعرفت قصتها كما يعلمها كل الفرع، وبعدها نقلوني إلى المخابرات العسكرية.

- أنا لا أنكر أن هناك تجاوزات.

قاطعني عماد "يا رجل، تجاوزات؟! اذهب إلى معتقل صيدنايا أو إلى سجن مزة أو سجن تدمر أو فرع فلسطين، إلخ... اذهب وانظر بعينيك إلى ما يحدث، انزل إلى الشارع وانظر كيف يقتل أبناء شعبك وتقصف المدن، وتقول لي تجاوزات؟! هذا نظام فاسد وحقير، وهذا الذي تضع صورته خلفك

مجرم، اترك هذا المكتب الفاخر المكيف، وانزل إلى الشارع وشاهد وقيم ووقتها قل تجاوزات".

صرخت في وجهه "لقد تجاوزت يا عماد، وسأعيدك إلى المخابرات العسكرية لتنال عقابك على خيانتك".

- أتهددني؟ افعل ما يحلو لك، وأنا أساسًا لم أطلب مساعدتك، فقط أريد تذكيرك في أثناء الدورة العسكرية بالفساد الذي كنا نراه بأعيننا، تذكَّر كيف كان يُفْرَز من هم دون كفاءات في المناصب المريحة، تذكَّر فقط.

ناديت مساعدي وطلبت منه أخذ عماد إلى المخابرات العسكرية، وُضع القيد في يده وطُمست عيناه وهو ينظر إليَّ وأنا أنظر إليه، في أثناء خروجه بدأ يهتف "الشعب سيسقط هذا القصر على رأس مجرمكم بشار" و"يلعن روحك يا حافظ". وإذ بصوت رصاصة أسكتت صوته، هرعت من مكتبي إلى الممر لأعرف ما الذي حدث، دخلت الممر المؤدي إلى البوابة الخارجية للمبنى، فوجئت بعماد المقيد غارقًا في دمه برصاصة في رأسه، وعلى جثته يقف العميد ذو الهمة شاليش وبيده مسدسه الخاص وعلى وجهه علامات غضب.

- كيف تسمح لنفسك يا عميد علي أن تُدخل مثل هذا إلى القصر؟
- وكيف تقتله هكذا وهو متوجه إلى حيث سيحاكم؟!
- لقد تجاوزت يا علي.

أرد بغضب "اسمي العميد علي، يا حضرة العميد!".

استدار شاليش وتجاهلني وذهب إلى حيث لا أعلم وربما إلى مكتب الرئيس ليشكوني إليه، أقف عند جثة عماد متأسفًا وغاضبًا، وطلبت من الحرس أخذه وتنظيف المكان.

أجلس في مكتبي حائرًا مكبلًا بالأفكار، عرفت مِن مساعدي أن ذو الهمة لم يتوجه إلى الرئيس، لربما أراد أن يتكتم على الأمر، أو لغاية يخبئها في نفسه، القصر كبير وصوت رصاصة لن يصل إلى مكتب الرئيس، لربما أصوات القصف على أطراف دمشق غطت على صوت رصاص في القصر، أفكر في كلام عماد حول تلك الفتاة التي تحدث عنها، لكن عليَّ أن أتريث قليلًا قبل أن أدخل في صدامٍ مع أي ضابط آخر، ولأرى ما سينتج عما حدث في القصر اليوم، لم يمضِ كثير حتى استدعاني الرئيس إلى مكتبه، أذهب إليه ولا أعلم بم سأجيب حين يسألني "ماذا فعلت بحق من شتمني وشتم أبي؟!".

- ما الذي فعلته يا علي؟ تُدخل الخونة والإرهابيين إلى القصر؟

- فخامة الرئيس بسبب انشغالي لم أستطع الذهاب إلى المخابرات العسكرية.

قاطعني الرئيس "وما شأنك حتى تتدخل فيها هو خارج القصر؟".

- سيدي، هذا الشخص يكون ابن دورتي واستقبلت برقية من المخابرات العسكرية حوله لأُدلي بأي معلومات تساعد في التحقيق، وأردت التحقيق معه بنفسي، على كل حصل ما حصل، وفعلًا طلبت إعادته إلى حيث أتى.

الرئيس غاضبًا "ولكنك وقفت صامتًا حيال هتافاته المعادية في قصري!"

- سيدي، لقد هتف وهو في الممر بعد الخروج من مكتبي، وأنا خارج إليه سبقني العميد ذو الهمة وقتله.

- هل كنت ستقتله؟

- ما كنت لأقتله، لربما كنت سأضربه بسبب ما هتف.

- لربما يا علي؟! هذا الشخص كان يجب إحراقه لا قتله. لا تكرر مثل هذا الخطأ مرة أخرى يا علي!
- أمرك سيدي.

ولو كان بيدي لأحرقت ذو الهمة نفسه، وطنٌ يحترق ويُدمر، وضباطٌ لا يتوقفون عن المناكفات فيما بينهم، أليس بسبب هذا الأمر ضاعت سوريا؟ أقاوم بكل الوسائل تجاهل ما قاله عماد، صوته في أذني يرن، وصراخ فتاة لا أعرفها تستنجد بي، وما فعله بي ذو الهمة ترك عندي دافعًا قويًّا للتحرك إلى فرع الخطيب للوقوف على حقيقة هذه الفتاة، لكن إن صدق عماد فماذا سأفعل؟ الرئيس يبرر أخطاء ضباطه حتى يكسب ولاءهم وللقضاء على معارضيه. طلبت من مساعدي أن يجهز سيارتي وعددًا من الحرس للخروج، لم يعد من السهل الخروج هكذا في دمشق دون أخذ الاحتياطات الأمنية، الجميع معرض للاغتيال، وطلبت السرية الكاملة على تحركاتي وعدم إعلان وجهتي. تحركت بسيارتي عند مفترق القصر نحو فرع الخطيب الواقع في قلب العاصمة دمشق، أتحرك من القصر نحو ساحة الأمويين متوجهًا إلى شارع شكري القوتلي وعند سينما سيتي انعطفت من مفترق الطريق يسارًا نحو شارع بورسعيد، أتخطى ساحة يوسف العظمة إلى شارع "٢٩ أيار"، أسير طويلًا تجاه ساحة "١٧ نيسان"، سيارة تسير أمامي وأخرى من خلفي يرافقني ثمانية عناصر، أحاول جاهدًا أن أكون متمالكًا أعصابي، عند ساحة "١٧ نيسان" انعطفت يمينًا ودخلت شارع بغداد حيث يقع فرع الخطيب التابع للمخابرات العامة ويسمى فرع "٢٥١" الداخلي، أقف أمام الفرع متخطيًا الحواجز الأمنية الترابية، أنزل من سيارتي يرافقني أربعة عناصر إلى الداخل، أتوجه إلى الطابق الأول حيث قيادة الفرع، جميع من أمرُّ من أمامهم يضربون أقدامهم في الأرض كنوع من التحية العسكرية، أصل إلى باب رئيس

الفرع العميد توفيق علي يونس، يضرب الحاجب قدمه اليمنى في الأرض كنوع من التحية، أنظر إليه "أنا العميد الركن علي زين العابدين من القصر الجمهوري".

يصيح بصوتٍ عالٍ "احترامي سيدي".

أمعن النظر في عينيه الخائفتين أحاول ترهيبه "اذهب وآتني بالموقوفة حبيبة المعلم مع ملفها".

ينظر الحاجب إليَّ باستغراب شديد، فهذا اللقب يبدو لا يعرفه سوى من هم داخل الفرع، تُراه يتساءل كيف عرفت؟ تجمد في أرضه لا يعلم ماذا يفعل، صرخت فيه "هيا تحرك"، ارتجف الحاجب "أمرك سيدي"، ركض نحو بهو الممر. فتحتُ الباب ودخلَتْ معي المرافقة إلى الغرفة، يجلس العميد خلف مكتبه، نظر نحوي بتعجب؛ كيف أدخل دون طرق الباب! لكن صمت حين رآني ومعي المرافقة بلباسنا المدني، "مرحبًا حضرة العميد".

- أهلًا وسهلًا! وقف العميد وسار نحوي مادًّا يده للسلام.

مددت يدي "أنا العميد الركن علي زين العابدين من القصر الجمهوري والمسؤول عن أمن الرئيس الخاص".

رسم ابتسامة خوف على وجهه "تفضل.. تفضل سيادة العميد". أشار إليَّ بيده لأجلس على كرسيه خلف المكتب، فعلتها وجلست خلف المكتب وطلبت منه الجلوس.

"سعيد بزيارتك المفاجئة" في مجاملة، أعرف أنه غير سعيد بزيارة ضابط من القصر، عناصر مرافقتي ما يزالون واقفين، وينظر العميد تارة نحوهم وتارة نحوي، وكشف فضوله "لديَّ فضول لأعرف سبب الزيارة إذا

سمحتم"، ابتسمت له وأنا أضع ساقًا على ساق مُسندًا ظهري إلى الكرسي وواضعًا يدي على أطرافه "ستعرف بعد قليل".

بعد دقائق وصل الحاجب واستأذن في الدخول، وقلبي ينبض لسبب لا أعرفه. دخل الحاجب وبيده ملف، سأل العميد توفيق الحاجب "ما هذا الملف؟".

الحاجب "طلبه سيادة العميد". سألته "أين الفتاة؟!"، أجابني "عند الباب".

- أدخلها على الفور وضع الملف على الطاولة.

وسط استغراب العميد توفيق، أخذت الملف وبدأت أقلبه باحثاً عن أي ثغرة قانونية ضد العميد توفيق، أدخل الحاجب الفتاة، لم أرفع رأسي للنظر إليها، ولكن العميد توجه بسؤال دون أن يحدد لمن يسأل، وبصوت خائف "ماذا يحدث؟".

أقلب الأوراق ولكن أجبته "ستعرف كل شيء، اصبر"، بينما أقرأ ملف الفتاة ومحاضر التحقيق والتهم الموجهة إليها، وصلت إلى ضالتي. أغلقت الملف ونظرت إلى العميد توفيق ورسمت ابتسامة، ووجهت نظري المتهرب نحو الفتاة التي تتوسط أربعًا من مرافقتي والحاجب الذي يمسك ذراعها وهي مقيدة اليدين وترتجف، وجهها طويل ومقوس عند الفكين، عينيان غائرتان وكأنهما الكوكب الدري، وجهٌ دمشقي أبيض كبياض الياسمين، شعرٌ أسود طويل مجعد غير ممشط كالسنابل الذهبية التي أصابتها فيروس زراعي، شفتاها العريضتان مشققتان ودماءٌ جفَّ على الشفة السفلى، طولٌ كشجرة سنديان، وخصرٌ كعود الخيزران، وصدرٌ أبيض كجبل الشيخ المكتسي بالثلوج، ورقبةٌ بيضاء عليها آثار اغتصاب واضح، آثار أسنانٍ قد تلذذت

بامتصاصها حتى احمرت وتركت أسنان وحشٍ في رقبة غزال، تلبس كنزة طفراء وبنطالًا أسود، الخوف يشع من عينيها اللتين لم تتوقفا عن النظر نحو الباب على يساري.

- أيها الحاجب، أتيني بكوب ماء وفك قيدها.

- حاضر سيدي.

- عميد توفيق، بإمكانك أن تتركنا وحدنا، واذهب إلى عملك حتى أرسل في طلبك.

يرتجف العميد توفيق خوفًا، وفضحه صوته "ولكن سيدي...".

- نفذ الأمر سيادة العميد، أزوره بنظراتٍ حادة، وبوجه عابس.

وقف العميد وتوجه إليَّ بتحية، وسار نحو الباب وهو يرمق الفتاة بنظرة تهديد، ولكن الفتاة أحنت رأسها بالأرض، تتهرب منه، دخل الحاجب بكوب ماء "ضعها أمام الفتاة واخرج، وليخرج الجميع ويمنع الدخول إلى هنا كائنًا من كان".

خرج الجميع وبقيت وحدي مع الفتاة في المكتب، التي تنظر نحوي باستغراب، ولكنها سرعان ما أمسكت كوب الماء وارتشفته كله وهي ترتجف، وقفت وبدأت أتمعن في المكتب الكبير، أفتح الباب الذي كانت تنظر إليه خائفة، عندما فتحت الباب وجدتها غرفة منامة لرئيس الفرع وفيها سرير، عرفت سبب خوف الفتاة.

تجلس الفتاة على الكنبة يسار المكتب، واستدرت وجلست أمامها على الجانب الأيمن، أشعلت سيجارتي، وأنا أمعن النظر فيها.

- أنا هنا لأسمع قصتك منكِ، أصدقي القول، لأني سأعرف الحقيقة، وإن كذبتِ عاقبتك أشد العقاب، وإن صدقتِ أخرجتك من هنا.

بصوت خائف مرتجف "وغيرك قالها بأنه سيخرجني من هنا، وأخذني عشيقة له".

- أولًا أهدئي ولا تخافي، ثانيًا تهتفين بالمظاهرات للكرامة، لكنك سلمتِ نفسك وشرفك وكرامتك لأحدهم مقابل أمر. مهما كان الأمر، لكن ما فعلتِه يتناقض تمامًا مع ما تدعينه وتهتفين له!

ضحكت الفتاة ضحكة أذرفت عينيها ببعض قطرات ندًى تنسدل على الخدين كلآلئ مضيئة في ليلة الميلاد.

- ما الذي يضحكك؟
- "سخافتك". بعيون شاردة.

وضعت ساقًا على ساق ونفخت من سيجارتي "إذًا فقولي قصتك كلها حتى لا أبدو سخيفًا كما تقولين!".

- أي قصة منها تقصد أيها السيد الذي لا أعرف من تكون؟!
- أفهم منك أن لديك قصصًا، جميل قولي قصتك منذ البداية، من أي وقتٍ تختارين، وابدئي من خارج هذه الأسوار حتى وصولكِ إلى هذه الغرفة.

لقد خدشتم حياء الوطن

قصتي كقصة هذا الوطن، اغتصبت كما اغتصب هذا الوطن، شوهت أنا كما تشوه هذا الوطن، حزني كبير يا سيدي، كالحزن الذي يخيم على هذا الوطن، أنا لحنٌ يعزفه أوتار عود على مقام نهاوند، تارة حزنٌ يدندن وتارةٌ أملٌ وفرح.

أنا اسمي "مياسة"، أسماني أبي، وسني اثنتان وعشرون سنة، أدرس في كلية الطب، لكني يا سيدي مازلت طفلة لخوف أبي عليَّ، ولدلال أمي لي، وبالدفء الذي يحيطني به إخوتي. مثلي مثل سائر السوريين والسوريات حلمنا بحياة أفضل، حلمنا أن تنتهي المحسوبيات التي أوصلت البلاد إلى أردأ الدول، فالكفاءات كلها هربت، من يمتلك المال أصبح في أعلى المناصب، ومن كان له واسطة ارتفع إلى أعلى الدرجات، حتى رئيس الجمهورية على الرغم من عدم كفاءته لكنه أصبح رئيسًا للجمهورية لأن واسطته أنه ابن الرئيس، في الوقت الذي فيه يمتلك هذا الوطن كفاءات كبيرة كفيلة بأن تضعنا على مستوى أرقى الدول، ولدينا المقدرة على توجيه موارد البلاد لنكون في مصافّ الدول، لكن الفساد المالي والإداري نخر جسد الوطن، كما تتغير مسامات جسدي. بات الأمن يهددنا بكرامتنا إذا لم ندفع رشوة، فيقولون دون أي خوفٍ من أي قانون أو رقابة، ادفع لتحفظ كرامتك، أهذا وطنٌ أم غابة؟! يوقفك شرطي السير ليأخذ رشوته بكل وقاحة حتى لو كان

السائق قانونيًّا، الموظف لا يوقّع على المعاملة دون أن يقبض على الرغم من أن جميع الأوراق المطلوبة كاملة. أصبح المرتشي هو الذكي والمواطن الشريف، والشريف غير المرتشي أصبح غبيًّا وأضحوكة في هذه البلاد. "الحرية" هي الكلمة التي نسمع عنها ولا نراها يا سيدي، لا يتجرأ المواطن أن يناقش شرطيًّا، ولا يستطيع الكاتب أن يكتب نصًا، ولا يتجرأ الشاعر على الهجو، والخوف من سلطة الأمن أصبح هاجسًا. التفكير أصبح مقيدًا، الأمن وحده من يفكر عنا ويخطط لنا، الكرامة هذه أضحوكة لا ندخل في جدال حولها.

خرجنا في مظاهرات سلمية نهتف بالخير للبلاد والصلاح للعباد، هتفنا لإصلاح النظام لا لإسقاطه، لكن حين تجبَّر النظام وسفك دمنا، هتفنا بإسقاطه، هتفنا لسوريا بعيدًا عن عبادة الفرد، فكان الرد "الأسد أو نحرق البلد" وحرقتم البلد، صدقتم وأنتم الكاذبون، اذهب إلى كل المعتقلات وانظر الأهوال بعينيك، اذهب إلى صيدنايا وانظر العجائب، فستجد فيها عقلاء ونبلاء الوطن، ستجد الأطباء والمهندسين والشرفاء والقضاة والكادحين والشعراء والفلاحين والكُتاب، ستجد فيها كل محبٍّ لهذا الوطن في مقبرة يعانون الويلات، وأتحداك أن تجد لصًّا أو فاسدًا.

وزعنا منشورات في الجامعة نطالب بالتظاهر السلمي والاحتجاج الحضاري، نطالب فيها بدستور عصري، وقانونٌ يكون فوق الجميع، نطالب بعدالة اجتماعية والمساواة والتعددية السياسية، نريد حرية نرتقي فيها بسوريا، وكرامة تحفظنا.

عند المساء هاجم الأمن منزلنا كأني جاسوسة وعميلة وخائنة، وبدأوا بتكسير أغراضي ومصادرة أجهزتي، دفعوا والدي المسنّ على الأرض، وشدني أحدهم من شَعري وهم يصرخون بي بأبذأ الكلمات، أغمضوا عينيَّ ووضعوني

في سيارة بين متحرشين لا قوات أمن واجبهم حمايتي، منذ اللحظة الأولى بدأوا يتحسسون جسدي ويمررون أيديهم على رجلي وأنا أصرخ بهم ولكنهم يضحكون، ونحن في الطريق إلى الفرع الذي كنت أجهله، مرت الذكريات أمام عينيَّ، أبحث عما اقترفته من ذنب حتى أعامل هكذا، ما جرمي؟ أنا هتفت "الله سوريا حرية وبس"، هتفت للحرية، هتفت "الشعب يريد إصلاح وإسقاط النظام" ولم نقل إسقاط الدولة والوطن بل هتفنا "واحد واحد واحد الشعب السوري واحد" وأنتم جعلتمونا طوائف متفرقة.

وضعوني في زنزانة فيها كثير من النساء، شابات وطالبات، موظفات ومتزوجات، أتعلم ما الذي يحدث في غرفة التحقيق؟ امرأة تناوب على اغتصابها مجموعة وهي الآن حامل ولا تعرف مَن أب الجنين الذي في أحشائها، وامرأة اغتُصبت أمام زوجها لمعاقبته، بل اغتصبوا زوجها أيضًا، جُرمهم الحرية يا سيدي، نساء يُضربن بأبشع الطرق والأساليب، روائحنا تفوح قذارة، لا اهتمام طبي ولا اهتمام إنساني، ولا أي رعاية من أي نوع. صفعني أحد الضباط على وجهي وهو يريد مني أن أوقِّع على تهم بالعمالة، آثرت على نفسي التعذيب ولا أوقِّع على هذه التهمة، أنا أحب سوريا أكثر منكم جميعًا. العميد هذا حينما رآني أرادني لنفسه، استدعاني إلى مكتبه وطلب مني أن أنام معه، مقابل أن يضعني في زنزانة نظيفة وحدي، وأن يقدم لي الرعاية الطبية والغذائية التي نحلم بها، وانه بعد أن يكتفي مني عدة مرات سيطلق سراحي.

صرخت في وجهه، ليست المرأة السورية التي تقبل على نفسها هذا الهوان، بدأ بالتعذيب النفسي والترهيب، وهددني بأنه سيتركني فريسة بين أنياب عناصره ليغتصبوني، وبدأ بالضغط عليَّ، وبسبب إصراري ورفضي، بدأ يضربني بأسلاك الكهرباء على ظهري وجسدي، حتى غير خريطة جسدي،

وتمنعت عنه، أُخذت إلى غرفة وربطني على كرسي وأجبرني على مشاهدة اغتصاب فتاة، وكِلانا تصرخ وهم يضحكون ويشتمون بقذارة لا مثيل لها، رُبِطَت يداها وقدماها ووُضعت على كرسي، وبدأوا يمزقون ملابسها وهي تصرخ، كنت أرتجف رعبًا، وأذرف وابلًا من الدموع، وهم يعضون على حلماتها وصدرها وهي تصرخ ألمًا، ومع كل صرخة منها كانوا يصفعونها بكل قوة حتى تحول وجهها إلى خطوط حمراء بفعل أيديهم، يشدون شعرها وهي تسبهم "يا كلاب يا أنجاس"، الذي كان بجانبي ممسكًا رأسي بيديه حتى لا أدير وجهي، كان يمرر يديه على جسدي، وأنا أطلب منه ألا يفعل لأني مثل أخته وهو يقول "فشرتي" وبدأ يمرر يده نحو صدري، وأنا أضرب قدميَّ على الأرض وأبكي وأصرخ، لكني مقيدة بشكل محكم، فك زر قميصي وأدخل يده إلى صدري وبدأ يعبث، حتى صرخ به زميله "هي حبيبة المعلم اتركها" سحب يده وبدأوا باغتصاب الفتاة التي كانت تنزف دمًا، اثنان معًا كانا يغتصبانها، ويضحكان، لقد كان لضحكهما أثرٌ أكبر على نفسي، لقد تجردا من الإنسانية.

اصطحبوني إلى هذه الغرفة وقال لي العميد: "سيحدث بك الأمر ذاته إن لم تنامي معي"، أصبحت أتوسل إليه بأني مثل ابنته، لكنه شتمني وسحب حزامه وبدأ يضربني بقوة، ووُضعت في منفردة لا شيء فيها، أنام على الأرض العارية، وأسمع أصوات التعذيب والاغتصاب وصراخًا في الليل والنهار، ثماني عشرة ساعة لم أستطع النوم من شدة أصوات التعذيب وسياط الجلادين، وكلما حاولت الغفو كانوا يفتحون باب المنفردة ويرمون عليَّ سطل ماءٍ، كنت في حالة انهيار جسدي ونفسي، بعد ثماني عشرة ساعة جاؤوا إليَّ واصطحبوني سحبًا نحو غرفة التحقيق، لم أكن أقوى على الوقوف والمشي، كنت شبه غائبة عن الوعي، أدخلوني غرفة العميد هذه، وطلب منهم الغرفة

التي فتحتها قبل قليل، لم أكن أفهم ما يحدث معي، وخرجوا وأُقفل الباب ودخل وقال لي "لم يعد لي صبر عليكِ"، كنت مرمية على الأرض، حملني ووضعني على السرير وبدأ بخلع ملابسه، وقتها أصبحت أصرخ، ولكنه صفعني صفعة غبت عن الوعي، وحين أفقت كان قد انتهك عذريتي والدماء تسيل على قدمي، ووضعوني في غرفة جيدة، وبدأت أصرخ وأبكي وأستنجد، في المرة الثانية حين أتوا لأخذي إليه عند المساء رفضت الخروج من الزنزانة ولكنهم سحبوني على الأرض وأنا أتوسل إليهم ألا يأخذوني، وحين أدخلوني غرفته بدأت أقاومه لكنه نال مني لأني ضعفت جسديًّا وبدنيًّا ولا أقوى على المقاومة لقلة الأكل والشرب ولكثرة التعذيب النفسي والاغتصاب، وفي كل مرة يريدني، يُجوِّعني قبلها ويمنعي من النوم حتى لا أقاومه، مؤخرًا قال لي "افعلي ما أطلبه منك وسأطلق سراحك"، وحين قررت الاستسلام كان اليوم، حين فتحوا باب زنزانتي، قررت ألا أقاوم، وأن أستسلم لأني فقدت الأمل، ولكني فوجئت بك اليوم، وأحييت بي الأمل، لقد أعطيتني درسًا اليوم يا سيدي، ألا نفقد الأمل مهما حدث.

توقفت مياسة المنهكة من الكلام، لكنها أنهت حديثها وهي في حال ليس كما كانت عليها، بل أصبحت أكثر قوة، بدأت مفعمة بالحياة وقد لاح لها الأمل، وقد اختلف وضعي عما كنت عليه من قوة إلى وهن بعد أن سمعت المآسي التي أفصحت عنها، بل بات دمعي يذرف قليلًا وأمسحه خجلًا منها، لقد دخنت علبة سجائري وأنا أستمع إليها من الهول، لقد فقد هؤلاء الضمير والوجدان.

بادرتها بسؤال "هل لديك حبيب؟".

- لقد بات عشقنا الوحيد يا سيدي هذه الثورة، أما حبيبي من الدنيا، نعم يوجد، ويحبني كثيرًا وأحبه، ولا أعلم أي حالٍ هو عليه الآن، ولكني كل يوم

أتساءل، حين يعرف ما حدث لي، أسيبقى على هذا الحب وسيقبل الزواج من حبيبة اغتصبت مرات ما عدتُ أحصيها، ومرر الكلاب أيديهم النجسة على جسدها؟!

- إن كان يحبك فسيقبل بكِ كما أنتِ ومهما كنتِ.

أذرفت دموعًا غالية، ينحني أمامها الرجال. ناديت مساعدي على الباب، دخل وطلبت منه أن يُدخل الحاجب، وطلبت من الحاجب أن يذهب إلى غرفة الحاسوب لسحب ملف "مياسة" بالكامل، وقف الحاجب منحنيًا الرأس.

- ما بالك لا تتحرك؟!

- سيدي، هذه ليس لها أي ملف بالفرع سوى الذي أمامك!

متعجبًا "أليست مسجلة مثل سائر الموقفات والموقفين؟".

- لا سيدي، لقد سحب العميد اسمها وهي غير مسجلة.

اللعين يريد الاحتفاظ بها لنفسه وينكر وجودها في الفرع، صرختُ في وجه الحاجب "اذهب وآتني بمعلمك الأحمق!".

خرج الحاجب، وبادرتني "مياسة" بسؤال "من أنت؟ وكيف عرفت بقصتي؟".

- ليس مهمًّا من أنا أو كيف عرفت، لكنك يا ابنتي يجب أن تتوقفي عمَّا أنتِ فيه، والتفتي إلى دراستك وحياتك وحبيبك!

متعجبة "بعد كل الذي حدث معي تريد مني التخلي عن ثورتنا التي ستحاكم أمثال هذا القذر؟!".

قبل أن أرد عليها دخل العميد توفيق يونس، وقف أمامي وأدى التحية العسكرية "سيدي، هل لي أن أعرف ما الذي حدث؟". أنظر إليه بغضب، لو انفجرت في وجهه لتحول إلى حطام وأثر بعد أثر. وقفت أمامه وعيناي في عينيه، لقد خدشتم حياء الوطن، طأطأ رأسه أمامي لا يجيد ما يقوله.

- يا توفيق، لو كان الأمر بيدي لخلعت رتبك وحاكمتك الآن، ولكن قل لي لماذا مياسة ليست مسجلة كما مثل الموقفات والموقفين؟
- إنها الأوامر سيدي.

صرخت في وجهه "كذبت، أي أوامر هذه؟! ثانيًا مدة التوقيف عندك يجب ألا تتجاوز خمسة وأربعين يومًا أو سبعين يومًا عند الضرورة، وهي هنا منذ تسعين يومًا، هل هذه أيضًا الأوامر؟!.

لم يُجبني العميد وبقي صامتًا.

- ستخرج مياسة الآن وسآخذها بيدي إلى منزلها، أما أنتَ فانتظر ما سيحدث لك، وسآخذ ملفها أيضًا.

وقفت مياسة سعيدة ورسمت ابتسامة شغوفة، وبقي العميد صامتًا لا يجد ما يقوله أو أن يعترض، لتجاوزاته القانونية والأخلاقية، خرجتُ ومعي مياسة وهي تبكي لاصطحابها إلى منزلها، لكنها طلبت أن تنزل لتسير في شوارع دمشق وحدها، وتختلط بالناس وتستنشق الهواء النقي، خضعت لرغبتها. ودعتني بعينين جمليتين ممتنتين يخيم عليهما الحزن، وأنا أودعها بقلب منكسر خائب. سأتوجه إلى الرئيس ليضع حدًا لهذه التجاوزات حاملًا معي ملف مياسة لأضعه أمام حقائق مرعبة، يجب أن يعاقب هذا اللعين ومَن هم على شاكلته.

وصلت إلى القصر ودخلت مكتبي أفكر في كل ما سمعته، أقف أمام كارثة حلَّت بنا. تلقيت اتصالًا قبل المغرب بقليل بأن الرئيس يريدني في مكتبه، أصعد إليه ولكن أجدني غير متحمسً لفتح الموضوع معه لا أدري السبب، وهل تُراه عرف بذهابي إلى فرع الخطيب ويريد توبيخي على تصرفي وإخراجي لمياسة من معتقلها؟ ولكني أستجمع قواي للدفاع عن موقفي، بل سأطالب الرئيس بمحاسبة هذا اللعين وجلاديه ومحققيه. لكن الرئيس يريدني في جناحه الخاص به حيث وبعائلته، أدخل عليهم وتبسَّم لرؤيتي، أتقدم خطوات نحوه حيث كان يجلس مع أفراد عائلته، لنتفاجأ بصوتِ انفجارٍ قوي هَزَّ المكان، أركض نحو الرئيس على الفور وطلبت عبر اللاسلكي الخاص معرفة مصدر الصوت وما جرى، يخبرونني أنَّ صاروخًا نزل على القصر، هلع الجميع.

- فخامة الرئيس، سننزل إلى الطوابق السرية.

وضعت يدي على كتف الرئيس وبدأنا الركض، صرخت بالحرس "احملوا أبناء الرئيس هيا" جميعنا يركض نحو السلالم الخارجية الآمنة، وصوتُ انفجار آخر حدث، والرئيس وعائلته في حالة هلع، نركض بسرعة كبيرة وإذ بالكهرباء تنقطع عن المكان "هيا هيا،أسرعوا، المكان غير آمن" أصرخ في الحرس وأطلب عبر اللاسلكي المثبت تحت جاكيت بدلتي "أخلوا القصر من المسؤولين على الفور"، بدأنا ننزل إلى أول طابق أرضي تحت الأرض من الطوابق السرية، طلبت من الرئيس الجلوس والبقاء هادئًا "سيدي، المكان هنا آمن ولن تطولنا أي صواريخ، المكان محصن بشكل قوي"، بدأ الضباط بإخلاء الطوابق العُليا في القصر وإنزالهم إلى الطوابق السرية تحت الأرض المحصنة جدًّا، وإذ بصوت انفجار آخر سمعناه، "ما الذي يحدث؟ ما مصدر هذه الصواريخ؟" يسأل الرئيس وهو ينظر نحو الأعلى خشية من أي ثقب أو

صاروخ يخترق الجدران، "فخامتك لا يمكن أي صاروخ أن يخترق المكان، سنعرف كل شيء"، وصل العميد ذو الهمة شاليش إلى مكاننا وهو يلهث "سيدي، صواريخ غراد التي تضرب القصر وهي بيد فصائل الجيش الحر الإرهابي". وفي قلبي أقول ألستم من أردتم أن ينتشر السلاح وكان رجاءكم، فلماذا أنتم الآن خائفون. بقيت بجانب الرئيس وطلب منا النزول إلى آخر طابق تحت الأرض واستخدام الممرات السرية لإخراجه من القصر كله، ونحن نتحرك سمعنا صوت صاروخ رابع يضرب المكان. نزلنا إلى آخر طابق تحت الأرض، هنا لا يستطيع أي صاروخ مهما كان قوته اختراقه، ركبنا السيارات لتتوجه عبر الطرق السرية تحت الأرض إلى قصر المهاجرين، ولكني اعترضت وتوجهت إلى ذو الهمة.

- سيادة العميد، قصر المهاجرين غير آمن وهنا التحصين أقوى، أو لنخرج الرئيس من دمشق إلى قصر تشرين!

رد الرئيس المهلوع "نعم يا ذو الهمة، ستأخذني إلى قصر المهاجرين فيه التحصينات أقل من هنا، فلنذهب إلى قصر تشرين".

ذو الهمة "ولكن سيدي، تنقلكم الآن سيشكل خطرًا كبيرًا عليكم!".

صرخ الرئيس في وجهه "تصرف بسرعة".

توجهت إلى الرئيس "فخامة الرئيس،اهدأ أرجوك، المكان هنا آمن جدًّا".

اتصل ذو الهمة بمطار مزة وطلب تجهيز طائرة على الفور إلى قصر تشرين في اللاذقية، وضعنا خطتنا، سنسلك الطريق السري وسنخرج إلى طريق دمر، يوجد طريق سري أسفل قصر الشعب على طريق مشروع دمر، بجانبه عدة قطاعات عسكرية، يخرج الطريق من الجبل، وعليه شبكة تمويه لعدم لفت الأنظار نحو هذا المخبأ، خرجنا من النفق بموكب مؤلف من عشر

سيارات تسير داخل النفق، وفي أثناء الخروج من النفق أصبحنا على طريق مكشوف ومرصود، قُدنا السيارات بسرعة فائقة، انعطفنا يمينًا على شارع "٧ نيسان"، واجهنا منعطفًا حادًّا ومن ثم انعطفنا يمينًا ودخلنا إلى مطار المزة العسكري، لم يستغرق الأمر سوى دقائق، بقينا في السيارات مدة دقيقة، وبعدها نزلت وتفحصت المكان وطلبت من الرئيس النزول، نزل الرئيس على عجل وأنا أسير وراءه مسرعًا ويدي على كتفه ومن حولنا عدد من الضباط يركضون نحو الطائرة، وأحضرنا زوجة الرئيس وأبناءه وركبنا الطائرة وأقلعت، ونحن ننظر إلى دمشق، توجهنا إلى قصر تشرين في اللاذقية، وفي أثناء وصولنا هدأ الجميع وكانت الأنباء التي وصلت إلينا، أن خمسة صواريخ غراد ضربت القصر وأطلقت من مدينة داريا غرب دمشق.

صرخ الرئيس "امسحوها عن وجه الأرض".

ذو الهمة "سيتم ذلك سيدي، وحاليًّا ستبقى في اللاذقية إلى حين السيطرة على الوضع وبعدها سنعود إلى دمشق".

لم أجد الرئيس في هذه الحالة من الخوف والهلع قبل ذلك، لقد استشعر بالخطر سابقًا أن يخسر حربه ومنصبه، لكنه لأول مرة يشعر بالخطر الحقيقي الذي هدد حياته وحياة عائلته. أنا أعلم أن مدينة داريا سوف تمسح بالكامل وسترتكب المجازر فيها، لقد تجرؤوا على قصف قصر الرئيس شخصيًّا، هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها مثل هذا في كل تاريخ سوريا، أن يُقصف القصر الرئاسي. أحاول سرقة الوقت لأزور عائلتي وقريتي، ولكن الظروف لا تسمح، نحن في قصر تشرين غير مسيطرين كما في قصر الشعب بدمشق، نفوذنا هناك أقوى بكثير، كنت مع الرئيس لحظة بلحظة.

نجلس معه في الحديقة الخلفية ويستغرق الرئيس كثيرًا في التفكير، هو لا يريد البقاء في اللاذقية، بقاؤه في قصر الشعب في دمشق يعني بقاء حكمه، هنا اكتشفت أن الرئيس لن يتخلى عن السلطة تحت أي طارئ أو تسوية أو اتفاق، فهو بمجرد الابتعاد عن قصره في دمشق بات غارقًا في التفكير ولم يعد يُناقش حتى، فطوال الوقت نراه كئيبًا، فكيف لو تخلى عن السلطة وسافر إلى المنفى حسب ما يروج له؟!لن يطيق ذلك.

نسعى جاهدين للتكتم على خبر انتقاله إلى قصر تشرين في اللاذقية حتى لا تستغلها المعارضة وحتى نحافظ على حياته. أيام مضت وكل يوم يتصل الرئيس بذو الهمة حتى ينهي الترتيبات لعودته. أقف خلفه وهو جالسٌ ولا يعير انتباهه إلى أي حديث يجري على طاولته من الموجودين. أنتبه إلى حركة غريبة خلف أشجار الحديقة، أمعن النظر وإذ بأحدهم يصوب مسدسه نحو الرئيس، أصرخ عاليًا "سيدي" وأركض نحوه بسرعة جنونية، أرمي نفسي عليه، وإذ برصاصة قد أطلقت، أسحب مسدسي وأطلق النار على مصدر إطلاق الرصاص خلف الشجر، وبدأ الحرس يطلقون النيران نحو الهدف.

على الفور طُوِّقت دائرة حول الرئيس، وبيدي اليمنى مسدسي ويدي اليسرى على رأسه بينما أصبح هو تحت الطاولة، أمَّنَّا من كان يجلس مع الرئيس. هرع الضباط إلى خلف أشجار الحديقة للقبض على المتسلل إلى القصر المحصن، يتصبب العرق من جبيني وجسدي وبدأت أشعر ببعض الألم.

"أخرجوا الرئيس بسرعة، أُمِنَّ الممر" صاح أحد الضباط، عندما وقفت شعرت بألم تجاهلته، علينا تأمين الرئيس، وضعت يدي على كتف الرئيس اليمنى وسرت معه بسرعة كبيرة إلى داخل القصر ويُحيط بنا على شكل دائري أكثر من عشرين حارسًا برتب مختلفة، "أمِّنوا جناح الرئيس" أصيح

بالضباط. أسمع حدهم يتحدث عبر اللاسلكي "أمِنوا جناح الرئيس" ويأتينا الرد "الجناح آمن"، "هيا بسرعة" أطلق أوامري، نركض إلى الطابق الأول وأشعر بألم وضغط كبير لا أعرف سببه وجبيني ووجهي يتصببان عرقًا، وأشعر بحرارة في كل أنحاء جسدي.

دخلنا إلى جناح الرئيس، ركضت أسماء الأسد نحو الرئيس "أنت بخير؟! ماذا حدث؟!" الرئيس يلهث "أنا بخير، عليّ، اعرف ما الذي حدث". استدار الرئيس نحوي "ما بك تتصب عرقًا؟"، بدأت أشعر بدوران، صاح أحدهم "العميد عليّ ينزف"، أشير إليهم بيدي اليسرى نحو الرئيس "أمِّنوه جيدًا"، أشعر بدوار شديد، صوت أحدهم "استدعوا الطبيب على الفور".

أفتح عينيَّ في غرفة وأنا ممدد ومن حولي أطباء وممرضات ومساعدي يقف على رأسي "أين أنا؟".. "الحمد لله على سلامتك سيدي، أنت في الجناح الطبي الخاص في القصر".

أبلع ريقي "الرئيس".

- الرئيس بخير لا تقلق، هو فقط شعر ببعض الألم في أثناء ارتماءك عليه.
- منذ متى أنا هنا؟
- ساعتين فقط.

تقدم الدكتور "سيادة العميد، لا تجهد نفسك بالحديث، وضعك مستقر، تلقيت رصاصة في كتفك من الجانب الأيمن الخلفي أعلى الظهر، وأخرجنا الرصاصة، وسبب تعبك لأنك تحركت وركضت، وهذا كل ما في الأمر، وأنت في حاجة إلى قليل من الراحة".

سحبت السيروم من يدي "أعطِني بدلتي هيا بسرعة".

صاح الطبيب "سيادة العميد، عليك أن تستريح!".

مقاطعًا "هذا ليس وقت الراحة أيها الطبيب أنا بخير لا تقلق".

- أسمح لك بالخروج على مسؤوليتك، ولكن ستأتيني كل يوم للكشف على الجرح.

- كما تشاء.

لبست بدلتي وأخذتُ سلاحي بمساعدة مساعدي، أشعر بألم وبعض دوران في رأسي، توجهت إلى جناح الرئيس، ويسير خلفي ضابطان.

- هل ألقيتم القبض على مطلق النار؟

- نعم سيدي، وقد أصيب بطلقة في رجله، وأخرجنا الرصاصة من قدمه وهو في غرفة التحقيق.

وصلت إلى الطابق الأول والحرس منتشرون في كل الجناح، طلبت الإذن في الدخول على الرئيس، دخلت وبعض الألم يجتاحني مع الحركة، توجَّه إليَّ الرئيس "أيها العنيد، لماذا قمت من سريرك؟" وحضنني.

- هل أنت بخير سيدي؟

- أنا بخير يا علي، وأدين لك مرة أخرى بحياتي، بماذا تشعر الآن؟

- أنا جيد، وعلى العكس سيدي، أنا هنا لأعتذر إليك على ما شعرت به من ألم وعلى ارتمائي عليك، تمنيت الألم لروحي وليس لك.

- آهٍ يا علي، وتعتذر وأنت من تلقيت الرصاصة بدلًا مني؟! اسمع، أريدك أن تتولى التحقيق بنفسك، ووزع من تثق بهم في جناحي ومن لا تثق به أخرجه من القصر كله، لك كل الصلاحيات.

- احترامي سيدي، فداك روحي.

طبطب الرئيس على كتفي، أديت التحية وخرجت من عنده متألماً. توجهت إلى ضباطي بالكلام "اتركوا فريقنا في جناح الرئيس، أخرجوا غيرهم من القصر، وأمِّنوا كل المداخل والمخارج".

دخلت غرفة التحقيق، كان مطلق النار على الرئيس مدميًّا على الأرض والدماء على وجهه "من هذا؟ ولماذا أطلق النار على الرئيس؟!".

- لم يعترف سيدي.
- اخرجوا جميعًا واتركونا وحدنا، أنا سأتولى الأمر!
- ولكن سيادة...
- اخرجوا. بصوتٍ عالي سمعه كل الجناح.

خرج الجميع من الغرفة، وبقيت معه وحدنا، سحبت كرسيًّا وجلست عليه، أشعلت سيجارتي وبدأت أنفخ في وجهه..

- ما اسمك؟

يجيب متأتئًا "النقيب أحمد عاطف من الحرس في القصر هنا".

- من أين أنت؟
- من القرداحة.
- لماذا أطلقت النار على الرئيس؟

صمت ولم يتكلم.

- سأعقد معك صفقة رابحة على الرغم أنك في موقف ضعيف، أنت تعلم أنك مقتولٌ مقتول لا محالة، ولكن أن تقتل برصاصة في رأسك وترتاح، خير من أن تقتل في اليوم ألف مرة، ما تعرضت له إلى الآن اسمه الضرب، التعذيب لم يبدأ بعد، وأنت تعلم جيدًا كيف ستعذب، وأنك في

النهاية ستعترف رغمًا عن أنفك، وتعلم أنك لن تموت، وستتعرض لأبشع أنواع التعذيب، ولكن إن قلت لي دوافعك لقتل الرئيس ومن حرضك، فسأُخرج مسدسي وأطلق رصاصة في رأسك وأريحك من كل هذا، أما لو قلت لك سأخرجك من هنا، أو سأحولك إلى محاكمة عادلة وتأخذ حكمًا مخففًا، فسأكذب عليك وكل من يقولها لك سيكذب عليك، لن تجد أحدًا مثلي سيصدقك ويقدم لك مثل هذا العرض.

أخرجت مسدسي ولقمته "أنا جاهز".

بدأ يرتجف وهو ينظر إلى السلاح "هل تعدني بأنك ستفعلها ولن تعذبني؟" متأتئًا.

- أعدك بشرفي العسكري.

يرتجف كالعاري تحت ثلوج كانون، متأتئًا "فعلتها انتقامًا للشهيد آصف شوكت، وأمرتني السيدة بشرى الأسد قبل أن تغادر سوريا، اتفقت معي أنه إذا أتى الرئيس إلى قصر تشرين أن أبلغها، حين أتى الرئيس بلغتها برسالة وأمرتني بقتله، وأنا مدين للشهيد وفعلتها عن قناعة". اقتلني هيا.

تجمدت في مكاني، رفعت سلاحي عند رأسه وأغمضت عينيَّ وأطلقت النار، وعندما فتحت عينيَّ كان رأسه قد انفجر والحوائط مليئة بدمه، على الفور فتح باب الغرفة ودخل الضباط وبأيديهم أسلحتهم.

- ماذا حدث سيادة العميد؟ لماذا قتلته؟

- انتهى التحقيق، تصرفوا بجثته، أين أغراضه الشخصية؟

أخذت أغراضه الشخصية وهاتفه، وبدأت أفتش في الهاتف حتى وجدت اتصالات عدة حدثت بينه وبين رقم إماراتي بغير اسم ورسالة تطلب منه تنفيذ الأمر، توجهت نحو جناح الرئيس وأنا مرتبك لا أعلم ماذا أفعل أو

أقول له، لقد تأكدت من الرقم، إنه رقم بشرى الأسد شقيقة الرئيس وزوجة اللواء آصف شوكت، أشعر بألم في كتفي ورأسي. كان الرئيس في مكتبه ينتظرني.

- فخامة الرئيس، نتيجة التحقيق تبين أن النقيب أحمد عاطف من مواليد مدينة القرداحة، وأنه يخدم هنا في قصر تشرين، قام بهذه العملية انتقامًا للواء آصف شوكت.

وقف الرئيس وتساءل متعجبًا " ماذا؟! ومن أمره؟".

أطأطئ رأسي "أختكم بشرى الأسد، وهذا هاتف النقيب، بعد التفتيش تبيَّنت صحة ما أدعي، وهناك مراسلات بينهم".

جلس الرئيس بهدوء شديد على كرسيه وعيناه تبحلقان بغرابة واندهاش "بشرى تريد قتلي؟!".

صرخ الرئيس بصوت عالي "بشررررى!" وضرب بيده على مكتبه. واستطرد قائلًا:

- الجميع يريد قتلي يا علي وأنت وحدك من تنقذني دائمًا.
- هدِّئ نفسك يا رفيق، لن يصل إليك إنسٌ أو جان وأنا معك.
- أين هذا الكلب؟!
- لقد قتلته وفجرت رأسه.
- أحسنت يا علي أحسنت.

تلقيت اتصالات عدة من كبار المسؤولين والضباط في الدولة للاطمئنان على الرئيس، ولكن اتفق كثيرون على ضرورة خروج الرئيس إلى العلن بعد كثرة الشائعات حول صحته وأنه أصيب بعد قصف القصر بصواريخ. أما محاولة اغتياله فتم التكتم عليها وما علم بها سوى الدائرة

الضـيقة جدًّا للرئيس من خاصـته وبعض أفراد عائلته، اتصـل بي العميد ذو الهمة شـــاليش وطلب مني تجهيز الفريق لنقل الرئيس إلى العاصـــمة لأداء صــلاة الجمعة في جامع الإيمان الواقع في منطقة الروضـــة، وأن الصــلاة ستُصَوَّر للتليفزيون. سيُؤَمِّن العميد ذو الهمة المنطقة وعليَّ تجهيز الفريق الأمني الذي سيرافق الرئيس.

- فخامة الرئيس، سننتقل من هنا بطائرة هليكوبتر إلى مطار المزة ومن ثم سننتقل بعدة مواكب إلى جامع الإيمان.

بشار الأسد "وهل ضروري أن نصلي هناك وسط هذه الظروف؟!".

- رفيق، الجامع من الخارج مُؤَمَّن بالكامل، وداخل الجامع سيكون كل المصلين من رجالنا.

- يا علي، الرجال الذين تتكلم عنهم حاول أحدهم قتلي هنا وهو من الحرس ومن القرداحة نفسها.

- سيدي، لقد اتخذت كل الإجراءات المطلوبة، لا تقلق.

- وإذا تعرض الموكب لهجوم؟

- ستخرج عدة مواكب للتمويه وسيرافقنا الطيران لتأمين الموكب في أثناء السير في دمشق، ووضعنا خطة التنقل بشكل دقيق، ظهورك في هذا التوقيت مهمٌّ للغاية.

- فليأتِ جميع المسؤولين إلى هنا ونُصلِّي في أحد المساجد وتذاع أنها من دمشق.

- لقد درسنا هذا الاقتراح ولكن رأينا من الأفضل أن تتوجه إلى دمشق وبعد الانتهاء من الصلاة سنعود إلى هنا مباشرة.

- بل سأتوجه إلى قصر الشعب، أما العائلة أسماء والأولاد يبقون هنا في هذه الفترة.

- كما تشاء، وسأؤَمِّن القصر هنا وهناك.

أبلغت ذو الهمة برغبة الرئيس، ووافق على ذلك، ووضعت خطة في سبيل تنفيذ رغبته. توجهنا إلى دمشق عبر طائرة عسكرية، وفي أثناء دخولنا أجواء دمشق كانت ألسنة الدخان تتصاعد من أطراف دمشق بشكل كثيف، ومن جهة غربها مدينة داريا كان اللهيب يتصاعد وتُدَك بالصواريخ والطيران، نظر الرئيس نحو مدينة داريا من نافذة الطائرة "أحرقوها عن بكرة أبيها، سأجعلهم عبرة لمن لا يعتبر". هبطنا إلى مطار المزة العسكري، واستقللنا الموكب وانطلقنا نحو جامع الإيمان بسيارات مضادة للرصاص، وتحرك موكبان آخران بطرق مختلفة للتمويه، وأغلقت جميع الطرق التي سنسلكها ووُزِّع الجيش والمخابرات على أطرافها، وانطلقت السيارات بسرعة جنونية في شوارع دمشق، القناصة تنتشر على جميع المباني المحيطة بالجامع، ويرافق الموكب طائرات هليكوبتر العسكرية لتأمين الموكب والتدخل عند الضرورة، أجلس كالعادة في المقعد الأمامي، ويجلس الرئيس في المقعد الخلفي، لا نلحق أن نرى مَعلّمًا من معالم وشوارع دمشق أو حتى نلمحها، للسرعة القصوى التي نتحرك بها، في أثناء وصولنا إلى مدخل جامع الإيمان، تصرف الرئيس أمام الكاميرا بشكله المعتاد وكأنه يعيش في ظروف عادية، أسير خلفه كظله، وتوزعنا بين الصفوف الأولى والثانية من فريقي الخاص، وعلى الرغم أن الجامع كله من الحرس الجمهوري والمخابرات ومرافقة المسؤولين، فإن أوامر الرئيس أن يكون الصفان الأول والثاني من فريقنا. كان ظهور الرئيس إعلاميًّا حاجة مُلِحَّة، بل رتب القصر عدة لقاءات وزيارات للرئيس حتى يبدو الأمر عاديًّا، ترك لي تأمين القصر، وترك لوالدته وخاله محمد مخلوف التصرف مع بشرى الأسد في منفاها في دبي، وتوجهت أنيسة مخلوف والدة الرئيس بشكل سري إلى الإمارات للقاء ابنتها بشرى وتأديبها هناك.

تمضي الأيام وأحتكم إلى الظروف الراهنة، ولكني لم أنسَ بعدُ تنفيذ تهديدي للعميد توفيق يونس رئيس فرع الخطيب، بل بدأت ترتيب زيارة إلى معقتل صيدنايا العسكري، لكني أنتظر اللحظة المناسبة. زيارات المسؤولين الإيرانيين والروس لا تتوقف بعد الهزائم الكبيرة على الأرض لصالح الجيش الحر. وقع الرئيس اتفاقية مع روسيا بواسطة الجنرال قاسم سليماني قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني، تقضي بموجبها تدخل الطيران الروسي لمساندة الجيش السوري في الأجواء، كما يساند فيلق القدس والحرس الثوري الإيراني الجيش على الأرض، وأُعْطِي حزب الله اللبناني أراضي ومدنًا يتصرف فيها كما يشاء، رغم امتعاض بعض المسؤولين من هذا القرار لكن ما استطاع أحدٌ أن يتجرأ على الاعتراض على قرارات الرئيس، وزودت روسيا القصر برادارات متطورة لتأمينه من أي اعتداء وتأمين محيطه لمسافة اثني عشر كيلو مترًا.

كثيرًا ما أشاهد الرئيس وهو ينظر إلى دمشق من نافذة مكتبه، ويرى قصف الطيران الروسي والسوري للغوطة الشرقية والغربية، يضع يديه وراء ظهره "قريباً سأُؤَمِّن محيط العاصمة وستنقلب الموازين" يرددها دائمًا ويتوعد معارضيه.

يقتلني ما أشعر به وأنا أرى ما أراه من قصف المدن، فليس أقسى أن يكون الإنسان شاهدًا على مذبحة وطنه، لكن مازلت أحتفظ بملف مياسة، وسأزور قريبًا سجن صيدنايا العسكري، وبعدها سأضع تقريري أمام الرئيس، أحاول ثنيه، لن أمَلِّ ولن أيأس، سأبقى أحاول حتى أُحُدثَ تغيرًا ما.

معتقل صيدنايا "المسلخ البشري"

ما عاد هذا الوطنُ وطنًا، وما عاد الإنسانُ فيه إنسانًا، تحول الجميع إلى مشروع قتيل وضحية قرار انتقام، تحولت الغابات إلى كتلة رماد، وتحولت المدن إلى كتلة ركام، وتحولت الحدائق إلى مقابر، وتحول الإنسان إلى جزار. ما عدنا نستنشق رائحة الياسمين الشامي ولا الجوري، بل باتت رائحة البارود هي الفائحة، ورائحة الموت هي القائمة، آهٍ يا زينب! كم كنتِ محظوظة حينما غادرتي باكرًا! كم أحسدكِ يا حبيبتي!

طلبت من مساعدي جلب أكبر معلومات عن سجن صيدنايا، لا أريد الذهاب إلى مكان لأول مرة لا أعرف عنه شيئًا، لم أدخل سجن صيدنايا من قبل، ولكن كل من قابلتهم من المقدم حسين الهرموش والمقدم عماد ومياسة، طلبوا مني زيارة هذا السجن، كانوا يصبون اهتمامهم على هذا المكان ويقولون عنه الأهوال، أريد أن أقوم بزيارتي الخاصة وأجهز ملفًّا للرئيس حتى أعرف كيف أناقشه، لعلني أجد مع الرئيس طريقة لمحاسبة الضباط الذين يتجاوزون القانون، لو علم كبار الضباط ما أنوي فعله فسيقتلونني، وعليَّ أن أتصرف بشكل سري دون أن أكشف غايتي.

تلقيت تقارير عدة من مساعدي حول السجن، أقرأ ما يشيب له الولدان، قتل مدير السجن اللواء طلعت محفوظ، وتوالى بعده من أشهر

عدة العميد الركن محمود أحمد معتوق، يتكون السـجن من ثلاثة مبانٍ وكل مبنى ثلاثة طوابق وكل طابق عشـــرين غرفة، ويحتوي المبنى الأحمر على المعتقلين السـياسـيين والإسـلاميين ولكن أغلبه من النشـطاء والمتظاهرين الآن، وفيـه من يُعْـدم، والمبنى الأبيض للمعتقلين العســكريين يتم فيـه إعدامات ميدانية أسـبوعية، قتل في سـجن صـيدنايا حتى الآن ثلاثة عشـر ألف معتقل.

لم أستطع قراءة ما بدأته، أهذا سجن عسكري أم مسلخٌ بشري؟! التقارير الواردة تقول إن المنظمات الدولية تصنف السجن من أسوأ السجون في سوريا بسبب الاعتداءات الجنسية والتعذيب الوحشي والإعدامات الميدانية. حان الوقت للتوجه إلى هذا السجن للوقوف على هذه الانتهاكات.

خرجت ضمن موكبي المعتاد إلى ريف دمشق، حيث يبتعد السجن ثلاثين كيلو مترًا شمال مدينة دمشق، يقع في منطقة صحراوية، والسجن محصن ضد أي هجوم محتمل، أنا أحمل استثناءً من الرئيس شخصيًّا لدخول أي مؤسسة مدنية أو أمنية أو عسكرية في الجمهورية العربية السورية، دون أن يعترض أحد، هذا الاستثناء خاص، لا يتجرأ أي ضابط على الاعتراض أو منعي الدخول. وصلت إلى السجن المحصن ودخلته، وتوجهت إلى غرفة رئيس السجن العميد الركن محمود أحمد معتوق، رحب بي العميد بحفاوة كبيرة بعد أن أُبلغ عند البوابة بقدومي.

- لو أخبرتنا عن سبب الزيارة لجهزنا كل شيء سيادة العميد.
- أريد أن أشرف بنفسي على ما أريد.
- نحن في خدمتك.
- أريد أولًا أن أقوم في جولة تفقدية داخل السجن.
- تفضل.

بدأنا نسير في الممرات وبدأت أسمع أصوات التعذيب، ورائحة موتٍ تفوح من كل زاوية وركن، أشعر بضغط كبير على صدري، يسير معي العميد محمود مدير السجن وحراسنا، دخلت غرفة تحقيق، لم أستطع التحمل، بل خرجت ووقفت على الباب، دماء على الحوائط وعلى الأرض وفي الممرات جراء سحب السجناء، رائحة كريهة تقلب الأنفس "كيف تتحملون كل هذه الروائح؟" سألت مدير السجن، ضحك "نحن اعتدنا، هنا تختلف الروائح عن روائح القصر". لم أعرف ما الذي يُضحك في الأمر، أراهم وحوشًا لا بشرًا، كيف يتحمل الإنسان أن يعذب إنسانًا آخر بهذه الطريقة؟ "ما الجرم الذي اقترفوه؟"، سألت مدير السجن.

- هؤلاء إرهابيون سيادة العميد.

- هل جميع من هنا بتهمة الإرهاب؟

- نعم، غالبيتهم بتُهم الإرهاب، وهناك من تآمر على البلد وعلى النظام، وعملاء لإسرائيل وأميركا.

أمرُّ على الزنازين، طُلب من جميع المعتقلين الوقوف والنظر إلى الحوائط، "بل أريدهم أن ينظروا إلينا"، هياكلٌ بشرية، عظامهم تكاد تخرج من الجلد، وجوههم نحيفة وشعورهم طويلة، وثيابٌ ممزقة متسخة، أتساءل: من أي عصر أتوا؟ لا يمكن أن نكون في العصر الحادي والعشرين، روائح مقززة، الجميع يطأطئ رأسه على الأرض لا يتجرأ أحد أن ينظر نحونا، مررت بعدة زنازين، جميعهم يتشابهون.

وأسأل نفسي: ما الذي أفعله هنا؟ أنا رأيت ما سمعته، فماذا سأفعل؟ أشعر بعجزٍ، لا أدري ما الخطوة التالية.

- أيها العميد، أوقف التعذيب لا أريد أن أسمع هذه الأصوات.

ضحك العميد المتجرد من إنسانيته، وتوجَّه إلى مساعده "أوقفوا كل أنواع التعذيب طوال زيارة سيادة العميد واعتبروها استراحة لهؤلاء الإرهابيين، جماعة القصر غير معتادين على هذا النوع من الموسيقى" وبدأ يضحك بشراهة.

رمقته بنظرة غضب.

- العفو منك سيادة العميد ليس القصد.

استدرت نحو المهجع، أنظر إلى أشباه البشر، ينتظرون موتهم بين ثانية وأخرى، رفعت صوتي "مَن متهم بالإرهاب والتآمر على الدولة؟".

صمت الجميع ورؤوسهم بالأرض ولم يُجِبْ أحد، حتى رفع ثلاثة أيديهم.

- تقدموا إلى الباب.

تقدموا نحوي وهم حفاة متعبون منهكون يسيرون بخطوات بطيئة، وانتبهت إلى استغراب مدير السجن، طلبت من مساعدي تسجيل أسمائهم واصطحابهم إلى غرفة التحقيق، وجلب ملفاتهم ومحاضر التحقيق معهم.

مدير السجن "سيادة العميد، غرفتي تحت أمرك إن أردت التحقيق الذي لا أعرف سببه".

- أنا أعلم ماذا أفعل اذهب أنت إلى مكتبك وأكمل عملك الذي لا أعرف ماذا يكون سوى التعذيب.

توجهت نحو غرفة نظيفة هُيِّت لي وفيها طاولة صغيرة وكرسي أمامه، ووُضع إبريق ماء وفنجان قهوة لي، وبدأت أتفحص الملفات التي أمامي، حتى أُدُخل شاب في مقتبل العمر، من ملامحه المتبقية يبدو أشقرً بعينين زرقاوين، شعرٌ طويل ولحية كثيفة، جلس أمامي بعينين متعبتين للغاية، وجسده هزيل، كهيكل عظمي يسير على الأرض.

- ما اسمك؟ ومن أي مدينة؟
- حسام من مدينة داريا.
- ما تهمتك؟
- العمالة لإسرائيل والتآمر لقلب نظام الحكم.
- كم سِنّك؟ وما دراستك؟
- كلية الاقتصاد في جامعة دمشق وسِنِيّ ستة وعشرون عامًا.

- ألست صغيرًا لكي تضيع عمرك يا حسام بالتآمر على الدولة؟!

- لا أعلم من أنت، ولكن كل الذي عرفته أنك عميد في القصر، حسب حديثك مع مدير السجن، ولكن لو خرجتَ أنت بمظاهرة واعتُقلت فسيوجهون لك تهمًا ما أنزل الله بها من سلطان.
- أفهم من كلامك أنك لست عميلًا لدولة عدوة ولم تتآمر على نظام الحكم؟!
- إطلاقًا، لا أنا ولا جميع من هنا في هذا المسلخ.
- وكيف عرفت أن الجميع بريء؟ ولماذا أصدقك حتى؟!
- حضرة العميد، هل لديك وقت لتسمع قصتي بكل تفاصيلها؟ وبعدها احكم أنت.

أشعلت سيجارتي وارتشفت من فنجان القهوة "اشرب كوب ماء وتكلم، هل تدخن؟".

- لا أدخن شكرًا لك. ارتشف من الماء ما روى عطشه "أظن أنك مختلف عن كل من حققوا معي".
- تكلم يا حسام وأصدق القول.

داريا "حكاية أمل"

القول وكل القول سيادة العميد. كنا شبابًا حالمين بحياة كريمة في دولة تحفظ كرامة مواطنيها عبر دستور، لا يكون لأحد كلمة فوق كلمة القانون، وأن يكون القانون فوق الجميع فعلًا لا شعارًا وقولًا. قمنا بثورة حبًّا بالوطن، لكن ها نحن كما ترانا أشباه بشر، ملامحنا تغيرت من قسوة التعذيب وسوء الغذاء، وغياب الرعاية الصحية. يتعاملون معنا على أننا عبيد وحيوانات، لفقوا لنا تهمًا أسخف من أن يصدقها عاقل.

بدأت المظاهرات تجوب شوارع هذا الوطن وتحمل معها أحلامنا وأمانينا، وأطلقت الدولة كلابها المفترسة علينا. في يوم ٢٠١١/٣/٢٥ خرجت مظاهرة عند جامع العباس في مدينة داريا، جامع العباس هو أقدم المساجد في داريا، يقابله حارة بيت الأحمر، صرخ صديقي إسلام دباس الذي استشهد هنا في هذا المسلخ، أول صرخة داخل الجامع وخرجنا أمام الجامع ومشينا في الشارع حتى وصلنا إلى تقاطع، عند التقاطع على الجانب الأيسر يقع محل "فروج أبو كمال"، التقينا مع مظاهرة خرجت من جامع "طه" وسرنا معًا وانعطفنا يسارًا نحو شارع الثورة أكبر شوارع داريا، وكانت وجهتنا نحو ساحة "شريدي" أسميناها فيما بعد ساحة "الحرية"، كان التواجد في هذه الساحة كونها بعيدًا عن دوريات الأمن، كنا نجوب كل المدينة تقريبًا،

وأصبحت ساحة شريدي نقطة تجمع لنا في كل المظاهرات فيما بعد. المظاهرة الثانية التحقت بنا من جامع "أبو مسلم الخولاني"، وأحيانًا كنا نقف عند دوار باسل الأسد وعرف فيما بعد بـ"دوار أبو صلاح" نسبة لـ "أبو صلاح" الذي كسَّر تمثال حافظ الأسد واعتُقل واستشهد تحت التعذيب.

كنا نتجنب الاحتكاك مع الأمن، من أجل ذلك كان هناك شباب مهمتهم الوقوف على مداخل ومخارج ساحة شريدي "الحرية" لإبلاغنا بقدوم أي دورية، كنا نقف في الساحة عند زاوية منزل "أبو فراس"، عرف بداريا كثيرًا كون منزله في الطابق الأول، وكان يضع أجهزة الإذاعة على شرفة منزله ويرش المياه علينا نحن المتظاهرين في الساحة في فترة الصيف حتى لا نشعر بحرارة الشمس، هذا أيضًا أصيب بشلل برصاصة من الأمن وهاجر إلى خارج سوريا، قبل ذلك كنا عند خروجنا من جامع العباس نتوجه من شارع الثورة إلى ساحة "التربة - المقبرة" وبعدها نجوب المنطقة قبل أن يستقر الأمر بنا في ساحة شريدي، كنا نهتف للحرية والدولة المدنية الديمقراطية، كنا نحاول أن نوصل رسائل إلى الجيش والأمن أننا إخوة، قدمنا عدة مبادرات، رفعنا لافتات نطالب الجيش بحماية المتظاهرين وكنا نهتف ونقول نريد إصلاح النظام لا إسقاطه، ورغم القمع والضرب كنا نصر على السلمية، في ٢٠١١/٣/٣٠، قتل الجيش ثلاثة متظاهرين: واحد من حي الميدان الدمشقي، و اثنان من داريا أحدهما منهم من بيت الخولاني والآخر من بيت بياض.

لعبتم يا سيدي على جَرِّنا إلى الطائفية والمناطقية، كان البعثيون في داريا يتهجمون علينا بالحجارة ونحن نهتف للحرية، ولكن لم نكن نرد عليهم رغم أعدادنا الكبيرة، اتهمتمونا بحمل العصي خلف ظهورنا في المظاهرات لضرب الجيش والأمن، فكان ردنا حضاريًّا، أحرجناكم بأخلاقنا، اقترحنا رفع الورود في

المظاهرات وفعلناها، أتى صديقي "أحمد حلمي" زميلنا في المظاهرات بورد القرنفل وبدأنا بتوزيعها على المتظاهرين، سار المتظاهرون في شوارع داريا حناجرهم تهتف للحرية وفي أيديهم ورود الحب، كان منظرًا يلين قلب الأعداء ولكن لم يلن قلب نظامكم وشبيحتكم. وبعدها اقترحنا توزيع المياه على الجيش كونهم يقفون طوال النهار تحت حر الصيف، كان أحدنا يحمل كراتين المياه ويضعها في المسافة الواقعة بيننا وبين الجيش الذي يقف في وجه المتظاهرين، ويأتي الجيش ويحملها، واقترح الشهيد إسلام دباس، وضع الورود مع المياه، وبعدها طورنا الفكرة بوضع ورقة مع الورد والمياه نطالب الجيش بعدم قمع المظاهرات وأننا إخوة ونُعبّر عن آرائنا، بدأ الضباط يمنعون العناصر أخذ المياه. كنا نسقي بكل حب من يقتلنا، فمن الإرهابي هنا؟

في هذه الأثناء انشق كثير من الجيش وانضم إلينا، وأربكنا الأمن وكل خططه لضرب الثورة السلمية، وبعدها بدأ الضباط الكبار بمنع أي احتكاك بين الجيش والمتظاهرين، ومنعونا وضع المياه في أي مكان، وبدأوا بالتشديد والقمع وإطلاق الرصاص، حتى في أثناء قتل الشهيد غياث مطر الناسط السلمي المدني مُنعنا تشييعه والخروج بجنازته، وبدأت الدوريات تنتشر داخل أحياء معتادة أن تشهد مظاهرات لمنعها والتواجد الكثيف أمام المساجد.

استشهد شاب اسمه أحمد، خرجت مظاهرة تشييع كبيرة في المنطقة القبلية في داريا، وهي منطقة غير مألوف للأمن أن تشهد مظاهرات، خرجت مظاهرة حاشدة جدًّا، شاركت أعداد ضخمة في التشييع، لربما كنا نشيع أحمد وغياث مطر معًا، فوجئنا في أثناء التشييع بقوات من الجيش والأمن تقف في وجهنا، وبدأنا نهتف "ما راح نركع ما راح نركع"، صعد النقيب أبو

حيدر على سيارة وهو معروف في داريا بأنه جلاد، كان أصلع الرأس خفيف الشعر، ثمين البدن، وقصير القامة، ذا لحية وشوارب كثيفة، يضع نظارات شمسية، وأمسك الميكروفون ورد على هتافنا "ما راح نركع" وصاح "بدكم تركعوا بالصرماية" كان أبو حيدر من الأمن السياسي، يقتل بشكل وحشي، ليس ببشر كهؤلاء الذين يتواجدون في هذا المسلخ، ذهبنا لدفن الشهيد وعند المقبرة التي تُعرف بالتربة في داريا، وتقع في آخر شارع الثورة، احتشد الآلاف هناك، لكن فوجئنا بخطة الأمن، حيث خطفوا من كان يقف في آخر التشييع وعلى أطراف "التربة"، ولكثرة الناس لم ننتبه إلى ذلك، خطفوا العشرات يومها، التظاهر يا سيدي كالإدمان لا يستطيع الثائر الخلاص منه، ففيه حريتنا وخلاصنا منك يا سيدي الجلاد.

- لكني يا حسام لست بجلاد!

- يكفي أنك منهم يا سيدي، فأنت شاهد زور على هذا الفصل الأسود من تاريخ بلادنا.

- أكمل يا حسام، أكمل.

شرب حسام كوبًا آخر من الماء وهو يحك رأسه وجسده ويضحك "أصبنا بالجرب".

- كانت أيامًا جميلة يا سيدي، نشعر بشعور غريب، إننا نؤدي أهم واجب تجاه الوطن، فإن انتصرت الثورة وسقط النظام يكون في ذلك تحرر الوطن من الظلم والاستبداد والفساد والمحسوبيات، وسينال الوطن حريته وكرامته ويتطهر من الرجس.

احتدَّ الأمن كثيرًا ولم نستطع الخروج في مظاهرات طويلة، كان هناك نقيب من المخابرات الجوية يدعى النقيب رامي، أبيض الوجه، نحيف

الجسد، أصلع الرأس والوجه وليس في رأسه شعرة، كان قصيرًا وناعمًا، كنا نسميه "سلال" كان يخرج مع أربعة عناصر فقط، يضع حواجز "كمينًا" على رأس الحارات ليلًا ليصطاد النشطاء حصرًا وكل من يخرج في مظاهرة، في تلك الأيام كنا نقوم بمظاهرات طيارة، نخرج بشكل سريع ونصور المظاهرة ونتفرق قبل وصول الأمن، نسميها مظاهرات طيارة، وكل مرة في مكان مختلف، ولسوء الوضع الأمني وتشديده، بدأنا نخرج في مظاهرات مسائية في منطقة المزارع غرب داريا، فهي تتصل مع مناطق الكسوة وجديدة عرطوز، كان الأمن يتجنب دخول هذه المنطقة بعد انتشار شائعة عن وجود الجيش الحر فيها، كانت منطقة آمنة نتظاهر فيها، وفيما بعد أصبحنا نبث المظاهرات بشكل مباشر على الإنترنت والقنوات، لا أحد يستطيع إسكاتنا، بدأ النقيب رامي "السلال" بوضع كمائن على مداخل المنطقة لاصطياد من ينوي الذهاب إلى المظاهرة.

وفي أحد الأيام اتفقنا أنا وصديقي زياد مطر الذي استشهد فيما بعد وصديق آخر اسمه محمد وشاب آخر، على الذهاب معًا إلى منطقة المزارع للتظاهر، وكان معنا في صندوق السيارة منشورات وإذاعة وأعلام ولافتات، خرجنا معًا، هناك طريق أساسي يأخذنا إلى المنطقة الغربية وهو طريق الفصول الأربعة، وصلنا إلى طريق بين المزارع الواقع بين مدينة صحنايا وداريا، والمنطقة مقطوعة وكلها أشجار الزيتون، فوجئنا بدورية للمخابرات الجوية عليها أربعة أشخاص ويترأسهم النقيب رامي، وُجِّهت الأسلحة نحو السيارة وأشار إلينا بالوقوف، شعرنا برعب كبير، ابتلع الجميع ريقه، وعندما وقفنا وجهت أفواه بنادقهم على رؤوسنا فورًا، وطلب منا النزول، نزلنا نحن الأربعة، ووضعونا على طرف الطريق وركعنا ووضعنا أيدينا فوق رؤوسنا ووجوهنا نحو الأشجار، ويقف خلفنا عنصر يصوب سلاحه نحونا، بدأوا

بالتدقيق على أسمائنا لمعرفة إن كنا مطلوبين أم لا، وبدأ النقيب بتفتيش السيارة، وكلما كان يقترب من صندوق السيارة كنا نرتجف خوفًا، كنا ننظر إلى بعضنا بنظرات خاطفة، همس محمد وزياد "ما رأيك في خطف البارود من يد العنصر ونقاوم؟"، همست إليهما بصوت خافت يكاد يصل إلى مسامعهم "انتظروا قليلًا، حين نرى بأننا معتقلون أو مقتولون لا محالة سنقاوم ونموت بشرف".

فتح النقيب رامي صندوق السيارة وصاح "ما هذا يا حيوانات؟"، أغمضت عينيَّ لا أعرف ما أجيب، كذبنا كذبة غبية جدًّا إننا مفاجَؤون بوجود هذه الأشياء في سيارتنا.

- إلى أين أنتم ذاهبون يا حيوانات؟!
- إلى الفصول الأربعة !

ضحك النقيب رامي "أهذه أشكال من يذهبون إلى الفصول الأربعة؟! أم إنكم ذاهبون إلى المظاهرة؟"

صحنا بصوت واحد "على الإطلاق". وقلت له "نحن مفاجؤون بهذه الأشياء ربما مكيدة من أحدهم" قلتها بصوت من ينتظر رصاصة في رأسه في أي لحظة.

بدأ النقيب رامي يطلب مؤازرة عبر اللاسلكي من أي دورة قريبة، ولكن لا مجيب من الطرف الآخر، ونحن ندعو في سرائرنا ألا يجيب أحد، أخرج النقيب الإذاعة وأطلق عليها النار ومزق المنشورات وصادر الأعلام، وحاول مجددًا طلب مؤازرة ولكن لا صوت يأتي من الطرف الثاني، تقدم نحونا ونحن نستعد للمقاومة إذا حاول قتلنا.

صاح بنا "وقوف". وقفنا واستدرنا نحوه.

- قلتم إنكم ذاهبون إلى الفصول الأربعة أليس كذلك؟

- بلى سيدي. أجبته.

نظر إلينا "تحركوا إذًا لا أريد رؤيتكم ثانيًا".

لم نصدق ما سمعنا، على الفور توجهنا إلى السيارة وقلوبنا تضرب بجنون، ربما ما ساعدنا هو عند التدقيق على أسمائنا لم نكن من المطلوبين وإلا كان سيقتلنا.

"ما هذه الفصول الأربعة يا حسام؟" سألت حسام.

- الفصول الأربعة منطقة في داريا تضم ناديًا ليليًّا ومسابح، هي منطقة مشبوهة أخلاقيًّا، وأشكالنا لم تكن تدل أننا من هؤلاء الناس، من أجل ذلك عندما تحركنا نحو منطقة الفصول الأربعة، كان النقيب رامي يسير خلفنا ليتأكد، أخرج زميلي محمد علبة دخان وأصبحنا ندخن، علمًا بأن ثلاثة منا لم يكونوا يدخنون، ولكن أصبحنا ندخن وشغلنا أغاني هابطة حتى نثبت له أننا حقًّا من مريدي النوادي.

لم يتركنا حتى دخلنا الفصول الأربعة وذهب هو، يومها دخلنا وسبحنا في المسبح ولم نتوجه إلى المظاهرة، كنا نضحك على الموقف كثيرًا، كنا أغبياء ومضحكين!

- ملفك يا حسام يقول إنك كنت تسعف وتعالج إرهابيين!

تبسم الشاب الهزيل المتعب: نعم، عندما بدأت القذائف تنزل على داريا أصبحنا في حاجة إلى فريق طبي يعالج الناس خوفًا من الذهاب إلى مشافي دمشق أو أي نقطة طبية يرصدها الجيش والأمن ويعتقلون المصابين، تواصلت مع صديق لي يعمل مع الهلال الأحمر حتى يدربني ويدرب مجموعة

من شباب داريا على دورة إسعافات أولية، جُهِّز مكان في منطقة الزاهرة بالعاصمة دمشق، كانت الدورة سرية بعيدًا عن أعين الجواسيس والمخبرين، وكنا نخرج من داريا بشكل سري إلى الزاهرة، غير المطلوبين للأمن كانوا يخرجون بشكل اعتيادي من داريا عبر الطرق الرئيسة بهدف دخول العاصمة، في وقتها كانت داريا خالية من الجيش والأمن، كانوا ينتشرون على المداخل والمخارج عبر الحواجز، والشخص المطلوب أو الخائف من الاعتقال يخرج بشكل سري، يقع شرق داريا أوتوستراد درعا، وغربها جديدة عرطوز والكسوة وجنوبها مدينة صحنايا، كنا نقطع اوتستراد درعا وندخل منطقة القدم وبعدها منطقة العسالي وعبر دوار البطيخة ندخل حي الزاهرة، ذهابًا وإيابًا، كنا مجموعة مؤلفة من سبعة أشخاص وفيما بعد عشرة أشخاص، وبعد أن تعلمنا وأنجزنا الدورة، وخوفًا على الشباب المطلوبين، أصبحنا نعطي هذه الدورات داخل داريا ونعطي نحن من تدربنا دورات للشباب والشابات.

الإسعافات الأولية كانت تُعلّم إيقاف النزيف، الضماد العادي لوقف النزيف، عرض الحالات وطريقة حمل الجريح، وهذه كانت كارثة، الطريقة الخاطئة في حمل المصاب كانت تزيد الإصابة خطرًا، وتعلمنا خياطة الجرح وإعطاء الإبر.

الإرهابيون الذين اتُّهمت بمعالجتهم يا سيدي كانوا أبناء مدينتي من المدنيين الأبرياء، ولكنهم إرهابيون لأنهم هتفوا للحرية وإسقاط النظام الذي رفض دعوتنا للإصلاح، كان لدي صديق يعيش خارج سوريا يمتلك سيارة "بيكاب" سمح لي باستخدام السيارة، ركَّبنا صندوقًّا كبيرًا على السيارة وتحولت إلى سيارة إسعاف، كان هناك عدة نقاط طبية ومستشفًى سري لا أحد يعرف مكانه حرصًا على الكادر الطبي والمصابين وحتى لا يُقْصَف، حيث أصبح القصف المدفعي ومن قذائف الهاون والدبابات روتين المدينة، لماذا؟

من أجل إيقاف المظاهرات السلمية التي كانت تحرجكم بأخلاقها وأساليبها الحضارية وشعاراتها الوطنية، وكثرت الانشقاقات من الجيش عندما رأوا ذلك بأعينهم.

كنا نجلس في السيارة ونترقب ونتحرك على حسب توجه القذيفة، نذهب إلى المكان ونعرض الحالة، إن كانت إصابة طفيفة نعالجها ميدانيًا، والإصابة الخطيرة نسعفها إلى النقطة الطبية، كنا نسعف نحو ثلاثة إلى خمسة ولكن مع زيادة القصف أصبحنا نسعف عشرة مصابين معًا، حتى إننا أصبحنا نترك الإصابات المتوسطة ونركز على الإصابات الكبيرة، ونوصلهم إلى النقطة الطبية، والنقطة الطبية تحولهم إلى المستشفى السري. كنت أنا وصديقي زياد معًا، لم أكن يومًا أتخيل أني سأصبح مسعفًا، أنا كنت أدرس في كلية الاقتصاد، ولكن للوطن علينا واجبات، وللحياة ضرورات. لم يطل عملي مُسعفًّا حتى أتى اليوم المشؤوم، يوم مجزرة داريا الكبرى في ٢٣/ ٨/ ٢٠١٢، اشتد القصف على داريا من الدبابات والمدافع وأحيانًا من طائرات الهليكوبتر العسكرية، اشتدَّ الأمر، وكلما اشتد القصف، ازداد عدد المصابين، في يوم ٢٠١٢/٨/٢٤، أصبح القصف جنونيًا، انخفض عدد الممرضين والممرضات، اعتذر بعضهم وتركنا خوفًا على حياتهم.

في أثناء وصـــولي مع زياد إلى إحـدى النقـاط الطبيـة ومعنـا الجرحى اقترحوا أن ألتحق مع زياد بالمســتشــفى الســري الذي لم أكن أعلم أين يقع ومن كادره أســاسًــا، وكان الاقتراح أن يُعتمد على متطوعين ومتطوعات في عمليـة الإســعـاف، هكـذا حتى نغطي نقص الكادر، كان اختيـارنـا لخبرتنـا الميدانية في الإسعاف وكنا أفضل الموجودين وقتها، وصلنا إلى المستشفى السري، وكان فندقًا مهجورًا اتخذ من طابقه الأرضي مشفًى وتُركت الطوابق العُليا تجنبًا من القصف كما اتُّخذ من "القبو" الخاص بالمستشفى مستودعً

للأدوية وللوازم الطبية ومكانً لأمانات المصـــابين، حين دخلت اســـتغربت مكان المســـتشــفى وهو حقًّا لا يخطر على بال أحد، كان المســـتشــفى يقع بجانب مقام "ســـكينة" الشـــهير في داريا، وجُهِّز من بعض المعدات التي استُعين بها من مستشفيات "الرضوان، والوطني، والشفاء".

داخل المستشفى الميداني كنا منعزلين عن العالم الخارجي، ولكن كنا نشاهد نتائج ما يحدث من خلال كثرة الإصابات التي تأتينا، في المستشفى أصبحت وجهًا لوجه مع العمل الذي اخترته لنفسي ومدى صعوبته وحجم القوة التي يتمتع بها الإنسان، في المستشفى الميداني يكتشف الإنسان قوته من ضعفه، عندما كنت أسعف المصابين لم أكن أرى ملامح المصاب، ولا أماكن الإصابة، لكثرة الغبار المتراكم على المصابين الممزوج بالدماء أو لكثرة الدماء التي على ملابسهم، كنا نعرف مكان الإصابة لإيقاف النزيف فقط، أما في المستشفى الميداني، كنا نواجه الإصابة ذاتها، ونتعامل مع الأنين ونتجاهله، القاعدة الأولى، لا مكان للعواطف في المستشفى الميداني، كان الطبيب يشرف على الحالة ويفحصها ومن ثم يقول لنا ماذا نفعل، وينتقل إلى شخص آخر، الطبيب كان زوج ابنة عمي، فوجئت به عندما رأيته في المستشفى وفوجئ بي أنني من المتطوعين. استلمت علبة الجراحة وهي علبة فضية مستطيلة تحوي ملقطين ومقصين وشفرة وعدة الخياطة وكفوفًا.

طلبت من الدكتور أن أتولى أمر مصاب كان يئنّ بشدة، وبعدما كشف عليه، قال لي إن في فخذه شظية هاون، أخرج الشظية وعقم الجرح وخيطه، هذا كل ما في الأمر، ذهب الدكتور وبقيت مع المصاب الذي يئنّ، هذه أول مرة سأخيط فيها جرحًا وأتعامل مع إصابة، أنا تعلمت خياطة الجرح على "دجاجة" ولكن هذه هي المرة الأولى التي سأتعامل مع إنسان مصاب،

شققت البنطال ونظفت الجرح، كان الجرح صغيرًا ولكنه عميق، أحاول الوصول إلى الشظية لا أقدر، لقد امتلأت يداي بالدماء، أضغط على أطراف الفخذ حتى أدفع الشظية إلى الأعلى ولكن دون جدوى، والمصاب يصرخ بقوة، حملت ملقط الجراحة لسحب الشظية، أدخلت الملقط وعندما احتكّ الملقط بالشظية شعرت بقشعريرة في جسمي وخوف انتابني، تركت الملقط داخل الجرح وتراجعت إلى الوراء، أيقظني من سهوتي صراخ المصاب الذي ملأ الأركان كلها، عاودت مرة أخرى وبدأت أسحب الشظية وهي تفلت، الحديد مع الحديد.

وعندما أخرجت الشظية هدأت روحي، وصمت المصاب، ولم يعد يئن، تنفست الصعداء، وبدأت بتنظيف الجرح وتعقيمه لخياطته، وضعت الخيط في الإبرة وبدأت خياطة الجرح، وعندما أدخلت الإبرة في الجلد صاح المريض "آااااااه" وأنا أستغرب صراخه، عندما انتهيت، قال لي المصاب "يا ابني، هل خيطت دون تخدير الجرح؟"، لا أدري كيف نسيت إعطاءه إبرة تخدير، ولكن قام وبدأ يمشي وتحسن وضعه، قال "لي ثأر معك سآخذه حين ننتهي مما نحن فيه"، وذهب والتقيته بعد مدة في المدينة، خِفت أن يتهجم عليَّ، ضحك وذكَّرني بالموقف وبدأ بتقبيل رأسي.

امتلأت الغرفة والممر الخارجي بالمصابين، طلب مني الدكتور أن أنتقل إلى الممر وأبدأ بتضميد الجرحى هناك، عددنا لم يعد يستطيع أن يغطي كل هذا العدد الكبير من المصابين، كنا نعلم أن الكارثة في الخارج أكبر مما نتخيل، أخذت عدتي وتحولت إلى الممر وجلست بقرب أول مصاب، وبدأت أعالجه حتى أنتقل إلى الذي بعده وهكذا انتهيت من أول ثلاثة مصابين وانتقلت إلى الرابع دون أن أقف على قدمي، لكثرة الجرحى لم يكن هناك مكان لوضع قدمي، كنت جالسًا على ركبتي وأقوم بعملي وأنتقل القُرفصاء

إلى المصابين، مضى عليَّ يومان دون نوم، كنت في حالة انهيار بدني وإرهاق لم أشهد مثليهما في حياتي، لم أنل من النوم طوال ثمانٍ وأربعين ساعة سوى ساعتين فقط، بينما أضمد جرح المصاب كان أحد المصابين الممدد بجانبي يطلب مني التوجُّه إليه، ويصرخ من الألم، ولكن لم أكن فعليًا أسمعه، أحاول صب تركيزي على الذي في يديَّ حتى أنتهي بسرعة ولا أستطيع تخطي الدور، كان يمسكني المصاب من ثيابي ويدعو عليَّ للتوجه إليه حتى أمسك علبتي الفضية وضربها على رأسي وهو يئن ألما، وقتها شعرت بالضربة وبردة فعل لا إرادية مني وقفت على طولي، كدتُ أقع على الأرض وشعرت بالدوار، مددت يدي على رأسي أتحسس الضربة وحين رفعت رأسي نحو الممر، اكتشفت المصيبة التي أنا فيها، أعداد رهيبة من المصابين ممددون بجانب بعضهم، جلست على الأرض وبدأت بالبكاء والبكاء، أتت زميلتي وهي ممرضة "حتى أنت أصبحت مصابًا!".

- العدد أكبر من طاقتي وقدرتي!

- قم وسينتهي الأمر، لكن لا تتوقف وسنرسل إليك زياد الآن.

أتى صديقي زياد وبدأنا معًا، ولكني لم أتوقف عن البكاء، عندما انتهينا شعرت بأن العالم كله يلف بي، قلت لزياد "سأنام قليلًا حتى أستطيع أن أكمل"، نمت يومها أربع ساعات فقط، ولكن كانوا بمثابة أربعين ساعة نوم، في يوم الجمعة ٢٠١٢/٨/٢٥، كنا في المستشفى نقوم بعملنا المعتاد، دخل أحد المسعفين على عجل وهو يصيح "الجيش اقتحم داريا اهربوا"، أصيب الجميع بحالة من الهلع، خرج أحدهم إلى الخارج لِفَهْم ما يجري، عاد إلينا وقال "الجيش أصبح على رأس الحارة الخلفية من المستشفى وهم يتقدمون من الحي الشرقي"، صاح الطبيب في الجرحى "كل من يستطيع السير على قدميه يصطحب معه جريح ويخرج من المستشفى".

بدأ المصابون بالخروج والتوجه نحو غرب داريا هربًا من الجانب الشرقي حيث يتقدم الجيش، بدأنا بإفراغ المستشفى، وكل مجموعة من الجرحى ترافقها ممرضة، بقيت أنا وزياد والدكتور وثلاثة متطوعين وثلاثون مصابًا، بدأنا بفرز الحالات التي يمكن أن تسير وحدها، الجريح الذي يمكنه السير كنا نطلب منه اصطحاب جريح لا يستطيع السير ونضعه على كرسي متحرك ويدفعه الجريح الآخر في الشارع، امتلأت الشوارع بالمصابين وهم يهربون قبل وصول الجيش الذي أصبح على مقربة من المكان، وإذا اكتشف أمر المستشفى فسيعدم الجميع. أصبحنا وقتها عشرة أشخاص فقط، وكان علينا تأمين هويات المصابين في الأمانات لأن الأمن والجيش إذا عثروا عليها فسيلاحقون أصحابها. كانت الأرض مليئة بالدماء وألبستنا ممتلئة باللون الأحمر، جلست وزياد والمتطوعون وبدأنا بوضع خطة في كيفية إخراج من تبقى وهم من الحالات الخطيرة، بقي أربعة أشخاص في المكان لم يكن بمقدورنا إخراجهم، واحدٌ "موت سريري"، وشخصان إصابات خطيرة في الدماغ، والرابع مبتور القدمين "أثر شظية هشمت قدماه"، وكان ينزف طوال الوقت، قلت له "عمَّاه سأحملك على ظهري وأخرج بك"، لكنه رفض وطلب منا الخروج، كان كلما سألته يرد "الحمد لله"، لا ينطق سوى هذه الكلمة، في المرة الوحيدة التي تكلم فيها "أنا سأموت في كل الأحوال، اخرجوا أنتم"، سألته إن كان يريد أي شيء، رد كعادته "الحمد لله" هذا الرجل لن أنساه ما بقيت حيًّا، كنت أشعر بأني أكلم زاهدًا أو صحابيًّا تقيًّا.

وكان قد أصيب شخص بالعمى نتيجة بقائه بين الركام يومًا كاملًا وتجمعت الدماء على عينيه وجفَّت حتى فقد بصره، ولكنه كان يستطيع السير، خرجنا وبأيدينا الهويات الشخصية للمصابين وأمسكت أنا وزياد هذا الرجل الفاقد للبصر، وعندما خرجنا إلى الشارع رأينا الجيش على مدخله،

دخلنا إلى الفندق وتوجهنا إلى الطابق الأول، ومن خلال شرفته المطلة على أسطح أحد المنازل المجاورة، حملت الرجل على ظهري واستطعنا الانتقال إلى السطح الآخر ونزلنا وخرجنا من الشارع الخلفي، أخذنا المصابين إلى أماكن أخرى وأخذت معي اثنين إلى منزلي، بعد أيام بث التليفزيون الرسمي مقابلة مع أربعة إرهابيين مثلي كانوا في المستشفى بحسب إعلامكم يا سيدي، هؤلاء الأربعة هم أنفسهم الجرحى الذين تركناهم خلفنا مرغمين وبعدها لم نعلم ماذا حدث لهم. كانت خطة الجيش أن يدخل أول فوج ويمشط المنطقة وبعدها يدخل قسم آخر من الفرقة الرابعة والحرس الجمهوري وبعدها تدخل ميليشيات طائفية ارتكبوا الفظائع، كانوا يدخلون المنازل ويسرقون الأموال والذهب وكل ما هو غالٍ ويقتلون أصحابها بدم بارد.

تحول منزلي إلى نقطة طبية أنا وأخي فيه فقط، أهلي غادروا المدينة سابقًا، وكلما يأتيني جريح جديد على المنزل يخبرنا عن تقدمات الجيش، عندما وصل الجيش على مقربة من منزلي طلبت من الجرحى التوجه إلى أماكن أكثر أمانًا لهم، بقيت أنا وأخي في المنزل، رفضنا الخروج لاعتقادي أني مقتولٌ مقتول فلماذا العذاب والهرب؟ نظفنا المنزل مما تبقى من المياه في الخزانات، وبدلت ملابسي الملطخة بالدماء وخبأتها في الغسالة، المياه والكهرباء والاتصالات كلها كانت مقطوعة.

دخل الجيش شارعنا، منزلنا من المنازل العربية في داريا، له حوش كبير وفيه أشجار كبيرة وعريشة عنب، نحن مدينة العنب يا سيدي، وقفت مع أخي خلف الباب نراقب تحركات الجيش من العين السحرية في الباب، بدأ الجيش بإخراج كل أبناء الحي ووضعهم أمام منزلنا، لأن أمام باب منزلنا فسحة نحو أربعة أمتار بشكل مقوس، جُمِّع الناس هناك، أهالي الحي كانوا حريصين ألا يعرف الجيش عني شيئًا أو يقبض عليَّ، لأني مسعف وإلا فإن

الحي كله سـيدفع الثمن، وُضـع الشـباب والرجال أمام باب المنزل وبدأوا بضـربهم ودعسـهم، كنت وأخي نرتجف خوفًا، وكانت مشـيئة الله أن يعمي قلوبهم وأعينهم عن منزلنا، لم يقتل الجيش ولم يعتقل أحدًا من أبناء الحي.

بدأ الجيش يوم السـبت ٢٠١٢/٨/٢٦ في الانسـحاب من الحي، ووقتها خرجـت من المنزل وبـدأت أتبع خطوات الجيش، أسـير خلفهم وأدخـل الأحياء التي خرجوا منها بحثًا عن جرحى، أتاني صـديقي زياد وقال إن أخاه اعتُقل، واختبأ هو بين بسـاتين العنب، رغم دخول الجيش إلى البسـاتين لكنهم لم يعثروا عليه، حـدثت أول مجزرة كبيرة في جـامع "أبو سـليمان الديراني" وقتل سـبعون شـخصًـا، يعد بناء الجامع من العهد العثماني ولا يمكن قذائف الهاون اختراقه، فلجأ الناس إليه، لكن بيت الله وحرمته لم يشـفعا لهم، عندما دخلت سـاحة الجامع رأيت الأهوال، جثثًا فوق بعضـها، وبحرًا من الدماء، كمن يسير في النهر يا سيدي، نعم كنتُ أسير في نهر من الدماء، لقد ذُبِح الناس بالسـكاكين والسـواطير، وكان يُطعنون ويُتركون يَنزفون حتى تُصَفّى دماؤهم ويموتوا، شيء لم يكن يصدقه عقلي ولا عيني، بأي ذنب قتلوا؟!.

بدأ الناس يخرجون من منازلهم وبدأ فريق التوثيق يخرج، وبدأنا نجوب الأحياء، أمَّا نحن فريق المسعفين كان لنا مستودعات صغيرة نخبئ فيها بعض الأدوية وما يلزم من الإسعافات الأولية، أخذناها، وصلت إلى جامع "الإيمان" في المنطقة الشرقية، شممنا رائحة كريهة جدًّا من منزل عربي دخلنا إليه رأينا خمس جثث محروقة، كانت تبعث روائح كريهة، هذه أول مرة بحياتي أرى مثل هذا، كنت أشعر أني أشاهد فيلمًا هوليوديًّا من الخيال، كيف لإنسانٍ أن يحرق إنسان؟ خلف المنزل بستان، دخلنا البستان لعل أحدهم لجأ إليه هربًا من الجيش، كان هناك دخانٌ ينبعث من بئر، تقدمنا وكانت المأساة،

جثث محروقة قد ملأت البئر، كيف أقاوم؟ لا أعلم، هذا هو جيش البلاد! أتينا بفريق الدفن والتوثيق، لم نستطع التعرف على الجثث، كان البئر ممتلئة.

بدأت أشعر بالقيء مما نحن فيه. دخلنا إلى بناء من خمسة طوابق تسكن فيه عائلتان من عوائل داريا "آل شهاب وآل آفاع" نزلنا إلى القبو، كانت الشمس تتسلل قليلًا من النوافذ العالية إليه، تضيء لنا المشاهد المروعة، ثمانون شخصًا من العائلتين قُتلوا رشًّا بالرصاص، كانوا قد التجؤوا إلى القبو خوفًا من القذائف، لكن الوحوش عثروا عليهم وارتكبوا إبادة جماعية بحقهم، ونحن نهم بالخروج سمعنا صوت أحدهم من تحت أكوام الجثث يصيح بنا، ركضنا نحوه، كان مصابًا في عنقه، أخرجناه وأخذناه إلى أقرب نقطة طبية، من عائلتين مكونتين من ثمانين شخصًا لم ينجُ سوى شخص واحد فقط. هل تتخيل حجم المأساة يا سيدي؟ مازلت أتساءل بعد هذه السنوات، ما ذنبنا حتى لقينا مالقينا؟! لقد كان ثمن الحرية أكبر مما تخيلناه.

لملمنا جراحنا سريعًا لأنه كان حزنًا عامًّا، وكان ردُّنا عليكم ردًّا مزلزلًا، القتل لن يثنينا عن الثورة، لقد تذوقنا طعم الحرية، ودفعنا دماءنا في سبيل ذلك، خرجت مظاهرة كبيرة في داريا بعد المجزرة التي استمرت خمسة أيام وراح ضحيتها ألف وأربعمئة شخص، بل كانت إبادة، وبعدها شكلنا مجلسًا محليًّا مدنيًّا لإدارة المدينة. وفي أواخر شهر تشرين الثاني ٢٠١٢، فُرض حصار كامل على داريا، وأصدرتم يسمح لمن ينوي الخروج من المدينة ولكن دون عودة، أردتم إفراغ المدينة، أربع سنوات من الحصار لم تستطيعوا أن تتقدموا ميلًا واحدًا نحو المدينة، ولكن قررنا الخروج من المدينة بشكل جماعي بعد أن نال الجوع من الناس، لقد تحول طعامنا في الأشهر الأخيرة إلى شوربة العدس، نحو خمسة وسبعين كيلوجرامًا رز في أربع حِلَل كبيرة لجميع الناس، كان الناس يتذمرون، ويطلقون عليها شوربة "المنكليطة" أو شوربة "أبو

شمس" الذي كان يطبخ لنا، قدمنا درسًا ثوريًّا في العمل المدني والعسكري لكل سوريا، خرجنا من مدينتنا مكرهين ولكن بكرامتنا.

والدمع في عينيَّ "وأنت يا حسام، كيف اعتُقلت؟".

- في أثناء الخروج الجماعي إلى إدلب، قررت أن أتسلل إلى العاصمة، ومن بعدها الخروج إلى الأردن، ولكن اعتقلت في الطريق عندما عرفوا هويتي، قالوا عني "إرهابي"، هذا هو الإرهاب وهذه قصتي.

وصل حسام إلى الباب عائدًا إلى زنزانته في هذا المسلخ، إلى ركن من أركان هذه المقبرة وهو يودعني بعينين فخورتين بما قدمت، ونظرات نحوي تتهمني بالخيبة.

صاح الحارس الذي على الباب "الإرهابي الثاني!".

نحر الملائكة
واغتصاب القديسات في مسجد الشهداء

قصتي كقصة أي سوري ثار على النظام، قصة حالم بحياة كريمة أوصله حلمه النبيل إلى هذا الجحيم الذي نحن فيه.

- على رسلك، ما اسمك؟ ومن أين أنت؟ وما تهمتك؟!

يرتجف "اسمي خالد وسِنّي ثلاثة وثلاثون عامًا، من منطقة الحولة بلدة تلدو محافظة حمص، تهمتي ثائر على الطغيان، يسمونه إرهابيًّا".

يرتجف رأس ويدا خالد بشكل كبير أمامي، عيناه حمراوان، ووجهه منتفخٌ وتحت عينيه أزرق، ويدان مشوهتان، يلبس كنزة سوداء ممزقة وبيجامة زرقاء ملطخة بالدماء، لفت نظري يداه المجروحتان وفمه المجروح.

- ماذا حدث ليديك؟!

ضحك بألم "من التعذيب، ولكن هل تعلم لماذا رفعت يديَّ وأتيت إليك؟!"

- لماذا يا خالد؟

- لأني أشعر بأن الموت أقرب إليَّ من أي وقت مضى، ربما يومًا وربما ساعة، وخشيت أن أموت صامتًا، فأردت الحديث، لأني طوال مدة اعتقالي خائف وصامت، حتى إن نبع دموعي قد جف.

- أتشتهي الموت؟

- الموت رحمة يا سيدي في هذا المكان الذي نحن فيه، الموت رحمة أمام تهم ملفقة بالإرهاب والخيانة، نحن نحب الوطن مقارنة بهؤلاء الكارهين، هؤلاء يسيئون للوطن بتعذيبهم لنا، ونحن نحب الوطن وهتافاتنا ومواقفنا دليلنا، هاتان اليدان أُذيب عليهما نايلون محروق، بينما أنا أصرخ بين أيديهم كانوا يضحكون ويتلذذون، لقد اغتصبوني مراتٍ عدة حتى بتُّ أنزف، لقد هشموا فمي من ضربات مبرحة وشوهوا ملامحي، أتعرف لماذا أرتجف هكذا؟ لأنهم ضربوني على رأسي بالكرسي، وكانوا يسعفونني حتى لا أموت ليعودوا مجددًا إلى تعذيبي.

- لماذا كل هذا بحقك؟

- لأني قتلت ضابطًا نحرًا.

- لماذا؟!

- دفاعًا عن شرفي وشرف الوطن وما تبقى من كرامةٍ للإنسان.

- قل قصتك يا خالد.

- أنا يا سيدي ورثت عن والدي تجارته في المواد الغذائية، حتى إني كنتُ التاجر المعتمد، أسافر إلى حمص المدينة وحلب وحماة ودمشق، أجوب أرجاء هذا الوطن باحثًا عن رزقي، لديَّ من الأبناء ثلاثة، أو كان لديَّ لأنهم قُتلوا، هل الأطفال يذنبون يا سيدي؟ لا تجبني.

عندما أتاني أول طفل أقمت حفلة عزمت فيها كل أبناء بلدتي، بلدتنا سهلية وزراعية، جميلة مثل أهلها، لقد شاركوني فرحتي، وفعلت ذلك مع كل

أبنائي، أحببت ابنة عمي، كانت تدرس في العاصمة وحلمها أن تصبح مهندسة زراعية، وأنا كنت أعمل لدى والدي في التجارة، كنت أخاف أن أكشف سري وأبوح بمشاعري خوفًا من الرفض، المرأة المتعلمة عندنا تُقَدّس، فكيف سيزوجونها لمن لم يكمل تعليمه؟!

أنا لم أكمل تعليمي، خرجت عندما أخذت الكفاءة في الصف التاسع، وبعدها طلبت من والدي أن يسمح لي بالعمل معه لأني كنت أكره التعليم. أصَرّ والدي على تعليمي وضربني وغصبني على التعليم لكني كنت أهرب من المدرسة، حتى اقتنع بأني لا أصلح للتعليم ولكن كان يشدد عليَّ بالعمل، جعلني في العمل كالحمار، أستيقظ عند الساعة السادسة صباحًا ولا أدخل المنزل إلا بعد منتصف الليل، كان يضغط عليَّ حتى يُكرهني في العمل لأطلب العودة إلى المدرسة، لكن ربحت أنا الرهان، وتعلمت أصول التجارة حتى بات والدي يصطحبني معه إلى محافظات أخرى، وأتعلم طرق التعامل مع التجار الكبار، عندما وصلت إلى العشرين من عمري، بُحت لأمي بما في قلبي تجاه ابنة عمي "دلال" التي كانت في السنة الثانية من الجامعة، لكني فوجئت بموافقة عمي وابنة عمي. نحن أناسٌ بسطاء لا نعرف كيف نُعبّر عن مشاعرنا بخطابات أو قصائد، إنما بالاهتمام والحرص، كنت أهتم لكل ما تحبه، ولكن قبل عرسنا بفترة صغيرة تعبتُ واضطررتُ إلى إجراء عملية "فتق"، وبعد أيام من العملية أخبرني صديقي أنَّ عليَّ تأجيل الزواج أو إلغاءه، سألت عن السبب، قال لي إن التفتق سيمنعني "الإنجاب"، شعرت بوقوع كارثة، هُرعت إلى المختبر وأجريت الفحوصات، وكانت النتيجة سلبية، نسبة الإنجاب ضعيفة، كان أقذر فحص يمكن أن يخوضه الإنسان، عدت إلى المنزل بوجه غاضب شاحب، ودون أي تفكير طلبت من أمي أن تبلغ بيت عمي بأني تراجعت عن الزواج، ودخلت غرفتي وبدأت أبكي على امرأة فاتنة

خسرتها، مذاق الخسارة مرير لدرجة العلقم، عند المساء تلقيت اتصالًا على هاتفنا الأرضي، عندما رفعت السماعة سمعت صوتها "خالد، هل حقًا لم تَعُد الزواج مني؟"، شعرت بحرقة في قلبي ما عدت أعرف بم أجيب، ولكنها كررت "خالد، أنا موافقة أن تلغي الزواج، ولكن غدًا أنا ذاهبة إلى دمشق أريد رؤيتك قبل ذهابي"، أغلقت الهاتف، وبدأت طوال الليل آخذ غرفتي ذهابًا وإيابًا، بم سأجيبها؟ وكيف سأبرر لها؟ الحياء عندنا كبير ولكل شيء حدوده.

لم أستطع النوم يومها، عند الساعة السادسة والنصف صباحًا توجهت إلى "كراج السيارات" حيث كانت هناك بجلبابها الأسود الطويل، وحجابها الأبيض وبيدها كتبها الجامعية، تقدمت خجلًا وجلًا نحوها "صباح الخير".

بادرتني على الفور بالحديث "تريد أن تلغي الزواج؟ كما تريد، ولكن يجب أن تعرف أن هذا الأمر ليس شأنك وحدك، هذا شأنٌ مشترك، وعليك إخباري عن السبب، عندما وافقت عليك كنت أعلم من أنت وما أخلاقك والتزامك، ولم أسأل عن أي أمر آخر، ولكن تريد تركي هكذا دون أي سبب؟! لستُ دميتك! كرامتي فوق كل شيء".

كانت غاضبة مجنونة مشتعلة كالبركان الهائج "على رسلك يا ابنة العم، كرامتك من كرامتي، ولكن حبًّا لكِ طلبت إلغاء الزواج".

- اشرح لي ذلك، كيف حبًّالي؟

كنتُ أشعر بخجلٍ كبير، وأتردد كثيرًا "لقد أجريت فحوصات وكانت النتيجة أن نسبة إنجابي للأطفال ضعيفة".

- ولماذا أجريت الفحوصات؟ ومتى؟
- بعد العملية.
- وأنت مرهق من العملية؟

صدمتني "ماذا تقصدين؟!".

- كيف تخضع لفحوصات كهذه بعد عملية الفتاق؟! هل هذا هو السبب؟

- وهل تريدين سببًا غير هذا؟!

- اسمع يا خالد، لقد أثبتَّ رجولتك مرة أخرى ولم تخيب ظني فيك، أنا أقبل بك كيفما كنت، ولكن بعد شهر أو شهرين اخضع للفحوصات مرة أخرى.

ذهبت بعدما أسرت قلبي وأجبرت بخاطري، ما أجمل جبر الخواطر! بعد شهرين خضعت لفحص آخر وكانت النتيجة إيجابية واستغرب الطبيب كيف لي أن أخضع لفحوصات بعد العملية، بدأت أشتم من نصحني. ولم يدم الأمر طويلًا حتى تزوجنا وكلانا كان يتسابق من يسعد الآخر أكثر.

بدأ خالد يزرف دموعًا.

- قل يا خالد، لماذا خرجت في مظاهرات ضد النظام؟!

- لكل إنسان دوافعه وأسبابه، أنا شاركت بسبب الفساد، في أثناء عملي بالتجارة، كنت مضطرًا إلى دفع رشاوى لضباط لتسهيل أمور بضاعتي، في إحدى المرات طلب أحد الضباط مبلغ عشرين ألف ليرة سورية على أمر لا يتطلب شيئًا، كنت أريد فقط توسيع تجارتي، رفضت الدفع، سجنني مدة أربعة أيام ولم يتركني حتى دفعت له ثمانين ألف ليرة سورية، كان عنصر الأمن يستطيع أن يتحكم في مصائر تجارتنا.

أول مظاهرة خرجت فيها كانت في ٢٠١١/٤/٢، كان القمع قد اشتد في درعا وحمص المدينة وقرية البيضا في بانياس، كان شعوري كمن وُلد من جديد، أهتف للحرية، شيء سمعت عنه ولم أعشه من قبل، ماذا تعني

الحرية؟ أي أن نكون بشرًا يحق لنا أن نتكلم دون خوف، هل مازال هناك بشرٌ يخافون الكلام؟ نعم في سوريا، وعندما هتفنا "الشعب يريد إسقاط النظام" شعرت أنني أنتمي إلى هذا البلد ولي حقوق لا أعرفها، لقد نسينا حقوقنا من كثرة ما قدمنا من واجبات، لكن الأمر لم يطل حتى بدأ الأمن بقمعنا ومطاردتنا وقتلنا واعتقالنا، كانوا يركضون خلفنا ويضربوننا وكأننا من الدواب ولسنا بشرًا، ولكن للحقيقة ما أجمل ذاك الضرب أمام ما مررت به هنا في هذا الجحيم!

في الشهر الخامس من ٢٠١٢ احتدَّ الأمر وازدادت الاشتباكات بين الجيش الحر والنظام وشبيحته والميليشيات الطائفية من الإيرانيين وحزب الله اللبناني، لم يستطيعوا أن يتقدموا شبرًا نحو المنطقة، في يوم ٢٠١٢/٥/٢٤، بدأ القصف جنونيًّا على المنطقة وانسحب الجيش الحر تحت هذا القصف الكثيف، هرب الناس إلى المساجد للاحتماء ومنها إلى الأبنية.

رئيسٌ أعلن الحرب على مواطنيه! يومها حملت أنا وزوجتي أبناءنا وتوجهنا إلى جامع "الشهداء" الواقع في منتصف البلدة، خلف الجامع بساتين وأشجار، وفي الجانب الآخر دوار وأراضٍ زراعية وبعض البيوت المتفرقة، ويوم ٢٠١٢/٥/٢٥ كانت الكارثة، اقتحم الجيش والشبيحة وحزب الله اللبناني بلدة تلدو، امتلأ الجامع بالنساء والأطفال وتركنا عدة رجال لحماية الجامع، وتوجهنا نحن لإسعاف الناس ومساعدتهم في البلدة، دخل الجيش والشبيحة من البساتين نحو الجامع ونحروا الأطفال ملائكة الله، واغتصبوا نساءنا القديسات الطاهرات داخل الجامع، كنا نركض في المدينة كالمجانين، والدخان في كل مكان نتيجة ضرب المدافع، تذكرت وقتها أغنية كنت أسمعها من فترة "على شعبك أعلنت الحرب وبدك نمشي معك الدرب"، حقًّا كيف يطلب رئيسكم السفاح أن نكون معه بينما هو أعلن علينا

الحرب؟ سمعنا أن الجيش والشبيحة دخلوا جامع "الشهداء" وارتكبوا مجزرة، تذكرت زوجتي وأطفالي، هُرعت إلى المكان، كان عويل النساء في كل مكان، دخلت الجامع رأيت الفظائع، دماء في كل مكان، تلطخ شرف الوطن، بدأت كالمجنون أبحث عن زوجتي وأطفالي، وأنا أدعو ربي أن يكونوا قد هربوا، كنت أرتجف وأبكي حتى وصلت إليهم، كانت ممددة ويدها بيد ابنها الرضيع الذي نحر بالسكين بينما هي ممزقة الملابس مكشوفة الرأس، لقد اغتصبوها وقتلوها أيضًا نحرًا، حتى يدها التي كان ممتلئة بالذهب قد قطعوها لأخذ الذهب، جمعتهم الأربعة في حضني وبدأت أصرخ وأصرخ وأصرخ "يا الله! يا الله!" لقد دنسوا طهرها، لقد خسرت كل شيء في لحظة واحدة فقط، فقدت أعصابي، هرع الناس إلى المكان وبدأ كلٌّ يبحث عن ذويه والجميع يبكي، يا لَقهر الرجال! يا لقهر الرجال! يا لقهر الرجال! قتلوا قرابة مئة وعشرة أشخاص منهم خمسون طفلًا نحرًا ونحو أربعين امرأة، هل تتخيل ذلك؟!

سمعنا أصوات الرصاص خارج الجامع، كنت غاضبًا، أشعر بأني في عالم آخر، كانوا يقولون "خذوا جثثكم النجسة"، وكانوا يقولون عن نسائنا بأنهن العاهرات، حين سمعت ذلك ركضت خارج الجامع ولحسن الحظ وجدت سكينًا على الأرض، مثل المجنون خرجت ووقعت عيناي على ضابط برتبة نقيب بين جنوده بل عصابته وهم يضحكون، ركضت نحوه وبدأت بطعنه، ركض عليَّ الجنود ويحاولون إمساكي ولكني كنت قد أجهزت عليه ومررت سكيني على رقبته، وبدؤوا يضربونني على رأسي حتى فقدت الوعي وفتحت عينيَّ على أحد الأفرع الأمنية لا أعلم أين، ولا أدري ماذا حدث بجثث أطفالي وزوجتي، وأين دفنوا!

بدأ خالد يبكي بجنون.

- اهدأ يا خالد!

وقع على الأرض وهو يرتجف كالمذبوح من الوريد، ركضت نحوه أصيح على الحرس حتى دخلوا، كان قد توقف عن الارتجاف، نظرت إلى عينيه كانتا مبحلقتين حمراوين، صرخت في الحرس "آتوا بالطبيب"، دخل عليَّ العميد محمود مدير السجن، مدَّ يده على عنق خالد "سيادة العميد، لقد فطس"، صِحت به "ويحك أيها العميد، كيف تقول ذلك؟!"، بوقاحة لم أعتدها "أستغرب من انزعاجك على كلب فاطس"، نادى الحرس "احملوا هذا الفطيس وارموه بأي حاوية".

- أستغرب أنا منك، كيف تتعامل مع البشر هكذا؟!

- هذا مصير كل خائن.

تمالكت نفسي وجلست على الطاولة واضعًا يديَّ على رأسي "أدخلوا الشاب الثالث".

مدير السجن "سيادة العميد، أراك متعبًا فلتؤجل!".

رفعت صوتي "هذا عملي لا شأن لك".

خرج العميد وهو يرمقني بنظرة غضب وصاح في الحرس "أدخلوا العرص الثالث".

تجتاحني رغبة كبيرة بأن أنقضَّ على مدير السجن وأبرحه ضربًا أو أفرغ مسدسي في رأسه، لكن ما يجعلني متمالكًا لأعصابي هو هدفي الذي أريد أن أخرج خلاله بنتائج مع الرئيس، لا أريد أن أصبح مذنبًا، أحافظ جدًّا على تصرفاتي. سأضع كل شيء أمام الرئيس بكل تجرد وسأحاسب هؤلاء الضباط شر حساب وبأمر من الرئيس.

دخل شاب أسمر طويل، حليق الرأس بلحية خفيفة، وعينٌ كعيون سائر المعتقلين هنا، لباسه ملطخٌ بالدماء، لا لون هنا سوى اللون الأحمر. يبدو عليه الخوف الشديد.

ديرالزور أم النخوة

- لمَ أنت خائف؟ اجلس واسترخِ، واشرب كوبًا من الماء.

مد يده وشرب الماء وأجابني "عندما رفعتُ يديَّ للمثول أمامك شعرت أنك مختلف عن الذين هنا، ولكن يبدو أنك لا تختلف عنهم!".

- وكيف عرفت أو استنتجت؟
- لقد خرج زميلي الآن محملًا.
- وهل تظن أني قتلته؟! لا، لقد أصيب بحالة إغماء لا أعلم تحديدًا ما الذي حدث معه، ولكني لم ألمسه حتى، سنرى إن كنتُ مثل هؤلاء أو مختلفًا عنهم، ما اسمك وسِنّك؟ ومن أين أنت؟ وما تهمتك؟
- اسمي جاسم من ديرالزور سِنّي ثلاثون عامًا، درست الحقوق في جامعة دمشق، تهمتي كسائر التهم، إرهابي ومحرض على الدولة لقلب نظام الحكم.
- يبدو أنك خرجت من التحقيق بفترة قصيرة.
- تقصد حفلة تعذيب؟ نعم هذا من حقوقنا، التعذيب اليومي، لقد كان التعذيب اليوم هينًا، بعض لكمات وصعقًا بالكهرباء، لربما تعب الجلاد، اليوم الأول كان الاستقبال الحقيقي، قلع الأظافر، والتعرف بشكل سريع على أدوات التعذيب، من بساط الريح، والدولاب، والكرسي حيث يقوسون ظهورنا، الصعق بالكهرباء، والجلد بالكابلات.

- كيف اعتُقلت؟ أو ما قصتك؟ بدلًا من أن تمارس مهنة المحاماة أراك هنا؟!

- مثلي مثل كل العقول والمبدعين والمثقفين والمفكرين من ثروة البلاد، ستجد الجميع هنا ولم يتوقف الأمر عندي. أنا من مدينة ديرالزور حي القصور، كنتُ أدرس الحقوق في جامعة دمشق، وكنتُ أقضي وقتي بين ديرالزور والشام، توفي والداي وأنا صغير، وكبرت على يد أخي الكبير، الذي أصر على تكميل دراستي، وفعلت، عندما يدرس الإنسان منا القانون ويتبحر فيه لا يمكنه أن يُغطس قدميه في جدول ماءٍ متسخ، فما بالك بدولةٍ القانون فيها يقف مع القوي وصاحب النفوذ ومن يدفع أكثر؟ تخيل أنك صاحب حقٍّ لا لبس فيه تقف أمام قاضٍ يحكم لغريمك لأنه دفع للقاضي رشوة، الرشوة في بلادي أمر بديهي وواجب وطني، بحجة أنه يجب أن نشعر بظروف الآخرين، في وسط هذا الفساد كيف نحقق القانون ونطبقه وننصف صاحب الحق؟ الباطل ينتصر لقوته، والحق ينهزم لضعفه، هي انتصاراتٌ آنية سرعان ما ستزول، والأسد أيضًا هُزم رغم انتصاره، سحق مدننا وأحرق بيوتنا ودمر وطنًا وجعل منه أثرًا بعد عين، وقتل شبابنا وعقول المستقبل، واغتصب شرفنا ونحر أطفالنا وهجر نصف شعبه، واعتقل ما تبقى يعاقبه على جُرم الحرية، هذا النصرُ ادعاء وليس واقعًا، سيَفْنى هو ونصره، وما النصر إلا صبر ساعة، نحن على رغم مأساتنا أحرارٌ بفكرنا وعقيدتنا وقلوبنا، وهو رغم انتصاره عبدٌ للسلطة ومأمورٌ لروسيا وإيران، سأقول لك أيها العميد بالقانون الذي لم أكمله، نحن هنا بتهم الخيانة والإرهاب، فلتكن جلسة مرافعة وتحكم فيها بيننا وبين الأسد.

- ولم أنا يا جاسم؟ أنا من السلطة!

- لو أنك من السلطة فلم أتيت إلى هنا باحثًا عن الحقيقة؟ السلطة لا ترأف، وأنت ترأف، الفرق بينك وبينهم، أنك تعلم وظيفتك في الدولة

السورية، أم هم فوظيفتهم لسلطة الأسد، أنت فرقت ما بين الوطن والرئيس وتصرفت على هذا الأساس، السلطة لا ترحم وأنت رحمتني حين أجلستني على هذ الكرسي وأسقيتني من كأس ماء نظيف، وهذا حقي لكن في دولة القانون، أما في دولة الأسد لا ماء ولا طعام، فقط حقوقنا تتوقف عند التعذيب، في إحدى جلسات التحقيق الطويلة التي كنت واقفًا فيها على قدميَّ، طلبت كأس ماء، وقلت للمحقق إني طالب حقوق ولولا اعتقالي لكنت محاميًا، طلبت منه أن يتصرف بالقانون، قال لي وقتها لأنك محامٍ سنميزك عن غيرك، سأخرج لك عضوي الذكري واستسقِ منه ما شئت وبالقانون.

هكذا ينظرون إلى القانون، وعندما صمتّ، قال الضابط لي يبدو أنك تخجل "خذوه واسقوه"، سحبوني إلى خارج مكتب المحقق وأخرجوا أعضاءهم وبدؤوا بالتبول عليّ.

قاطعت جاسم متهربًا مما ستكون كمالة القصة "قل لي عن المرافعة التي جعلتني فيها حَكَمًا"

تبسم جاسم: أنا متهم بالإرهاب والخيانة لأني خرجت في المظاهرات وهتفت للحرية والدولة المدنية الديمقراطية، وتطبيق القانون ووضع دستور جديد تُلغى فيه مواد لا تليق بعصرنا هذا، وأن تحدد صلاحيات الرئيس كموظف في الدولة لا إله، وأن يسمح بالتشاركية والتعددية الحزبية، وأن يطلق العنان للحريات العامة والخاصة، وأن نلتحق بركب الدول المتقدمة، نحن لسنا أقل منهم، نحن في سوريا أم الحضارات، وعاصمتنا أقدم عاصمة في التاريخ، نحن في سوريا أولى الدول التي دشنت الكهرباء عام ١٩٠٧، واليوم في عهد الأسد أغلب المدن تعاني قطعًا تامًّا للكهرباء وتوفر لتعذيبنا، نحن في سوريا أول من وضعنا قانون السير، نحن أول دولة في المنطقة انتخبت بشكل حر وديمقراطي عام ١٩٣٠، واليوم الانتخاب الحر محضٌ من

الخيال، نحن أول دولة أسسنا جامعة في المنطقة عام ١٩٢٣ وكانت نواة الجامعة مدرسة الطب البشري من عام ١٩٠٣، واليوم في عهد الأسد جيلٌ كامل مهدد بالجهل، جامعات دُمرت ومدارس تحولت إلى ثكنات عسكرية، نحن كنا أول من خرَّج دفعات من الأطباء عام ١٩٣٠، المرأة السورية أول امرأة في المنطقة ترشحت للانتخابات عام ١٩٤٩ وكنا وقتها قد سبقنا كثيرًا من الدول الأوروبية، واليوم المرأة في دولة الأسد معتقلة أو مشروع مغتصبة أو نازحة ولاجئة، وعلى الرغم من كل ذلك لأننا أردنا أن نكون في مصافّ الدول، اتهمنا بالخيانة والإرهاب، وأنت ترى حالنا، بينما هو ماذا فعل؟ سلط جيشه وأجهزته الأمنية على رقاب الناس، وسمح بالقتل والتعذيب والتنكيل، أعاد سوريا التي أردناها من الدولة المتقدمة إلى القرون الوسطى، واستعان بالميليشيات الطائفية وروسيا وإيران لقتلنا واحتلال بلدنا، أيهما خيانة؟!

- أحاول تغيير الموضوع خوفًا من آذان تتنصت علينا من خلف الأبواب "إذًا فلماذا خرجت في المظاهرات وعرضت نفسك لهذا الخطر وأنت كما تدعي تعرف كيف سيتصرف النظام؟".

ضحك: تقصد لماذا شاركت بالثورة؟ سأجيبك، سأعود إلى الحديث الذي بدأته، حينما أكون حقوقيًّا وأقف أمام هذا الفساد والمحسوبيات، كيف تراني أقبل بالواقع؟ ولكن عندما بدأت الثورة هتفنا لإصلاح النظام لا لإسقاطه، أردنا إصلاح النظام ولكن كان الرد بالقتل والاعتقال التعسفي.

أتريد مني أنا الحقوقي ألا أشارك؟! لكن في بادئ الأمر شاركنا كنوع من الفزعة لأهل درعا وبعدها حمص وغيرها، نحن في ديرالزور أهل النخوة، كنا نهتز ألمًا للدماء التي تسيل في فلسطين والعراق، فكيف لنا ألا نهتز لدماء أبناء بلدنا؟! قبل نهاية الشهر الثالث من عام ٢٠١١، كانت المظاهرات في ديرالزور بأعداد قليلة جدًّا، نخرج أيام الجمعة بعد الصلاة نهتف للمدن الثائرة، قبل أن تتحول إلى مظاهرات كبيرة، أتذكر في إحدى المرات أننا اتفقنا

نحن عدة شباب أن نذهب إلى جامع "البوسرايا" على اسم الحي نفسه، في وسط المدينة، شارع الجامع له عدة تفرعات، شارع مقابل الجامع يؤدي إلى عمق حي "البوسرايا" والجامع يقع خلف الشارع الرئيسي، وشارع يؤدي إلى حي الجبل والكراجات، دخلت الجامع وطوال الخطبة ألتفت يمينًا ويسارًا باحثًا عمن اتفقت معهم، لا أرى أحدًا وأنا وحدي لا أتجرأ على التظاهر بمفردي، وقعت عيناي في الجامع على شابين يجلسان على الأطراف يضعان "يشمر" الشماغ بالديري، ويغطيان وجهيهما، عرفت أنهم صديقاي، وعلى الطرف الآخر رأيت بعض الشباب ممن اتفقت معهم، عند انتهاء الصلاة قام أحد الشباب وصاح داخل الجامع "الله أكبر" وهذا نداء التجمع وخرجنا أمام الجامع وبدأنا أول هتاف "الله أكبر" حتى يجتمع الناس، وبعدها بدأنا الهتاف "يا درعا احنا معاكِ للموت ويا حمص احنا معاكِ للموت" و "بالروح بالدم نفديك يا شهيد"، كان عددنا عشرين شخصًا أو أقل، أما باقي المصلين أو أبناء الحي تجمعوا ولكنهم بقوا صامتين يتفرجون علينا، هذا المشهد غريب عليهم ولم يعهدوه من قبل، بينما نهتف بحماسة وقعت عيناي على شخص من المتفرجين علينا يؤشر إليَّ بعينه على طرف الشارع الرئيسي، لم أكن أفهمه، أصبح يؤشر بيده سرًّا حتى لا يلفت الأنظار، عندما نظرت نحو الجانب الذي يؤشر إليه بيده، وجدت عددًا كبيرًا من الشبيحة والبعثين قادمين نحونا وبأيديهم أسلحة بيضاء من عصي وسكاكين وسواطير وسلاسل حديدية، ناديت نحو أصدقائي "أجو الشبيحة"، وقبل وصولهم إلينا سحب أحد منهم مسدسه وضرب طلقة في الهواء، بكل تأكيد تفرقنا وبدأنا بالركض نحو الشوارع ودخلنا إلى عمق حارة "البوسرايا"، عددنا أقل بكثير من أعداد قطعان الشبيحة، يهرعون خلفنا كالكلاب المسعورة يحاولون الوصول إلينا لقتلنا لأي ذنب لا نعلم، ولكن عندما وصلنا إلى عمق حارة "البوسرايا" خرج نحو سبعة شباب من أبناء الحارة على أصوات نداءاتنا كنوع من الفزعة، كانوا يلبسون القميص الداخلي وبيجامات، أناس خارجون من منازلهم على أصوات

فزعة، حملوا بأيديهم ما رأوه أمامهم من عصي وسكاكين لتأمين حمايتنا وغطاءً لنا حتى نهرب، وبدؤوا يشتمون قطعان الشبيحة "لو أنكم زلم تقربون عليهم" كانوا يصيحون في الشبيحة، لكن الشبيحة تراجعوا فهم يعرفون أن هذا الحي لعائلة واحدة وكلهم أقارب وأي احتكاك سيواجهون الحي بأكمله، ردوا خائبين ونحن استطعنا الهرب.

كنت مضطرًا للسفر إلى دمشق لتقديم امتحاناتي الجامعية، وخلال هذه الفترة حتى يجنب النظام مدينة ديرالزور من المظاهرات، أطلق شائعات حول من يتظاهرون بأنهم "سرسرية" أي زعران باللهجة الديرية، عندما عدتُ كان صديقي محمد الحويجي الذي استشهد فيما بعد، متأثرًا بهذه الشائعات، لكن كنتُ أهون عليه وعلى نفسي، عندما عدت كان عند جامع "خالد بن الوليد" مظاهرة في حي القصور في منطقتنا، خرجت إليها وفي تلك الفترة كان عدد الشهداء من المتظاهرين قليلًا، ولكن كافيًا لإشعال فتيل ثورة في الدير، لأن الهتافات كانت "يا رصاصة صيبيني وعلى الجنة ديني، ويا رصاصة صيبيهم على الجهنم ديهم"، هنا بدأ النظام بالاعتقالات التعسفية والاستفزازات، وكانت ردة الفعل من الناس إضرابًا عن العمل وتحديدًا في المؤسسات الحكومية والخروج بالمظاهرات، تحول دوار "المدلجي" إلى ساحة اعتصام مفتوح للثوار وكان قريب علينا دوار "الدلة" وحي الموظفين والجبل، وكردة فعل من النظام أقام عند ساحة الرئيس اعتصامًا للمؤيدين وكانوا يأتون بالفنانين المحليين لتشجيع مؤيديهم، ولكن أعدادهم كانت أقل بكثير من أعدادنا، وتحول دوار "المدلجي" إلى واجب يومي ونقطة التقاء جميع التظاهرات التي تخرج وتأتي إلى الدوار وتحديدًا في الليل.

في يوم ٢٠١١/٤/٢١ كانت نقطة فارقة، احتشد الآلاف عند ساحة باسل الأسد وكسَّروا التمثال مع شعارات رنانة "بالروح بالدم نفديك يا درعا ويا حمص" و"هي الدير ها ها وهي الدير ها ها"، هنا شعر النظام أنه فقد

السيطرة على الوضع وبدأت موجة اغتيالات عبر القناصة المنتشرة على الأسطح لتخويف الناس، وحملات مداهمات ليلية واعتقالات بالجملة، جن جنونه، وتحديدًا فرع الأمن العسكري عند "سينما فؤاد" كان قد اكتظ بالمعتقلين، ويعد الأمن العسكري هو المسؤول عن ضبط المتظاهرين بالدرجة الأولى، وكان اللواء جامع جامع رئيس المخابرات العسكرية في الدير المسؤول الأول عن المدينة وعن الاعتقالات والاغتيالات وقتل المتظاهرين وقمع المظاهرات، حتى بدأت موضة أن تمر سيارات مدنية بالقرب من المتظاهرين وتطلق الرصاص على المتظاهرين، كان لدينا وعي بأن النظام يحاول جرَّنا إلى فتنة لأنه ليس من مصلحة أي مدني أن يقوم بمثل هذه الأعمال. وتبين لاحقًّا أن عناصر الأمن كانوا يسرقون هذه السيارات ويرتدون اللباس المدني ويقومون بذلك، هنا تشكل شيء اسمه لجان لحماية المتظاهرين وكانوا نواة الجيش الحر، وهم عبارة عن أناس عاديين من المدينة يمتلكون أسلحة فردية، مثل سلاح الصيد ومسدسات، ويمشون مع المتظاهرين كنوع لردع الأمن والشبيحة، بدأ الناس في المظاهرات يهتفون "الله محيي الجيش الحر" لنُظهر للنظام بأن لدينا قوة لتخويفه.

الحواجز التي كانت تنتشر في الأحياء، كنا نأخذ لهم الطعام والشاي ونتحاور معهم ونقول لهم نحن إخوة ولا نريد أن تتورطوا في قتلنا، نحن فقط نتظاهر بشكل سلمي من أجل سوريا، كانوا يقولون لنا وهذا هو الرد الدارج "نحن لسنا إلا مؤتمرين"، ولكن انشق كثير منهم وكانوا يتوجهون إلى الأرياف والقرى، إلى أن أتت جمعة "خالد بن الوليد" في ٢٠١١/٧/٢٢، حيث اتفقت ديرالزور وحماة على الخروج بمظاهرة مليونية، توافد الناس على الساحات من كل الأحياء والقرى والبلدات القريبة، يومها لم يبقَ ديريًا في منزله، الجميع نزل إلى الشارع، لو كان هناك تصوير جوي لوجدت طوفانًا من البشر في الشوارع، عبارة "الشعب يريد إسقاط النظام" كانت تعانق عنان السماء، كان

الصوت يزلزل الأرض زلزالًا، كنت أظن أن الصوت من شدة وقعه يصل إلى العاصمة دمشق، فكيف لرئيس لا يهتز؟! لقد سقطت الدولة في ديرالزور بشكل كامل، صُدم الجميع من حجم الأعداد، مئات الآلاف من البشر في الشوارع يهتفون، كان يومًا عظيمًا يومًا من أيام التاريخ، لقد سقط النظام واضطر إلى الانسحاب بالكامل من المدينة وباتت المدينة فارغة منهم، وأصبحت المظاهرات يومية، وتحول دوار "المدلجي" إلى أيقونة ثورية وساحةً للحرية، وتحول جامع "عثمان بن عفان" عند المطار القديم إلى نقطة تظاهر حاشدة أيضًا.

يعد الصيف في ديرالزور شديدًا للغاية، كان الناس عند المغرب يخرجون في المظاهرات، ولكن الأمر لم يبقَ هكذا، بدأت الماكينة الإعلامية للنظام تهدد وتروج الإشاعات لإرهاب الناس، وبدأ فعليًّا بحشد قواته عند مداخل المدينة وكانت الفرقة الرابعة هي من حشدت، كان يهدد بحرق الدير ومعاقبة الجميع، وكان صادقًا، لقد خاف النظام وارتعب من أن تستقر في قلوبنا نشوة الحرية، لقد كان مستعدًّا أن يدمر المدينة وفعلها فيما بعد، وألا تخرج مظاهرة مليونية أخرى، لقد ارتعدت أوصالهم وقلوبهم من هول ما رأوه، صوت الحرية يؤرقهم ويوقظهم في مضاجعهم، لم تتوقف الحملة الإعلامية وبث الشائعات على الإطلاق، وكان يهددون بالاقتحام كل يوم، لدرجة أنهم أصبحوا حديث الساعة، اليوم أو غدًا سيقتحم النظام، وكل يوم يقول غدًا، التهى الناس بهذا الأمر وكفوا عن التظاهر، بل بدأ الناس يخرجون إلى القرى والبلدات القريبة وتحديدًا النساء والأطفال والشباب من حجم ما نسمعه من انتهاكات وقتل واغتصاب في مدنٍ أخرى. كانت تهديدات الجيش أنه سيقتحم ليلًا وهو الوقت الذي كنا نخرج فيه للمظاهرات، فبات الجميع يلتزم منزله، في تلك الأيام تحولت ديرالزور ليلًا إلى مدينة أشباح، لا أحد في الشوارع سوى اللجان الشعبية لحماية الأحياء من أي سرقة ولضبط الأمن.

وبدأت بعض عربات BMB العسكرية تجوب الشوارع وتنسحب مع سيارت أمنية لترهيب الناس، قطعوا الكهرباء والمياة والاتصالات عن المدينة، مارس حربًا نفسية رهيبة علينا وقتها. بدأنا نستعد لمواجهة غير متكافئة، انهارت المعنويات، لدرجة أن أحد الشباب وكانت سنُّه سبع عشرة سنة أخرج سلاحًا وبدأ يطلق الرصاص على دورية التي كانت تجوب الشوارع لترهيب الناس، هذه الدوريات كانت تضرب قنابل صوتية لدب الرعب، بقينا على هذه الحالة قرابة شهر. واقتحم الجيش من منطقة الهجانة والجورة، وحدثت اشتباكات هناك بينهم وبين عناصر من الجيش الحر الذين كان عددهم قليلًا جدًّا وبأسلحة فردية، كنا نسمع صوت الرصاص بكثافة وكأننا على جبهة حرب مع إسرائيل، كان الرصاص يزخ مثل المطر في الهواء، يحتفلون بالنصر على الشعب.

بعد اقتحامهم، انتشرت الدبابات في الشوارع بشكل مقزز واستفزازي، الحياة باتت معدومة، حتى أصدر النظام عفوًا ولكن بشرط أن كل من شارك في التظاهر ومطلوب، عليه التوجه إلى مبنى المحافظة لتسوية وضعه بتوقيع على ورقة يتعهد بعدم التظاهر مرة أخرى، ذهبت وأنا خائف، كان الناس بالعشرات هناك. ولكن بدأت الحياة تعود تدريجيًّا إلى المدينة وعادت الناس التي خرجت إلى الأرياف، لم يمضِ كثير من الوقت حتى اكتشفنا أن موضوع التسوية ما هو إلا مكر من النظام للإيقاع بنا، وعادت الاعتقالات بشكل استفزازي لا يمكن تصوره، وقتل المعتقلين تحت التعذيب، والتعامل بفوقية غير معهودة مع الناس من خلال إذلالهم. هنا بدأت المظاهرات من جديد، عقلية النظام لا تتغير، ومع شدة المظاهرات والقتل والتنكيل، ظهر الجيش الحر بقوة وتحديدًا في القرى القريبة، وشُكِّلت لجان عسكرية من ضباط وعناصر منشقين، وبدأت الانشقاقات تتوالى، وبدأ النظام يقصف المدينة بالمدافع والدبابات وهدم الجسر المعلق الذي بناه الفرنسيون إبان

الاحتلال، ودمره الأسد حامي الوطن! في يوم من الأيام تلقيت اتصالًا من الأمن العسكري يطلبون مني مراجعتهم، وعندما سألت عن السبب قالوا "مراجعة روتينية سؤال وجواب، ومن ثم سأعود إلى منزلي" توجهت إلى الأمن العسكري خوفًا من أي مداهمة وخوفًا على أهلي الذين قد يعاقبون بسببي، توجهت إليهم. عند استقبالي عرفت أني لن أخرج، تعرضت للتعذيب وبقيت أحد عشر يومًا في المنفردة عاريًا، كان السوط يضرب جسدي كالسكاكين، وبعدها أدخلوا معي أربعة أشخاص آخرين في غرفة بعرض متر وبطول مترين، وبعدها وُضعت في زنزانة مع أربعين شخصًا، كان يطلق عليها زنزانة الميريديان لأنها تحوي على حمام داخلي وتُعَدّ هذه رفاهية. كنا ننام على جنب واحد لأن المكان لم يكن يتسع لهذا العدد، كنا ننام فوق أرجل بعض، كان المضحك أنه في أثناء التعارف على بعضنا كنت أقول إني طالب حقوق، كانوا يسمونني المحامي، والكل يبدأ يسألني عن قوانين وأحكام قضائية، يبحثون عن أي بصيص أمل، كانوا يعودون خائبي الأماني لا يجدون مني ما يفيدهم، أنا مجرد طالب حقوق، كانوا يقولون قانونًا، كم يحق لهم احتجازنا؟، وكان جوابي: وهل في توقيفنا أي أساس قانوني؟! ما بني على الباطل فهو باطل، توقيفنا جميعًا غير قانوني وغير مستند إلى أي بند قانوني، هذا اعتقال تعسفي.

وبدؤوا حملة تعذيب قُتل على أثرها عشرون شابًّا، وكانوا يضعونهم ليلًا عندنا وفي الصباح يأخذونهم، كنا ننام وبيننا قتلى تحت التعذيب، هل هذا قانوني؟! هذا ليس إنسانيًّا، كنت ومازلت أفكر كيف يمكن أن يموت الإنسان تحت التعذيب، كانوا يضعونهم عندنا لإرهابنا وتعذيبنا نفسيًّا، وإن مات الإنسان الذي في داخلي، أتوا بطفل سنُّه أربعة عشر عامًا قد اعتقل، ما جرمه؟ ماذا فعل؟ لم يتحمل التعذيب، أتوا به إلينا وهو مُدمٍ، لكنه كان يبكي ويقول أريد أبي وأمي، كان عاريًا تمامًا، قدماه قد تشققتا من شدة التعذيب

وجسده تحول إلى مطفأة لسجائرهم التي كان يطفونها في جسده الملائكي، وضعتُ رأسه بين يديَّ أحاول تهوية جسده من الآلام وعيناي تذرفان بكاءً، وما شعرت بدمعي إلا حينما تألم، وقعت دمعتي المالحة على جرحه فأحدثت له ألماً. علمت أن حتى البكاء له ثمن، حاولت مسح دمعي ومنع نفسي هذه الرفاهية. كان يتنفس بصعوبة بالغة يأخذ زفيرًا وشهيقًا ويتنهد حتى شهق مرة أخيرة واستشهد بين يديّ. أصابني انهيار وأنا أبكي وأضم رأسه إلى صدري وكأني فقدتُ بعض ولدي، وبعدها تعبت نفسيتي وأصبحت مكسورًا.

بدأ جاسم بالبكاء، مد يديه على عينيه ماسحًا دمعه، وأكمل حديثه.

بعدها قالوا إن وفدًا أمميًّا من الجامعة العربية سيزور السجون وأطلق شيء اسمه تبييض السجون، أطلقوا سراح بعضا من المعتقلين ونقلوا آخرين إلى أماكن أخرى، قالوا لي "لديك مراجعة روتينية سؤال وجواب وستعود" ومنذ ذاك الوقت ولم أعد، لقد أخذوني مع الآخرين سرًّا بعيدًا عن أعين الفريق الأممي، ونُقلنا إلى عدة أفرع ليستقر بنا المقام هنا في صيدنايا المسلخ البشري، ومنذ ذاك التاريخ ولا أعلم شيئًا عن أهلي، ماذا فعل بهم بطش النظام؟ ألا أُعتبر هكذا مخطوفًا لدى دولتي؟! ولكن هلا أكملت لي ماذا حدث لمدينتي يا سيدي؟ هلا أخبرتني ماذا حل بأهلي وديرتي أم النخوة؟

نظرت إليه نظرة حائر "أيها الحرس أعيدوه إلى زنزانته". خرج جاسم الأسمر وكأن بريق أمل لاح بعينيه.

أحجُّ لأغسل بعض الذنوب

خرجت من السجن منكسرًا، بت خارجَ المكان والزمان، أرهقني ما سمعت وأوجعني ما رأيت، كأني أصبحت مثقلًا بذنوب لم أقترفها!

نظرتُ إلى السجن من الخارج "آهٍ لو كان بالإمكان لهدمت هذا المكان وأخرجت من فيه" هنا يسكن محبو الوطن وعقوله ومثقفوه ومفكروه تحت وطأة سوط الجلادين.

همتُ بنفسي إلى القصر، لكني أشعر أن صدري سينفجر، أشعر بأني اختنقت، وصلت إلى دمشق وركنت سيارتي وبدأت أسير، أمر بشوارعها بدت مدينة كئيبة غابت عنها الحياة، ما هذه دمشق التي عرفت؟ الحزن في كل مكان وفي كل العيون والوجوه، مررت بحديقة رأيتها تحولت إلى مأوى لنازحين يفترشون الأرض وينامون فيه، رأيت أطفالًا يجلسون بحزن، ورجالًا يتسامرون بيأس، ونساءً غاب عن ضحكاتهن الحب، وقلوبًا متشوقة إلى الحياة، وفيروز ما عدنا نسمع صوتها في دمشق، ما عدتُ أطيق نفسي، ماذا فعلت بنا الحرب؟ وماذا فعلنا بأنفسنا؟ أنا في حاجة إلى زيارة مقدسة إلى الحج لأمسح هذا الإثم الجاثم على صدري ونفسي، سأذهب إلى القصر وأطلب إجازة حتى أرتاح قبل أن أبدأ معركتي مع الفاسدين وأُطلع الرئيس على كل شيء.

توجهت إلى القصر ودخلت مكتب العميد ذو الهمة شاليش.

- سيادة العميد، منذ فترة طويلة لم أطلب إجازة، وأنا في حاجة إليها أكثر من أي وقتٍ مضى، العيد على الأبواب.
- لك ذلك يا عميد علي، ولكن هناك مهمة ستقوم بها مع الرئيس وبعدها خذ إجازتك.
- أي مهمة؟
- الرئيس سيصلي العيد في أحد مساجد داريا كرسالة للإرهابيين، سترافقه وتُؤَمِّن له الحماية الخاصة، ونحن سنُؤَمِّن المكان.
- ماذا، داريا؟!
- هل هناك شيء؟!
- لا على الإطلاق.

بقلبٍ منكسر بدأت مع فريقي بالتجهيز لهذه الزيارة، لقد أمَّن الفريق الخاص الجامع، وهو جامع سعد بن معاذ، ومُشِّط المكان من أي ألغام قد زرعت بعد تمشيطها من أهلها، المكان خالٍ من السكان بعد تهجيرهم جميعًا إلى محافظة إدلب في الشمال السوري، ولكن يبقى دائمًا هناك مخاوف أمنية.

اتفقنا ألا نخبر المسؤولين عن مكان إقامة الصلاة إلا عند الساعة الثانية عشرة ليلًا قبل الصلاة بست ساعات. وُضعت الخطة الأمنية، وبعد تأمين محيط العاصمة بدأ الرئيس ينام في قصر المهاجرين ومن هنا حيث سننطلق إلى داريا.

دخلت صباحًا إلى الرئيس، كان قد حلق له حلاقه الخاص لحيته وتنعَّم، وبان عليه بعض قلق السنوات الماضية وتلون بعض شعره من فوق جبينه إلى شعيرات بيضاء، لقد انِهما الرئيس كثيرًا، شكل خسرانه للسلطة هاجسًا كبيرًا له طوال السنوات الماضية، كان يرتدي بدلة رصاصية وقميصًا أبيض

دون ربطة عنق، تبدو عليه الابتسامة، ووضع تحت قميصه الأبيض قميصًا واقيًا للرصاص.

- كل عام أنت بخير فخامة الرئيس.
- وأنت بخير يا علي، هل ننطلق؟
- نعم سيدي، جاهزون.

استقللنا موكبنا المعتاد الواقي للرصاص وتحركنا من قصر المهاجرين وتوجهنا إلى ساحة الأمويين في طريقنا إلى أوتوستراد المزة، الطريق كله مُؤَمَّنٌ قبل ليلة، والجيش ينتشر على الطريق، نسير بسرعة كبيرة.

بادرني الرئيس بالحديث "قريبًا سيعود الأمر كما كان يا علي بمساعدة أصدقائنا الروس".

جاوبت باختصار "بكل تأكيد سيدي، ولكن لماذا داريا؟!"

ضحك الرئيس "هذه رسالة قاسية لهم، نحن أقوى مما يتخيلون".

قلت في نفسي "ممن؟ من الشعب؟!".

وصلنا إلى مفرق داريا وانعطفنا يسارًا ودخلنا داريا، وبدأ المكان يصيح من هنا مر جحافلكم، الدمار ينادينا والخراب يعري انتصاراتنا وإنسانيتنا، وضعت نظارتي السوداء وأتجاهل بنظري تلك المشاهد، ليس لي قوة، أنا متعبٌ متعب، أعيش تناقضًا ما بين عقلي وقلبي، ما بين اليقين وعدم اليقين، شوارع فيها حفريات كثيرة نتيجة القصف، يجهد السائق الماهر في تجنب هذه الحفر، وأجبر على التباطؤ، أنظر من المرآة إلى الرئيس أراه ينظر مبتسمًا، لمن الابتسامة؟ لا أعلم، لهذا الدمار؟!

وصلنا إلى طريق حيث انعطف السائق إلى اليسار وسار قليلًا وتوجه إلى اليمين، كل ما حولنا دمارٌ في دمار، في أثناء سيرنا على الطريق الواقع يساره

أراضٍ زراعية خالية وبيوت سويت بالأرض بل أحياء سويت بالأرض، ويميننا مبانٍ مهدمة بالكامل تحولت إلى أطلال لمن له ذكريات هنا دفنت تحت الحجارة، وصلنا إلى آخر الطريق، لقينا أمامنا دوار الشهيد باسل الأسد، أتذكر كلام حسام في معتقل صيدنايا هذا دوار "أبو صلاح"، دخلنا إلى طريق فرعي، وقفنا ونزلنا من السيارات، كان في انتظارنا وبحسب الخطة الأمنية عدة سيارات "جيب" فضية غير مصفحة، ونزل الرئيس وركب السيارة ليقود بنفسه ليسوق أمام الكاميرا أن الأمر عادي، في أثناء تبادل السيارات وقعت عيناي على حائط نصف مهدم كُتب عليه "أتموت الثورات؟" يبدو أنَّ من كتبها كان يعلم بمرورنا! حقًا أتموت الثورات؟!

سرنا وأكملنا الطريق وعلى بُعد مئة متر وقفت سيارة الرئيس أمام باب الجامع ونزل، المباني المجاورة كلها مدمرة وحتى جامع "سعد بن معاذ" نفسه شبه مدمر ورُمِّم على عجل لهذا الغرض فقط، صعد الرئيس درج الجامع وسرت خلفه مباشرة، في انتظاره داخل الجامع مفتي الجمهورية ووزير الأوقاف والأمين القطري المساعد لحزب البعث، يوجد في الجامع أربعة صفوف فقط وكلهم من المسؤولين والوزراء وبعض الشيوخ والمخابرات، وبدأت الصلاة على الفور، الجامع من الداخل مجهز بشكل سريع، حتى النوافذ مكسورة من الأطراف ووُضعت سجادة طويلة وبدأت الصلاة.

أجلس خلف الرئيس كما جرت العادة، انتهت الصلاة وجلست على ركبتي وبدأ الإمام خطبته وأنا أتفحص المكان، إني أشم رائحة دمٍ، أتساءل: كم شخصًا قُتل هنا؟! المسؤولون الذين اعتادوا الجلوس على أرائك من النعام يتقلبون من الجلوس على هذا السجاد ويتحركون كل دقيقة باحثين عن وضعية أفضل. قاطع خلوتي وسهوتي في المكان كلام الإمام وهو يقول "لقد حرُم السوريون الحج للعام الخامس" وفي نفسي أقول وأنا سأحج قريبًا رغم كل شيء! ليكمل الإمام كلامه "هل يجوز لمن يدعي خدمة الحرمين أن يحرم

شعبًا حقه في عبادة الله -عز وجل- بسبب المواقف السياسية؟"، وأنا أقول إنك تنافق أيها الشيخ، فلماذا لم تخصص خطبتك لتقول: هل يجوز اعتقال أشخاص لمواقف سياسية؟ لكننا أصبحنا نعيش في دوامة من التناقضات، كل منا ينظر إلى الحقيقة من وجهة نظره، ولكن للحقيقة وجهٌ واحد، إنما الإنسان من يتمتع بأوجه عدة، لقد حول الإمام خطبته إلى خطبة سياسية فهو يُحمّل الأهالي دمار المدينة، بدأت أختنق منه، وقفت وخرجت من الجامع بشكل هادئ، وآخر كلامٍ بقي في أذني والإمام يقول "المصالحة أضمن"، وقفت على باب الجامع وأخبرت أحد مساعديّ بأني سأتجول قريبًا "بلغوني حين يُنهي الرئيس صلاته" تحججت بسيجارة وبدأت أسير لا أحاول الابتعاد، الأمن في كل ركن، أنظر إلى مبانٍ قد أصبحت مدمرة، تعب السنوات ذهب سدًىُ ربما قالها أحد أصحاب هذه المنازل، أتجول وحيدًا بين أزقة هذه المدينة باحثًا عن الحالمين والثائرين، أين أصبحوا؟ ولكن لا أجد سوى ذكرياتٍ، من يلملم الرماد إذا تناثر؟!

أرمي مسامعي بعيدًا باحثًا عن أصوات اختفت، وعن حريةٍ رحلت مع الراحلين، رائحة الموت وحدها تخيم على هذه المدينة. قطع خلوتي صوت يطلب مني العودة، الرئيس سيخرج، رميت سيجارتي غير آبه إذا كانت ستترك أثرًا أو تحرق شيئًا، فلم يبقَ ما هو قابل للاحتراق بعد أن احترق الوطن. عدتُ مسرعًا وقفت أمام باب الجامع حتى خرج الرئيس، وبدأنا نسير معًا وخلفنا حشدٌ من المسؤولين نتجول بين الأنقاض والركام، أدعو الله أن يعجل بإنهاء الزيارة لأخرج من هذا المكان الذي ما عدتُ أطيق البقاء فيه أكثر. كيف لنا أن نسير على ركامٍ؟ ألا نخشى أن ندوس على دمٍ سوري قد سال وجف هنا؟ ألا نخشى أن نكون سائرين فوق مقابر جماعية من أبناء بلدنا؟ مازالت صيحات حناجر تائقة تسكن في المكان، أسمعها بوضوح، من ذاك الركن صوت طفلٍ ينحر، ومن ذاك ثكلى تبكي بحرقة على أبنائها، ومن ذاك المكان رائحة حرق جثث تُلعي الأنفس يشعرني بالقيء، أما هناك

أسمع صوت امرأة تطلب نجدة من جنود يتناوبون عليها ويستبيحون طهرها ويدنسـون قداسـتها، ويلطخون شـرف الوطن بالعار، كيف نقول "نصـرٌ" ونحن لا نستطيع السير في الشارع بشكل مستقيم، دون أن نغير مسارنا بين ثانية وأخرى، نتجنب الدهس على الذكريات المتبعثرة بين الحجارة في الشارع، نسير وتحت أقدامنا حطام أحلامٍ وأمانيّ، لا يستقر بنا المقام دون أن نغير مطرح قدمينا؟ كل شيء هنا يقول لنا نحن نسير على وطن.

حتى طرقات الوطن بات السير فيها يذكرنا بحجم المأساة التي نعيشها، أسير اليوم حاجًا لأغسل بعض الذنوب التي أثقلت قلبي، وروحي وفؤادي. ما عدت أطيق الحال الذي أنا فيه، كل شيء يكبس على أنفاسي، فالفؤاد غير مستقر، خرجت من العاصمة فور انتهاء مهمتي مع الرئيس، أريد إجازة أعود منها خفيفًا، مليئًا بالطاقة حتى أستعد لمعركتي القادمة مع بعض الفاسدين من المسؤولين، ولا شيء يخفف عني وطأة الذنوب سوى حجٌ إلى مقام قديستي زينب والجلوس في رحابها لأزهد في الدنيا وأعتزل كل شيء سوى الحب. وآخذ بركة من أمي العجوز لتعطيني بعض الحنين ليرق قلبي، وأجلس في حضرة والدي أستمد منه بعض القوة، على الرغم من كبر سِنّهما، فإنهما مازالا يتمتعان حبًا بالحياة.

أسير على الطريق الذي سلكته في أثناء خروجي من قريتي "الشراشير"، أسير ومعي حفنة ذكريات في كل مطرح، طريق دمشق - حمص - اللاذقية، طريق اللاذقية - جبلة - بحر جبلة، طريق جبلة - الشراشير، مفرق القرداحة والشراشير، سنوات مضت وتغير الحال عما كان عليه، وبات الفتى الذي كان يسلك الدروب مشيًا يعود اليوم من أكبر الضباط في هذا البلد ويسكن في القصر الرئاسي، وخليل الرئيس وقلبه.

أصل إلى قريتي، أقف على أطلال ذكرياتي وحنيني، أقبّل يد أمي وأنحني لهامة أبي، وقد نال منهما العمر ما نال، ما عادا قادرَين على الحركة، كيف ذاك

وأنا قد نال مني العمر ما نال؟ أقدم العيديات لأبناء إخوتي، أتلذذ بكلمة "عمو" من أفواههم، حين أسمعها يئن قلبي على كلمة "بابا"، أدخل غرفتي لألبس أجمل ما عندي حتى يكون حجي مشكورًا وذنبًا مغفورًا، أقف أمام المرآةِ وقد اشتدّ الشيب في الرأس وتصلعت جوانبه من الشعر، وعلامات حزن سنواتٍ تغزو الوجه بالتجاعيد التي قد بدت تلوح، لكن الروح تطرب حين تسمع ذكر اسم زينب ويعود القلب شبابًا، القلب العاشق يبقى شبابًا مهما بلغ العمر، أما القلب الخالي يَشيخ حتى لو كان بالعمر طفلًا.

حين أزور قبر زينب لا أستقل سيارتي، بل أذهب إليها على قدميّ، لأتذكر تلك المشاعر والأشواق والشغف الذي كان يتملكني حين كنت أذهب إلى موعدٍ ما، كنت أشعر أن الوقت لا يمر وأني أتحرك مكاني، كنت أرجو من قدميّ أن تسرعا إليها، كنت أُقبِل عليها بشغفٍ. ورغم وفاتها منذ سنوات طويلة، مازلت أفعل الأمر ذاته، أذهب إليها على قدميّ وأجهد نفسي بالسير حتى لا أتأخر عليها، كانت دائمًا تسبقني على الموعد، واليوم الأمر ذاته إنها تنتظرني منذ وقتٍ طويل.

وصلت إلى المقبرة لأتفاجأ بأن أطراف من مقام زينب قد تحطمت، هرعت إليها لأتفحص وإذ بها قد تحطمت نتيجة سقوط قذيفة هاون على جدران قبرها، يريدون جر الأموات حتى إلى حربنا المجنونة المفتعلة، كما جرُّوا الشعب السوري إلى حرب ليست حربهم، يريدون إقلاق راحة الأموات، ونزع سكينتهم.

أنا الحاج إلى قبرك يا قديستي، فلتستقبلي العاشق المذنب. أُقبّل شاهدة القبر، كأني أقبل شفتين مغمستين بالشهد، وأمد يدي على تراب القبر، كالراقص الذي يمد يده إلى ثغر امرأته، وأضم إلى أنفي ترابها، كوجهٍ أضمُّه وأشتَمُّ رائحته. أنا يا زينبتي أتيتك آثمًا متعبًا مثقلًا بالهموم، يا زينب اليوم أقول لكِ لقد فزتِ والله حين غادرتِ باكرًا. الوطن الذي كنا نحلم به ما عاد

هو، تغير بل تشوه، ها أنتِ يا حبيبتي وفي قبرك لم تسلمي من الحرب وأهواله، لقد تحول الإخوة إلى أعداء، وتحول الشعب السوري إلى شعبين، والإنسانية فينا تجردت، والحب ما عاد يسكن في القلوب، حياتنا انتقام، وكلامنا سموم، ونظراتنا كراهية، نكيد لبعضنا المكائد، ونستبيح دماءنا، والوطن من يدفع الثمن يا زينب، لقد تحولنا جميعًا إلى مشروع قتيل أو مخطوف أو معتقل أو مهجر أو شريد، لقد تحولنا إلى أشلاء متحركة.

يا زينب، انقسمنا إلى مِلل وشعوب في وطنٍ واحد، أصبح الغريب يتحكم فينا ويقرر مصيرنا ويتكلم باسمنا ويخطط لمستقبلنا، أرضنا ما عادت لنا، تقاسمتها الدول وأصبحنا نأتمر بأمرهم، نعيش في تناقض فكري وروحي وعقلي كبير، نحن نضيع يا زينب نضيع. أتذكرين الغيرة يا زينب؟ ما عادت موجودة. أتذكرين الحب؟ لقد دفن معكِ. أتذكرين السماحة؟ لقد تحولت إلى ماضٍ. أتذكرين سوريا؟ هي في قلبي وروحي وفؤادي.

يا زينب، أتيتك لتساعديني على نفسي، أنا واقعٌ ما بين عقلي وقلبي، عقلي يقول إن كل ما يحدث خطأ وجرمٌ لا يجب السكوت عنه، وقلبي يقول كن مع الرئيس وأدِّ واجبك نحوه فقط. أنا أحبه يا زينب لكن السلطة أعمته عما يجري.

- ماذا قلتِ؟!

نعم، سأصارحه يا زينب، سأقول له كل شيء يا زينب، نعم سأفعل الصواب.

الحقيقة المجردة وجهًا لوجه مع الرئيس

الصواب هو أن يكون الرئيس أمام الحقيقة المجردة، أن أصارحه بكل شيء، سأضعه أمام مسؤولياته، الحب تجاه الرئيس لا يعني أن أحميه من الأعداء، بل الحب أن نحمي مَن نحب حتى من أنفسهم، أن نصارحهم وأن نقول لهم عن خطاياهم وذنوبهم وأخطائهم، الحب لا يقول أن نخفي عنهم كل هذا.

دخلت القصر وبدأت أجهز نفسي للقاء الرئيس، يجب أن أصُبّ كل تركيزي على هذا اللقاء، يجب أن يغير اللقاء كل شيء أو بعض الشيء أو أقلّها أن يطلق الرئيس حملة على الفاسدين ويحاسب المتجاوزين ويعيد محاكمة كل المعتقلين، يجب أن يطلق الرئيس بنفسه حزمة إجراءات إصلاحية حقيقية حتى يُخرجنا ويُخرج هذا الوطن من المستنقع الكارثي الذي نعيشه، ونحفظ ما تبقى من كرامة السوري. لقد استسقى تراب هذا الوطن بدماء طاهرة، علينا أن نحافظ عليه.

استُدعيت إلى مكتب العميد ذو الهمة شاليش.

- عميد علي، أريدك أن تجهز نفسك وفريقك لمهمة مع الرئيس، الرئيس سيلقي كلمة في دار الأسد للثقافة والفنون، سيلقي خطاب النصر على الإرهاب.

- بأمرك سيادة العميد، سنضع خطتنا.

خرجت من عند العميد ذو الهمة، وشعرت أنها الفرصة المناسبة لأفتح الحديث مع الرئيس، لقد حان الوقت. صعدت إلى مكتب الرئيس وطلبت من السكرتيرة قطع كل الاتصالات وعدم تحويلها إلى مكتب فخامة الرئيس إلى أن ينتهي الاجتماع، دخلت على الرئيس.

- فخامة الرئيس، أتمنى أن يتسع صدرك لكل ما سأقوله وتصبر عليَّ حتى أنهي فكرتي، لأن ما سأتطرق إليه سيكون جيدًا لو وضعته ضمن خطاب النصر الذي ستلقيه.

- قل يا علي، كلي آذانٌ صاغية. مع ضحكته المعهودة.

- فخامة الرئيس أرجو أن يضم خطابك حملة على الفاسدين ومحاسبتهم ومنهم رؤساء الأفرع الأمنية والسجون، وأن تصدر قرارًا بإعادة محاكمة كل المعتقلين.

- ماذا تقصد يا علي؟ إلى مَترمي؟! هؤلاء إرهابيون.

- فخامة الرئيس، خلال الفترة الماضية زرت سجن صيدنايا وفرع الخطيب، والتقيت عددًا من المعتقلين، سمعت الأهوال منهم ورأيت بعينيَّ، شعبك يا سيدي يُقتل تحت التعذيب، ونساؤنا تغتصب!

- وهل زيارة السجون من مهامك؟!

- فخامة الرئيس، أنا لم أزر بصفتي مراقبًا، إنما وصلت إليَّ عدة شكاوى، أردت الاطلاع عليها بنفسي قبل أن أطلعكم شخصيًا، أنا عينك وأذنك، سيدي، آلاف الشباب في المعتقلات والسجون يُعَذبون دون أي ذنب اقترفوه، والمئات والآلاف قُتلوا تحت التعذيب بلا أي ذنب.

- كيف بلا أي ذنب؟!

- سيدي، التهم الموجهة إليهم مِن تلفيق الأجهزة الأمنية، التهم الحقيقية غالبيتها العظمى التظاهر أو نشاط إعلامي.

بشار الأسد: وهل تُعَدّ هذه تهمًا سهلة؟!

- فخامة الرئيس، متى كان عقاب المتظاهر أن يُسجن أربع سنوات ويتعرض لأقسى أنواع التعذيب دون أن يعرف أهله أنه على قيد الحياة؟ متى كان عقاب المتظاهر أن يُعتقل وهو دون أربعة عشر عامًا ويُقتل تحت التعذيب؟ متى كان عقاب المتظاهر أو ناشطة في جامعتها تُغتصب يوميًّا على يد رئيس الفرع أو أحد من عناصره؟ متى كان عقاب المسعف أن يُعتقل ويعذب؟ سيدي، دُمرت المدن والقرى وتهجر الآلاف من البشر بسبب التظاهر.

- أراك تتكلم مثل المعارضة يا علي!

- بل يا سيدي هذه هي الحقيقة المجردة، ألا تتذكر أول اجتماع؟ نحن من وزعنا السلاح وسمحنا بانتشاره، ألسنا من فعل ذلك نتيجة مظاهرات سلمية عارمة؟! ألم نطلق سراح الجهاديين ليشكلوا فصائلهم بدلًا من الجيش الحر حتى نبرر القتل؟! ألم نقتل ونعقتل؟!

بشار الأسد: يا علي، هذه حرب والكل سيدفع الثمن.

- ولكن فخامة الرئيس، تحوَّل الوطن إلى بحر من الدماء، يتحكم فينا الروسي والإيراني والأميركي والجميع.

- دعك من كل هذا وسنتحدث فيما بعد.

- فخامة الرئيس، أرجوك، أنا أقول لك الآن حتى تضم إلى خطابك القادم بعض الإصلاحات التي ربما تغير شيئًا، أنا وأنت والجميع يعلم أن المظاهرات كانت سلمية واعتُقلوا وقتُلوا لإنهاء التظاهر، وأن أجهزتنا الأمنية هي من شكلت الإرهاب لسحق الجيش الحر، وأن الجيش الحر تشَكَّل من ضباط وضباط صف وعناصر رفضوا قتل المتظاهرين، وتعلم أن طيراننا والطيران الروسي مَن قصف المدن والقرى والبلدات الآهلة، أنت تعلم.

قاطعني الرئيس بشار الأسد: توقف يا علي، يريدون الحرية فليتحملوا.

- فخامة الرئيس، أرجوك.

- هل أتعبتك الحرب يا علي؟!

- هل تطلب مني أن أتقاعد يا سيدي؟! ما أطقتُ فراقك يومًا، وتريد مني اليوم أن أتقاعد؟!

صمت الرئيس ونظر نحوي: يا علي، لقد أتعبتك الحرب، في حركة التنقلات القادمة سنرفعك إلى رتبة اللواء وتتقاعد.

وأشار الرئيس إليَّ بيده للانصراف. خرجت مذهولًا مدحورًا، الرئيس صديق الروح الذي كان يقول "لا أصبر على فراقك ولا أطمئن إلا بوجودك" يطلب مني أن أتقاعد وقد اتخذ قراره، لأني صارحته فقط.

جلست في مكتبي أشعل سيجارة بعد أخرى، وأنا مندهش ومصدوم ومفاجأ، مُغيَّبٌ عن العالم، الرئيس يستغني عني؟ كيف ذاك؟!

والله إني لأحبك أكثر من روحي، أردت نصيحتك، أدخل الساعة الثانية صباحًا والنوم يجافيني، وصداعٌ يأكلني ويؤرقني، ودمعة مسلولةٌ باغتتني، لا

أتصور نفسي دون الرئيس، لا أتصور أنه سيمضي عليَّ يومٌ لا أرى فيه بشار الأسد.

سنوات طويلة، وذكرياتٌ جميلة، ومواقف حاسمة، قدمت له روحي في أكثر من موقف، حميته من الموت حتى من أخته، اليوم لأني صارحته ولم أنافقه سيخرجني من خدمته، ولكن عليَّ أن أصل إلى حل، هل يُعقل أن ينتهي كل شيء هكذا وبهذه الصورة؟!

عند الصباح عدتُ إلى عملي المعتاد وبدأنا التجهيز ووضع الخطة الأمنية لخطاب الرئيس. تقع دار الأوبرا أو ما يعرف رسميًّا بدار الأسد للثقافة والفنون في ساحة الأمويين، قريبًا من القصر، تقع بعد ساحة الأمويين بأمتار قليلة في شارع باسل الأسد، القاعة التي سيلقي فيها الرئيس خطابه، قاعة ضخمة جدًّا، مصمَّمة على طراز دور الأوبرا في العالم كله، أمام المنصة مُدرج كبير طويل، وعلى الجانبين طوابق عدة على أشكال شرفات يجلس فيها المسؤولون والنافذون، الضيوف والمدعوّون لهذا الخطاب يُخْتارون بالاسم، مسؤولو الدولة ورؤساء الأجهزة الأمنية والعسكرية وقادة فرق الجيش، والوزراء ومديرو المؤسسات المدنية وأعضاء مجلس الشعب، ورجال الأعمال والفنانون والمثقفون وكل من هو مقربٌ من السلطة.

في الصباح خرجت لتفقد الموكب والإشراف على الجاهزية، هدأت سماء دمشق منذ أشهر من الطيران، باتت العاصمة ومحيطها في أيدي الجيش والشرطة العسكرية الروسية والحرس الثوري الإيراني وحزب الله اللبناني، اختفى الدخان الناتج عن القصف على أطراف دمشق. خرج الرئيس مرتديًا بدلته السوداء بقميصه الأبيض وربطة عنق سوداء، ركبنا الموكب وتوجهنا إلى دار الأسد للثقافة والفنون "الأوبرا"، كان الطريق قصيرًا للغاية، وصلنا إلى المكان، وعندما وقفنا وقبل النزول استدرت إلى الرئيس الذي

يجلس في المقعد الخلفي "فخامة الرئيس، بعد هذا الخطاب سأقدم استقالتي وأذهب إلى التقاعد المبكر"، هز الرئيس رأسه ولم يُبدِ أي أعتراض أو استغراب، وحتى إني الآن اتخذت قراري.

نزلت خلف الرئيس ودخلنا إلى المبنى وتوجهنا نحو القاعة الكبيرة، دخل الرئيس وبدأ التصفيق الحار جدًّا، درجان صغيران على جانبي المنصة.

وقفتُ خلف الستارة المخملية وحولي اثنان من زملائي، وعلى الجانب الآخر من المنصة يقف عدد من أفراد الحرس خلف الستارة، والرئيس وحده على المنصة وأمامه الميكروفون لإلقاء الكلمة.

- "تعيش سوريا هذه الأيام انتصارات متتالية على الإرهاب والمتآمرين، أهنئ بهذه المناسبة القوات المسلحة الباسلة، والقوات الرديفة وجرحانا وعائلات المقاتلين وعائلات الشهداء وأهنئ الشعب السوري عامة".

بدأ التصفيق الحار يجتاح القاعة كلها. وعاد الرئيس إلى كلمته.

- "منذ بداية الأزمة أعيش مع كل السوريين نفس الحالة، ونرى الأمور ونقدرها بنفس الطريقة، المؤامرة كانت واضحة والدَّور الخارجي كان واضحًا، ودور العملاء والخونة كان واضحًا. عندما كان يدخل إرهابي إلى منطقة كنا نشعر بنفس الشعور، وعندما كان يخرج الأهالي ويهجرون كنا نشعر بنفس الشعور. كذلك عندما يأتي الجيش ويحرر منطقة وتحدث مصالحة، وعندما يعود الأهالي وتعود الحياة وتُبنى البنية التحتية كنا نشعر بنفس الشعور. فرسالتي اليوم أوجهها إلى الذين عملوا ضد سوريا، الذين راهنوا على السقوط في الأيام الأولى من الأزمة والأسابيع الأولى والأشهر الأولى وحتى هذا اليوم، خصوصًا الدول التي انغمست بشكل مباشر في التآمر على سوريا ودعم الإرهابيين وطبعًا الخونة وعملائهم من السوريين الذين قرروا أن يكونوا جزءًا

من المخطط الأجنبي. الدولة السورية مصممة على استعادة كل منطقة من الإرهابيين، على الأمن والأمان، على إعادة الإعمار، على إعادة البنية التحتية، على إعادة كل ما هُدم بكل معانيه البشرية والمادية. اليوم سنبدل الحرية الحقيقية بالحرية المزيفة التي أرادوا تسويقها في بداية الأزمة، الحرية التي تبدأ بإعادة الأمن والأمان وتنتهي بالقرار الوطني المستقل، ليست الحرية التي تبدأ عندهم بحفنة دولارات وتنتهي مطلع كل شهر أو مطلع كل موسم إرهابي، أو ربما بمناصب في سوريا الجديدة التي يخطط لها الغرب، سوريا الخانعة والخاضعة، سوريا الإمَّعَة".

يصفق الجمهور والمسؤولون وهم يبتسمون، وأنا أشعر بمرارة تحرق قلبي، ألوم نفسي على أني شاهدُ زور على كل شيء، لقد انتصرنا على الشعب واتهمناه بإرهاب نحن صنعناه، أرغب في البكاء وضميري يؤنبني، ولكن أي دمعة تنذرف مني سأحاسب عليها. يكمل الرئيس خطابه.

- "اليوم ونحن نحتفل بالنصر سنصيح الله أكبر، معًا كسوريين بمعناه الحقيقي ليس بمعناه الوهمي الذي أرادوه هم، بمعناه الحقيقي أي بالمعنى الذي نصت عليه كل الأديان بحفظ كرامة الإنسان، رسالة محبة للسلام والأمان وليس كما أرادوه بسحق الإنسان وزهق الأرواح وتدمير الأرض".

يصفقون مجددًا لهذا الكلام المعسول، ومن يصفق هم أكثر من يُعذب السوريين، حيث الكرامة أهدرت في المعتقلات وانتُزعت أمانيهم وانتُزع السلام منهم، وما عاد يشعر السوري بالأمان لأنه فقده، وعن أي كرامة يصفق هؤلاء ونحن من نَغتصب نساءنا ونقتل تحت التعذيب أبناءنا؟! أي تدمير وهؤلاء من يجلسون قد دمروا الوطن بالدبابات والمدافع والصواريخ والطائرات؟! ومَن يزهق الأرواح ويقول عنها فطائس سوى ضباطنا؟! أشعر أني أنتفض من داخلي. يكمل الرئيس.

- "رسالتي إلى كل العالم، أنتم حزانى ومقهورون ونحن اليوم سعداء، وسعداء لأنكم مقهورون".

ضحك هستيري في القاعة وفي المدرجات وتصفيق.

- "أدعوكل السوريين إلى إجراء مصالحة مع الدولة، والدولة التزمت بكل مواثيقها وتعهداتها، وتمد أيديها للجميع، عودوا إلى حضن الوطن، لصالح من تُدَمَّر مدننا؟ وأقول كفاكم أوهامًا، بعضكم صدق أنها ثورة! الذي يريد أن يبقى مصدقًا لهذه الثورة فيجب أن يعلم أنها ثورة مأجورة وأقول نحن لن نخذلكم، إنها ثورة مأجورة وأنتم ثوار مأجورون".

ضحك هستيري آخر وتصفير في المدرجات وتصفيق، والرئيس يتلذذ بتحديه ومأساة شعبه، الرئيس الذي يعلن أنها حقًّا ثورة، أبلع ريقي وأحاول أن أكون متمالكًا. ويكمل الرئيس تهديده.

- "من أراد أن يبقى ضدنا، يجب أن يعلم أننا لن نتوانى في محاربة الإرهاب، منذ اليوم الأول أعطيت تعليماتي بضرورة حماية المواطنين وألا يراق دمٌ، وأن نميز بين المواطنين والمسلحين، لقد حاربنا الإرهاب، وأنقذنا الوطن بعد أن دمروه وجعلوا منه حطامًا، ولن نتوقف حتى نحرر آخر شبر من الأراضي السورية، وسيكون مصير من أراد حربنا إما الموت أو السجن، ونحن على رغم إجرامهم سنحاكمهم محاكمة عادلة، ونُؤَمّن الحقوق القانونية، لا كما يقومون هم بتقطيع الرؤوس".

هنا ما عدتُ قادرًا على الصمت على تزوير الحقائق وتاريخ بلادي، حيث ينتصر القاتل ويحتفي، ويموت البريء ويُتَّهم بالخيانة، في لحظة سمعت صوت زينب وهي تقول لي "افعل الصواب"، هنا سمعت صوت حسين الهرموش وهو يقول "الوطن"، وصوت عماد ومياسة وحسام وجاسم وخالد

وهم يقولون "كن صوت الثورة في هذا الاحتفال"، لقد عشت طويلًا صراعًا ما بين قلبي وعقلي، عشت تناقضات لأحمي من أُحِبّ، لكن حين يكون الوطن هو الطرف الآخر من المعادلة، فالنتيجة حتمًا ستكون اختيار الوطن، في خطاب النصر يجب أن يكون فيه الشرفاء من أبناء بلدي ممن عشقوا هذا الوطن، فإن هم غابوا فأنا السنوات الضائعة من عمر طل الملوحي، أنا نضال مشعل تمو، وصرخة القاشوش، ومشروع أبو فرات، وبندقية حجي مارع، أنا الأمير أنس الشغري، أنا السلام باسل شحادة، ووردة إسلام دباس، وهتاف غياث مطر، وفكر نبيل الشربجي، أنا جسد زينب الحصني، وبراء حمزة وهاجر الخطيب وثامر الشرعي، أنا ثورة الساروت، أنا قلم ناجي الجرف، وصوت رائد الفارس، أنا حلم مي سكاف في سوريا العظيمة.

مدت يدي على خصري الأيمن وأخرجت مسدسي، وصِحتُ بصوتٍ عالٍ "كذااااااااااااب"، استدار بشار الأسد نحوي وهو مذهول، وأطلقتُ رصاصتين عليه، ولكن سرعان ما شعرت بقوة دفعتني على الأرض رصاصات من زملائي ووقعت على الأرض، وأخيرًا أطلقت عنان الدموع لتزف ألمي على العيان بعدما منعتُها وحبستها، كنتُ أخشى كثيرًا أن يفضحني الدمع، كنتُ أضغط على نفسي وأتشنج، وأتصلب؛ لأخفي دمعتي، ولكن الآن شعرت بالحرية المطلقة.

الحرية، هذه الكلمة التي أسمعها من سنوات، الحرية التي أوصلتنا جميعًا إلى هذا التناقض والتناحر. حينما كنت أسمع بهذا المصطلح "الحرية" كنت أرتعب وأشعر أني سأحُاسب لمجرد سماعي لهذه الكلمة.

لقد تحولت هذه الكلمة المؤلفة من أربعة أحرف إلى تهمة بل يُقرر عليها مصير المرء. سنواتٌ وأنا أسمع هذه الكلمة بعيدًا عن مسامع العسس،

كرهتها، لأني وباعتقادي، دمرت هذه الحرية وطننا وهجرنا ودُمِّر الإنسان الذي بداخلنا، أو هكذا كنتُ أعتقد.

لكني اليوم أشعر وللمرة الأولى في حياتي بمعنى الحرية، أتذوقها وكم هي لذيذة وشهية هذه الحرية. حتى دموعي كانت تريد حريتها وسلبتها إياها هذا الحق. يقول المثل "تتوقف حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين"، وكانت حرية دموعي تعني فضيحتي، لا أعلم هل هذا مبررٌ كافٍ لنحد من الحريات الأخرى؟

وقعت على الأرض والدموع تنذرف، أنا لم أشعر بالمياه التي تتدفق من عينيّ، وإنما أشعر بأني حرٌّ فقط.

بدأ كل شيء من حولي يتحول إلى ضباب، أقاوم لأفتح عينيَّ وأعرف ماذا يحدث من حولي، أشاهدُ أرجلًا تركض نحوي بسرعة، أغلق عينيَّ لأعاود المقاومة مرة أخرى. الصراخ في كل مكان، أسمع الصراخ والنحيب وأصوات أقدامٍ تركض، الجميع يصرخ ولكني لا أفهم ما يقال.

أشعر بألمٍ شديد في بطني والدماء تتدفق في رأسي، وحرارة تشتعل في جسدي، أسحب يدي إلى بطني لأضعها على موضع الألم، يبدو الألم أكبر من وضع يدٍ عليه وأعمق مما أتخيل، ولكن قبل أن تصل يدي على موضع الألم، بدأت أتلقى ضربات مبرحة، أصرخ بصوت عالٍ بعد تلقي الضربة الأولى من قدم أحدهم على مصدر الألم، رأسي يكاد ينفجر، وأشعر بأن عينيَّ ستخرجان من مكانهما. قاومت الألم وفتحت عينيَّ، أشعر بدوارٍ، الأسقف تدور ولا تثبت في مكانها، أقاوم لأُثَبِّت عيني على زاوية محددة لأعرف ماذا حدث، ولكني لا أجد سوى أقدام أشخاص أجهل عددهم يتقاذفونني بضرباتٍ قاسية وموجعة. ينتشر الألم في كل أرجاء جسدي، مرة أخرى أخسر

معركتي في المقاومة بأن تبقى عيناي مفتوحتين، الفضول يؤلمني أكثر من الألم الذي في صدري وبطني وما ينتج من الركلات القوية. أسمع إهانات وشتائم وسبٍّ للذات الإلهية لكن لا أعرف مَن يسب ولمن يوجهها، ربما لي؟ أريد أن أعرف!

لقد اعتدت وعلى مدار سنوات طويلة أن أسمع سَبّ الذات الإلهية، بل تحول الأمر إلى شيء عاديّ بيننا وكثيرًا ما يضحك الجميع على سب الذات الإلهية ولا يوليه أحد الاهتمام.

أسمع صوت أرجلٍ تركض وتقترب، وصوت أحدهم يصيح "جيبوه لهذا الخائن"، تُراه مَن يَقصد بالخائن؟ لأننا في هذا البلد بات الجميع يتهم الآخر بالخيانة دون أن نعرف ما الذي نقصده بهذه الكلمة، سنوات طويلة وأنا أسمع تقريبًا كل يوم هذه الكلمة، لكن تبدو هذه المرة وقعها على أذني من النوع المرير، اقترب صوت من أذني يقول "لننتقم منك يا خائن" إنه يقصدني، أنا أكثركم حرصًا على هذا الوطن، أنا أعشق تراب الوطن، لا شيء في هذا الكون يجعلني أرتجف سوى الأشياء التي تتعلق بالوطن. أنا لستُ خائنًا. أضغط على نفسي وأسمع زقزقة أسناني وأنا أضغط عليها لأفتح عينيَّ وأرى هذا الذي ينعتني بالخائن، لقد كان لوقع نعتي بالخائن في نفسي أشد ألمٍ من الآلام التي أعانيها. أجمع قواي لأفتح عينيَّ وأصرخ في وجهه، لستُ بالخائن أيها الجاهل! رفعت رمشي وفتحت عينيَّ لأصرخ في وجهه، أجد رجلًا يبدو طويلًا جدًّا جدًّا، لا أرى ملامح وجهه، فالضوء الساطع من السقف يحجب ملامحه عني، وإذ به يرفع ركبته وأرى كعب حذائه يضرب وجهي.